

المسرد المعبد

الأسرارُ الخفيةُ لجماعة
الإخوان المسلمين

تأليف
ثروت الخرباوي



العنوان:
سر المعبد
الأسرار الخفية لجماعة
الإخوان المسلمين

تأليف:
ثروت الخرباوي

إشراف عام:
داليا محمد إبراهيم

جميع الحقوق محفوظة © لدار نهضة مصر للنشر

يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين
أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية
أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

الترقيم الدولي: 4-4559-14-977

رقم الإيداع: 9721 / 2012

الطبعة الأولى: نوفمبر 2012

تليفون: 33466434 - 33472864 02

فاكس: 33462576 02

خدمة العملاء: 16766

Website: www.nahdetmisr.com

E-mail: publishing@nahdetmisr.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي -

المهندسين - الجيزة

أسطورة الكتاب

إذا كنت ستقرأ هذا الكتاب لتأخذه كما هو
فلا تقرأه؛ وإذا كنت ستقرأه وقد اتخذت مسبقاً
قراراً برفضه فلا تقرأه، ولكن اقرأ وفكر، ثم بعد ذلك
ارفض أو قبل، ارفض الكل أو ارفض البعض، وقبل
الكل أو قبل البعض، قراءة بلا تفكير ليست قراءة
ولكنها تلقين، الأحرار فقط هم الذين يفكرون حين
يقرءون، قراءة مضمخة بالتفكير تعطيك عمراً
جديداً، وفي هذا الكتاب أهب لك بعض عمري.

الذين

ثروت الخرباوي

قَبْضُ الرِّيحِ

أَيُّهَا الْإِنْسَانُ هَلْ تَعْرِفُ حَجْمَكَ؟ أَنْتَ بِالنِّسْبَةِ
لِحَجْمِ الْكَوْنِ صِفْرٌ، تَكَادُ تَكُونُ عَدَمًا، وَعُمُرُكَ
بِالنِّسْبَةِ إِلَى عُمُرِ الْكَوْنِ صِفْرٌ، وَكَأَنَّكَ لَمْ تَدُبَّ عَلَى
الْأَرْضِ أَصَلًا، فَلْنَفْتَرِضْ أَنَّ اللَّهَ بَسَطَ لِأَحَدٍ خَلْقَهُ
فِي الْجِسْمِ فَجَعَلَهُ فِي حَجْمِ الْكَوْنِ، وَلْنَفْتَرِضْ
أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ هَذَا الْمَخْلُوقَ يَعْيشُ مِنْ بَدَايَةِ خَلْقِ
الْكَوْنِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، ثُمَّ وَقَفَ هَذَا الْمَخْلُوقُ يَنْظُرُ
إِلَى الْكَوْنِ فَهَلْ سِيرَاكَ وَيَلْحَظُ زَمَنًا مَرًّا عَلَيْكَ؟ أَنْتَ
أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مِثْلُ «قَبْضِ الرِّيحِ».

خَفَّفِ الْوَطْءَ مَا أَظُنُّ أَدِيمَ الـ

أَرْضِ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الْأَجْسَادِ

﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾.

صدق الله العظيم

«يَبْدَأُ الْإِنْسَانُ الْحَيَاةَ عِنْدَمَا يَسْتَطِيعُ الْحَيَاةَ خَارِجَ نَفْسِهِ»

ألبرت أينشتاين

﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾

صدق الله العظيم

الفصل الأول

صوت الحرية

أزمنةٌ وأمكنةٌ تتجمّعُ في إناءٍ واحدٍ ثم تتفرّقُ فيذهبُ كلٌّ منها إلى حالٍ سبيله، تتجمّعُ الأزمنةُ والأمكنةُ في عقلي ثم تغادرني فأقتفي أثرها، أبحثُ عن الحقيقةِ فيخاطبني صوتٌ ينبعثُ من داخلي: إنك لا تبحثُ عن الحقيقةِ ولكنك تبحثُ عن الطريقةِ، حرّر نفسك من الطريقةِ لتجد نفسك في قلبِ الحقيقةِ، ولكن ما زال الطريقُ أمامك طويلاً لتتخلّى عن الطريقةِ، أصمُّ أذنيّ عن سماعِ الصوتِ لكنّ القلوبَ مرهفةٌ، ما يمرُّ عليها ينطبعُ فيها، أفتحُ بصيرتي فأجدُ الطريقَ خلفي ولكنني أحاولُ أن أتجاهلَ خطوطه التي تمرُّ بقلبي فتتصبّبُ كحجرٍ ماردٍ أمامي يعوقني عن الرؤيةِ، حطّم هذا الحجرَ الماردَ، اذهبْ إليه وأعلنْ ثورتك ضدهُ تسقطُ كلُّ الطرقِ، ولكنّ ثورةَ النفسِ غيرُ دَفقةِ الروحِ، إنّما تثورُ النفسُ على الواقعِ، وأمّا الأرواحُ بدفقاتها فإنّها تخرقُ الواقعَ وتتجاوزُه، فبالدفقاتِ نخرقُ الطريقةَ ونصلُ إلى الحقيقةِ، وذاتُ ثورةٍ خرجتُ ثائراً، أجهلُ في جوانحي نفسيّ الثائرة، وروحي المتأهبةُ، كان الشارعُ كبيراً غاصّاً بالثوّار، وفي الثوراتِ التي تندمجُ فيها الأنفسُ تفعلُ

الأرواح فتسمو وترتقي، وعند أنفعال الروح رأيتُه، رأيتني، عرفته، عرفتني، أدركته، أدركتني، تنفصل الروح عن الجسد حين يموت الإنسان وحين يحب، فإذا أحب تدفقت روحه متسرّبة من الوعاء، فترى نفسها وتتعرّف عليها، حينها، وحينها فقط لا طريق ولا مكان ولا زمان ولا طريقة، ولكن فقط هي في حق الحقيقة.

في قلب الثوار كان صديقي معي، نائر قديم جاء يجدد ثورته، فالثورة مثل الوضوء، أمسك خالد داود يدي حينما أنهالت علينا قنابل الغاز والدخان مخافة أن نفترق، فافترقنا، سمعت صوته من بعيد يجذّرني، حاسب، حاسب، قنابل الغاز مميته، بحثت عنه فلم أجده، احتميت بمدخل عمارة في محاولة مني لاستنشاق هواء، بعض هواء ولو كان ملوثاً تلوثاً يسمح ببصيص حياة، هداً خاطري وانتظم نفسي فخرجت أبحث عنه فإذا بصياح من بعيد: حاسب يا حاج، حاسب يا حاج، من هو هذا الحاج؟! وبعد أن تلقيت ضربة صمّاء بكساء على ظهري أدركت أن الحاج كان أنا، وحين التفت إلى من ضربني وجدت بعض الوحوش الجائعة المسكينة التي لا تعرف شيئاً عن شيء، كانوا قد وضعوها في أقفاص حديدية، وعلموها ما يريدون، ولقنوها ما ينفعهم لا ما ينفعهم، تلك الوحوش المسكينة كانت في يوم من الأيام تسعى في مناكب الأرض لكسب الرزق، يعبدون الله بالفطرة، حتى ولو لم يسجدوا أو يركعوا أو يقرءوا القرآن، أو يعرفوا أحكام الصيام والحج، هم من أهلنا الذين يرضون بالقليل من الزاد، ويحافون من سطوة الحكام، ما يقوله القائد في معسكرهم هو الحق ولا حق غيره، هؤلاء الثوار عملاء يريدون تخريب البلد، حافظوا على بلدكم واقضوا عليهم، وكلمة القائد حق، دين، عقيدة،

نظرت إليهم وجدتهم ضعفاء خائفين بائسين، في قلوبهم وجل، وفي أفئدتهم
دُعر، يضربون بقوة وانتقام وكأنني أنا الوحش، لم أشعر بوقع الهراوات
على ركبتي، ولا بجذبهم العنيف ليدي، ولا بسحبهم لجسدي الضعيف
على الأرض، فقد كنت قد تركت جسدي، أترك الإنسان جسده قبل أن
يموت؟ نعم، يتركه في الحلم، ويتركه حينما يصبح الحلم حقيقة، رأيتني
وأنا أنظر لنفسي من مكان مرتفع، فعرفتني، وأدركتني، أنا ذلك الشيخ
الضعيف صاحب اللحية البيضاء، وهم ثلاثة ضعفاء أيضا وجوههم مثل
وجوه أهلي بالريف، وجوههم فيها طيبة ولكنّها الطيبة التي تختلط بالذعر
فتحيل صاحبها إلى كائن لا يعرف نفسه، طيبون هم ولكنهم يرتدون أقنعة
الوحوش، وجوههم التي يضربون بها ليست هي وجوههم الحقيقية، كان
الثلاثة يضربون الشيخ صاحب اللحية البيضاء بعنف على ركبته بهراواتهم
ثم يجرونه جراً على الأرض، يذهبون به إلى سيارة الأمن المركزي الرابضة
على ناصية الطريق، بحثت من المكان المرتفع الذي أحلق فيه عن (خالد داود)
فلم أجده، فرقت بيننا السبل، دار في خلدي كيف أنا أراي الآن؟ أنا هو؟!
وكيف أنا في هذا المكان المرتفع، وأنا على الأرض أتلقى الضربات فلا أشعر
بألم الضرب ولا وجع تهشم العظام؟! هل هذا هو الموت؟ هو انسحاب
الروح من الجسد؟ وهل يموت الإنسان من وقع عصا على ركبته!! أم أن
قلبي لم يتحمل الثورة وجسدي لم يتحمل الدفقة، فأنطلقت الروح إلى عوالمها
شغفاً وحباً وهياماً، ولكنني شعرت بروحي ما زالت مرتبطة بجسدي
لم تفارقه بعد، وأنا في مكاني الذي أحلق فيه أراقب كل ما يحدث، وأشعر

بصفاء غريب لا يمكن أن يصفه أحد، تعجز الأقلام والأشعار والأفكار عن نقل كَيْفِيَّتِهِ للناس، لا يمكن أن أقول كيف هو، فمن كان في قلب الكيف يعيش لذته ويدرك حلاوته ويعجز عن وصفه، من المكان الذي أخلق فيه رأيت نفقا انفتح في السماء فجأة وأطل منه نور غير النور الذي نعرفه، نظرت للشيخ صاحب اللحية البيضاء فاستشعرت كأنه ليس أنا، شعرت بابتعادي عن هذا الجسد الهش الضعيف، واقتراي من النفق النوراني الغريب، وبغته رأيت ثلاثة آخرين، ثلاثة شباب في عنفوان قوتهم يسرعون الخطى ناحية الشيخ المسحوب المضروب، اشتبك الثلاثة مع الثلاثة وتكاثر الثوار مع الثلاثة فصاروا رهطا، ولم ينضم للثلاثة الجنود الضاريين أحد ففروا وتركوا الشيخ في يد الثوار، حمل الثوار الشيخ إلى مدخل عمارة شاهقة فتلاشى نفق النور الذي انفتح في السماء من أمامي، ورأيتني وقد هبطت فجأة إلى جسد الشيخ الهش الضعيف من تلك الآفاق التي كنت أخلق فيها دون أن أشعر بزمي، تحول جسدي إلى مغناطيس بشري جاذب للروح، فأصبحت أنا في داخلي، وفي مدخل العمارة كانت فرقة إسعاف تداوي عذدا من المصابين، أحدهم أصيب برصاصة تبغي مقتله، وكان المسعفون يتحلقون حوله، وأحدهم كان ملقى بجواري وكانت عينه خارج مقلته، لم أشعر بزمي ولم أشعر بألم مما لحق بي، ولكنني كنت عاجزا عن الوقوف وكأن قدمي كليهما انفصلتا عن جسدي أو كادتاه وكأنهما تبحثان عمن يحملهما لا عمن يحملانه. شهور وجسدي معطل عن الحركة، تعطل قبل العملية الجراحية التي

أجراها الأطباء لركبتي ومفاصلي وأوتاري وعصَلتي الرباعية الممزقة، وتعطل بعد العملية من الرقاد في حبس الجبس، والثورة مثلي، ثارت وأنفعلت وحركت الأحجار الثقيلة الرائدة، ثم انكسرت ورقدت وتعطلت عن الحركة، كسرَها ومزقَ أوتارها جنودٌ من خير أجناد الأرض من أصحاب الوجوه الطيبة والخوذات الصلبة والأقنعة الشريفة، وعطلها عن الحركة جنودٌ من خير أجناد الأرض من أصحاب اللحي الطيبة والنيات الطيبة والأجساد الطيبة، خير أجناد الأرض، نحن نتفاخر بذلك، فهذا وصف الرسول ﷺ لنا: «فإن فيها خير أجناد الأرض» ولم هذه الخيرية؟ خيرية الجندي يدرُكها قواد الجيوش، الجيش الذي فيه خير أجناد الأرض هو الذي لا يتمرد ولا يتمرد، يسمع كل ما يقوله له قائده، يطيع الأوامر حتى ولو كانت ضد طبيعته الإنسانية، هل أدركت لماذا لم يقل الرسول ﷺ إن جنود مصر هم أقوى جنود الأرض؟ أو أقسى جنود الأرض؟ أو أبرع جنود الأرض؟ أو أذكى جنود الأرض؟ ولماذا قال إنهم «خير» جنود الأرض؟ لأنهم عندما يتنظمون في تنظيم يصبحون أكثر الناس طاعة لمن هم أعلى منهم في التنظيم، أكثر الناس طاعة لقادتهم، ولا يفضل جندي على جندي إلا بالطاعة، وتلك هي الخيرية.

قوات الأمن المركزي، وعساكر الشرطة مصريون مثلنا، طيبون مثلنا، مطيعون مثلنا، كل واحد منهم بين يدي قائده كالميت بين يدي من يغسله يقلبه كيف يشاء، وجنود الإسلام الذين يبحثون عن دولة الخلافة مصريون مثلنا، طيبون مثلنا، مطيعون مثلنا، كل واحد منهم بين يدي مرشده كالميت

بين يدي مَنْ يَغْسِلُهُ يَقلُّبه كَيْفَ يَشَاءُ، سَتَرُ غَمِّكَ مَشَاعِرُكَ الطَّيِّبَةُ عَلَى أَنْ
تَحِبَّ جُنْدِيَّ الْأَمْنِ الْمَرْكَزِيِّ الَّذِي أَنهالَ عَلَيْكَ ضَرْبًا، وَجُنْدِيَّ الشَّرْطَةِ وَأَمْنِ
الدَّوْلَةِ الَّذِي أَطْلَقَ عَلَيْكَ الرِّصَاصَ، فَهَمَّ يَسْمَعُونَ وَيَطِيعُونَ وَلَيْسَ لَهُمْ فِي
الْأَمْرِ حِيلَةٌ، وَبِقَدْرِ قَسْوَتِهِمْ مَعَكَ سَيَكُونُ حُبُّكَ لَهُمْ، وَسَتَعَذِّرُهُمْ حَتْمًا، فَهَمَّ
يُظَنُّونَ أَنَّهُمْ يُصْلِحُونَ حَالَ الْبَلَدِ وَيُنْقِذُونَهُ مِنْ تِلْكَ الطُّغْمَةِ الشَّرِّيرَةِ الَّتِي
تَرِيدُ لِبَلَدِكَ الْخَرَابَ، وَسِيرُ غَمِّكَ الْحَبُّ عَلَى أَنْ تَحِبَّ جُنُودَ «جَيْشِ الْإِسْلَامِ»
الَّذِينَ يَنْهَالُونَ عَلَيْكَ سَبًّا وَقَذْفًا وَتَجْرِيًّا وَتَكْفِيرًا وَتَحْوِينًا، سِيرُ غَمِّكَ الْحَبُّ
عَلَى أَنْ تَحِبَّ الَّذِينَ يُمَزِّقُونَكَ وَيُمَزِّقُونَ سَمْعَتَكَ إِذَا اخْتَلَفَتْ مَعَهُمْ فِي رَأْيٍ
أَوْ فِكْرٍ، سَتَحِبُّهُمْ وَهُمْ يَضْرِبُونَكَ ضَرْبًا مُبَرِّحًا إِذَا وَقَفْتَ فِي وَسْطِ جَمْعِهِمْ
وَأَنْتَ الْمُخْتَلَفُ مَعَهُمْ، فَهَمَّ يَظَنُّونَ أَنَّهُمْ وَهُمْ يَضْرِبُونَكَ وَيَعْتَدُونَ عَلَيْكَ
يُصْلِحُونَ حَالَ الْبَلَدِ وَيُنْقِذُونَهَا مِنْ تِلْكَ الطُّغْمَةِ الشَّرِّيرَةِ الَّتِي تُحَارِبُ
الْإِسْلَامَ وَتَقِفُ ضِدَّ الدِّينِ، سِيرُ غَمِّكَ الْحَبُّ عَلَى أَنْ تَحِبُّهُمْ لِأَنَّكَ إِنْسَانٌ،
وَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ لَكِي يُحِبَّ، فَإِذَا زَادُوا فِي كَرَاهِيَّتِهِمْ زِدْ فِي حُبِّكَ، وَذَاتَ
يَوْمٍ سَيَعْلَمُونَ أَنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ الْحَبُّ.



لِكُلِّ مَنَّا أُسْطُورَتُهُ، حُلْمُهُ، كَنْزُهُ الَّذِي يَحْتَبِي فِي مَكَانٍ مَا، تَحْكِي الْأُسْطُورَةُ
أَنَّ الْإِنْسَانَ مَنذُ اللَّحْظَةِ الْأُولَى لَهُ وَهُوَ يَحْلُمُ بِكَنْزِهِ، فَيَظَلُّ يَبْحَثُ عَنْهُ طُولَ
عُمُرِهِ، تَنْقُضِي الْأَعْمَارُ فَلَا يَجِدُ بَعْضُنَا كَنْزَهُ، تَتَوَّهُ الْأَحْلَامُ مِنْ بَعْضِنَا فَيَفْقَدُ
أَمْلَهُ فِي كَنْزِهِ الْأُسْطُورِيِّ، يَصِلُ مَعْظَمُنَا إِلَى كَنْزٍ مُزَيَّفَةٍ لَا قِيَمَةَ لَهَا فَيَقْنَعُ بِهَا،

وَتَصِلُ قَلَّةٌ نَادِرَةٌ مِنَ الْبَشَرِ إِلَى كَنْزِهِمُ الْحَقِيقِيِّ، فَإِذَا فَقَدَ بَعْضُنَا طَرِيقَهُ وَتَاهَ فِي
أَحْرَاشِ الْحَيَاةِ فَلَمْ يَعَثُرْ عَلَى كَنْزِهِ ظَلَّتْ أُسْطُورَتُهُ فِي قَلْبِهِ.

تَحْكِي أُسْطُورَتِي أَنَّهُ ذَاتَ يَوْمٍ مِنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ تَسَرَّبَتْ رُوحِي فَدَخَلْتُ جَمَاعَةَ
الْإِخْوَانِ، وَذَاتَ زَمَنٍ آخَرَ تَسَرَّبَتْ رُوحِي فَخَرَجْتُ مِنْ تَنْظِيمِ الْإِخْوَانِ، وَبَيْنَ
الزَّمَنِ وَالزَّمَنِ كَانَتْ لِي أَيَّامٌ أَبْحَثُ فِيهَا عَنِ الْكَنْزِ الْأُسْطُورِيِّ، وَكَلَّمَا ظَنَنْتُ
أَنَّنِي اقْتَرَبْتُ مِنْهُ وَجَدْتُهُ قَدْ ابْتَعَدَ عَنِّي بِمَقْدَارٍ مَا اقْتَرَبْتُ مِنْهُ، تَحْكِي أُسْطُورَتِي
أَنَّنِي وَأَنَا أَبْحَثُ عَنِ الْكَنْزِ صِرْتُ مِنَ الْإِخْوَانِ... وَصَارَ الْإِخْوَانُ مِنِّي.

وَفِي الْإِخْوَانِ نَزَفْتُ نَفْسِي.

وَلِلْإِخْوَانِ سَكَبْتُ نَفْسِي.

وَفِي الْإِخْوَانِ نَسِيتُ نَفْسِي... فَتَلَا شَيْئٌ.. كَقَطْرَةِ مَاءٍ تَبَخَّرَتْ.

وَحِينَ يَوْمٍ وَقَعَتْ قَطْرَةُ الْمَاءِ مِنَ السَّحَابَةِ.. فَتَأَلَّمْتُ.. وَمِنْ أَلَمِهَا سَتَنَبْتُ
شَجَرَةَ الْكَنْزِ.

وَذَاتَ يَوْمٍ عَرَفْتُ قَطْرَةَ الْمَاءِ أَنَّ الضِّيَاءَ يُنِيرُ الطَّرِيقَ وَلَكِنَّهُ أَحْيَانًا يُعْمِي الْبَصَرَ.



مَرَّتْ سَنَوَاتٌ وَأَنَا فِي قَلْبِ الْإِخْوَانِ، رَأَيْتُ فِيهَا أَفْكَارًا تَرْتَفِعُ وَأَفْكَارًا
تَتَهَاوَى، شَخْصِيَّاتٍ حَمَلَتْ الْجَمَاعَةَ، وَشَخْصِيَّاتٍ حَمَلَتْهَا الْجَمَاعَةُ، كَانَ فِي
ظَنِّي أَنَّ التَّنْظِيمَ مَا هُوَ إِلَّا وَسِيلَةٌ لِتَوْجِيهِ طَاقَاتِ الْفَرْدِ الْإِبْدَاعِيَّةِ وَتَنْمِيَّتِهَا،
فَإِذَا بِهِ وَسِيلَةٌ لِتَكْبِيلِ الْفَرْدِ فِي سِلْسِلَةٍ بَشَرِيَّةٍ طَوِيلَةٍ أَشْبَهُ مَا تَكُونُ بِسِلْسِلَةٍ.

العبيد التي كانت تُحمل إلى أمريكا من بداية القرن السادس عشر، الفارق أن «كونتاكتي» الشاب الإفريقي المسكين الذي كان يتم أسرُه من غرب إفريقيا قهراً وغصباً ليدخل في سلسلة المستعبدين، كان لا ينفك عن التمرد على العبودية إلى أن يستنيم لها مجبراً، ولكنه يظل أبداً الأبدَيْن مستعبداً الجسد طليق الروح والنفس، ثم تخرج من صلبه بعد ذلك أجيال لا تعرف إلا العبودية فتظنها الحياة وحينها تكون هذه الأجيال هي أعدى أعداء الحرية، ويكون السجان هو سيدها وقرّة عينها، أمّا الذي يفتح لها الأبواب المغلقة لتنتقل إلى حرّيتها فهو العدو الذي يجب أن تقاومه.

عبودية التنظيمات الحديدية هي أشدّ وأنكى من عبودية «كونتاكتي» إذ إنها عبودية الأجساد والأرواح والأنفس، هي أشبه ما تكون بقصة «فاوست» الذي كان يبحث عن «حجر الفلاسفة» فباع برغبته روحه للشيطان، ما أقسى أن ترهن روحك لآخرين حتى ولو كانوا ملائكة، وما أروع أن تكون عبداً لله وحده، حين قرأت ترجمة الفيلسوف المصري عبد الرحمن بدوي لقصة «فاوست» لجوته أدركت أن شقاء الإنسان لا يكون إلا بفعله، ولكن هل يدرك الإنسان حجم المأساة التي تنتج عن تفريطه في حرّيته؟! لا شك أنه قد لا يدرك عمق المأساة وقت التفريط في الحرية، ولكنه قد يعرف فداحة فعله بعد حين، وقد يظل عمره كله جاهلاً ما وقع فيه، انظروا إلى هذا الشاب غضّ الإهاب، الذي لم يعجم عوده بعد، والذي تدفعه عاطفته الدينية إلى الوقوف في صفّ السلسلة البشرية المستعبدة منتظراً دوره في التكيل التنظيمي على أحرّ من الجمر وكأنه يتعبّد لله حين يصبح فرداً يقوده راعي البشر، ما أغبانا

حين يَقُودُنَا الرَّاعِي بعصا الدين والأخلاق والشرعية، ونحن نَهشُّ له،
يا الله!! كَمْ مِنَ الْعَبُودِيَّاتِ تَرْتَكِبُ بِاسْمِ اللَّهِ! أَصَابَ طَاغُورُ الْحَكِيمِ حينَ
قال: «ثَقِيلَةٌ هِيَ قُيُودِي وَالْحَرِيَّةُ هِيَ مُنَايَ، وَلَكِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَحْبُو إِلَيْهَا؛
فَمَنْ اسْتَعْبَدُونِي رَفَعُوا لَافِتَاتِ الْفَضِيلَةِ وَجَعَلُوهَا حَائِطًا بَيْنِي وَبَيْنَ حُرِّيَّتِي».



هل من الممكن أن أَصِفَ لَكُمْ مشاعري وأبثَّ لكم شُجُونِي، أنا الآنَ أَحَلَقُ
في السماءِ، كالطيرِ يَجْنَحُ نَحْوَ الْأَفْقِ، أَوْ كَسَهْمٍ مَرَقَ، ولعلَّني اليومَ أَعْرِفُ مَدَى
سَعَادَةِ الطيرِ وهو يَجُوبُ الْأَفَاقَ حُرًّا، لَا تَظُنُّ أَبَدًا أَنَّ الْهَوَاءَ هُوَ الَّذِي يَحْمِلُ
الطيرَ حينَ يُحَلَقُ، الحريةُ فقط هي التي تَحْمِلُهُ، ما أعظمَ الحريةَ حينَ تَدَاعِبُ
مشاعرَ مَنْ عاشَ مُقَيَّدًا مُكَبَّلًا، كَانَتْ آخِرُ أَيَّامِي فِي تَنْظِيمِ الْإِخْوَانِ هِيَ أَسْعَدُ
أَيَّامِ حَيَاتِي، وَيَا لَهَا مِنْ أَيَّامٍ أَدْرَكَ قَلْبِي فِيهَا أَنَّ تَنْظِيمَ الْإِخْوَانِ كَانَ سَرَابًا
يَدْفَعُنِي نَحْوَ التَّيِّهِ، كُنْتُ قَدْ عَقَدْتُ الْعَزْمَ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنْ تِلْكَ الْقِيُودِ الثَّقِيلَةِ
التي أَقْعَدْتَنِي وَعَرَقَلْتَنِي وَحَاوَلْتُ تَكْبِيلَ أَفْكَارِي، فَالْنَفْسُ السَّوِيَّةُ تَرْفُضُ
الاستبدادَ حتَّى ولو كَانَتْ قُيُودُهُ مِنْ ذَهَبٍ، أَوْ كَانَتْ جُدرانُهُ قَدْ شَيَّدَتْ مِنْ
لافتاتِ الْفَضِيلَةِ، ها هي اللَّحْظَاتُ الْآخِرَةُ تَدَاعِبُ خَيَالِي مِنْ جَدِيدٍ، تَحُثُّ
ذَاكِرَتِي عَلَى الْعُودَةِ إِلَى لَحْظَاتِ الْخُرُوجِ، تِلْكَ اللَّحْظَاتُ الَّتِي اعْتَبَرْتُهَا أَزْمَنَةً
قُدْسِيَّةً، زَمَنُ الْحَصُولِ عَلَى صَكِّ الْحَرِيَّةِ هُوَ الْأَعْظَمُ فِي تَارِيخِي، قَبْلَهَا نَشَبَتْ
مَعْرَكَةٌ طَاحِنَةٌ بَيْنَ قَلْبِي وَعَقْلِي، هَلْ أَتْرُكُ الْجَمَاعَةَ، أَمْ أَظِلُّ فِيهَا حَتَّى وَلَوْ
تَحَكَّمَتْ فِيهَا الْإِسْتِبْدَادُ؟ فَتَحْتُ حِوَارَاتٍ مَعَ أَصْدِقَائِي عَنْ قِيَمَةِ الْحَرِيَّةِ، قُلْتُ

لعاطف عواد الذي ترك الجماعة قبلي: عظمة هي قصة «وداعاً شاوشنك» تلك القصة الرائعة التي كتبها «ستيفن كينج» ثم تحولت إلى فيلم سينمائي من بطولة «تيم روبنز» و«مورجان فريمن» دخل روبنز سجن شاوشنك ولكنه ظلّ عشرين عاماً يبحث عن حريته إلى أن حصل عليها في الوقت الذي أصبح فيه هذا السجن هو كل الدنيا لمساكين آخرين، لا يعرفون غيره ولا يتقبلون سواه وكأنه هو الحياة، أظن جماعة الإخوان تحولت إلى سجن بشري لا يحفل كثيراً بقيمة الحرية، يستحقون الرثاء، من عاشوا في الظلام وينزعجون من النور، من يقعون في أقبيتهم وسراديبهم الضيقة وهم يحسبون أن الطريق إلى الدين والفضيلة لا يكون إلا من خلال الأقبية والسراديب المغلقة.

قال عاطف «الذي أصبح فيما بعد عضواً بالهيئة العليا لحزب الوسط»: وكأنك تستعيد يا صديقي قول لامارتين: «أي قيمة للفضيلة إذا لم توجد حرية!».

قلت له: لامارتين!! لو سمعوك لقالوا إنك صبأت وأصبحت من الليبراليين أو العلمانيين، وساء أولئك رفيقاً، ثم استطردت وأنا أغالط نفسي: ولكن هل يطاوعني قلبي على أن أترك جماعة أحببتها.. أتركها والفساد يعيش في رأسها ويضرب بجذوره في أطناها.. لك أن تعرف أن العديد من الإخوان النبهاء من أصحاب العقول النيرة والقلوب المضيئة يجاهدون داخل الجماعة حتى لا تصبح خاوية على عروشها بلا مصلحين... فلماذا أتركهم وحدهم؟ أكون حينئذ قد تخلّيت عنهم.

قال وقد نفذ صبره: يا سيدي.. الإصلاحيون لا يستطيعون التنفس داخل جماعة «كتم النفس» هذه.. عبد المنعم أبو الفتوح يظن أنه يستطيع الإصلاح ويحاول أن يجمع معه جيل الواسطين مثل إبراهيم الزعفراني وآخرين ولكنهم جميعهم يعيشون على وهم لن يتحقق.. إن الفريق الذي سرق الجماعة يقوم بدوره بنجاح ملحوظ وهم يسحبون حاليًا كل الملفات التي كان أبو الفتوح مسئولاً عنها، أصبح عبد المنعم الآن يجلس في الجماعة بلا عمل.. وأظن أنه سيستيقظ ذات يوم من حلم الإصلاح هذا على قطار الإخوان وقد ابتعد عنه وتركه وحيدًا بلا جماعة.

تأملت قوله وأتأبنتني لحظة صمت وسرعان ما قطعتها قائلاً: أصدقك القول.. لقد كنت أشعر منذ أماد طويلة أن هذه الجماعة سجن وقيود وأنا السجين الذي لا يستطيع أن يجبو إلى حريته.. ثقيلة هي قيودي... نددت عني ابتسامة ساخرة وأنا أقول: أخشى أن أكون قد أدمنت السجن والسجان.

الآن وبعد سنوات عديدة من يوم الخروج من الجماعة أجلس في غرفة مكتبي وحيدًا أخط هذه الذكريات، أذكر آخر لقاء جمعني بالمستشار مأمون الهضيبي، كان ذلك في غضون عام 2002 صدمني الرجل بكلماته الجافّة الخشنة، أهكذا يكون الدعاة!! كان اللقاء قد دفعني إليه الدكتور عبد المنعم أبو الفتوح من أجل تخفيف حدة الهجوم ضدّي داخل الجماعة، كان من المفترض وفقًا لما قرأ في يقيني أن لقائي بالمستشار مأمون الهضيبي سيكون ثريًا له قيمته.. فالرجل يحمل فوق كتفيه تاريخًا ويختزن في مكنون ذاته كما متنوعًا من المعارف القانونية والخبرات السياسية والتنظيمية.. إلا أنني تذكرت عند لقائي الأخير معه ذلك المثل العربي الذي يقول: «أن تسمع بالمعيدي خير من

أضنه وأسنه

أَنْ تَرَاهُ».. وَيَبْدُو أَنَّ مَعَارِفَ الْإِنْسَانِ وَخَبْرَاتِهِ قَدْ تَكُونُ عَبْثًا عَلَيْهِ أَوْ يَكُونُ هُوَ عَبْثًا عَلَيْهَا إِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ بَصِيرَةٌ وَسِعَةُ أَفْقٍ، كَذَلِكَ الْجَوَاهِرِيُّ الَّذِي وَهَبَهُ اللَّهُ ذَهَبًا وَجَوَاهِرَ نَفِيسَةً فَقَذَفَهَا فِي الْيَمِّ إِلَى غَيْرِ رَجْعَةٍ!

كَانَتْ الْعَدِيدُ مِنَ اللَّقَاءَاتِ الْإِخْوَانِيَةِ التَّنْظِيمِيَّةِ قَدْ جَمَعَتْنِي بِالْمُسْتَشَارِ الْهَضْيَبِيِّ سَابِقًا إِلَّا أَنَّهُ فِي الْغَالِبِ الْأَعْمَمِ كَانَ قَلِيلَ الْكَلَامِ يَمِيلُ إِلَى الْإِسْتِمَاعِ وَلَا يُعَقِّبُ إِلَّا بِكَلِمَاتٍ قَلِيلَاتٍ... وَكَانَتْ مَعْظَمُ الْجَوَارَاتِ الَّتِي جَمَعْتُنَا تَدَوَّرُ فِي مَجْمَلِهَا حَوْلَ شُئُونِ تَنْظِيمِيَّةٍ وَحَرَكَيَّةٍ لَا عِلَاقَةَ لَهَا بِالْفِكْرِ، كَمَا لَمْ تَكُنْ لَهَا عِلَاقَةٌ بِالْإِنْسَانِيَّاتِ وَالْمَشَاعِرِ، لِذَلِكَ لَمْ تُتَحَّ لِي الْفُرْصَةُ كَيْ أُخْتَبِرَ عَنْ كُتُبِ بَصِيرَةِ هَذَا الرَّجُلِ وَقَلْبِهِ، إِلَّا أَنَّنِي لَا حِظُّتُ مِنْ خِلَالِ خِبْرَتِي فِي التَّعَامُلِ مَعَهُ كَمَا لَا حِظَّ آخَرُونَ أَنَّهُ يَتَّسِمُ بِضَيْقِ الصَّدْرِ وَسُرْعَةِ نَفَادِ الصَّبْرِ.

كَانَ لِقَائِي مَعَهُ هُوَ خَاتِمَةُ قِصَّتِي مَعَ الْجَمَاعَةِ، حِينَ تَكَلَّمَ ظَهَرَتْ عَلَى قَسَمَاتِ وَجْهِهِ مَخَايِلُ الدَّهْشَةِ حَتَّى إِنَّنِي كِدْتُ أَهْزُرُ رَأْسِي لِأُعِيدَ عَقْلِي إِلَى مَكَانِهِ الْمَعْهُودِ، هَمَمْتُ بِالْوُقُوفِ لِلانْصِرَافِ، فَدَفَقْتُ الْكَلَامَ الَّذِي خَرَجَ مِنْ فَمِهِ يُوحِي بِأَنَّهُ كَانَ يَعِيشُ فِي مَرَحَلَةٍ ذَهْنِيَّةٍ مُتَأَخِّرَةٍ.

أَشَارَ لِي بِيَدِهِ بِأَمْرِي بِالْجُلُوسِ وَهُوَ يَقُولُ: اقْعُدْ.. اقْعُدْ.. هَلْ تَظُنُّ أَنَّ «دُخُولَ الْحَمَامِ كَمَا الْخُرُوجُ مِنْهُ».

جَلَسْتُ وَأَنَا أَقُولُ فِي نَفْسِي بَعْدَ أَنْ غَالَبَتْ ابْتِسَامَةٌ طَفَتْ عَلَى سَطْحِ وَجْهِهِ «مَا دَامَ الرَّجُلُ يَعْتَبِرُ بَيْتَهُ حَمَامًا فَكَانَ مِنَ الْمَفْرُوضِ أَنْ أَدْخَلَ بِقَدَمِي الْيُسْرَى وَأَقُولَ وَأَنَا دَاخِلٌ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخُبْثِ وَالْخُبَائِثِ».

ودون تمهيدٍ بادرنِي بلهجةٍ يشوبها الاستعلاء وكأنه رئيسُ مجلسِ إدارةِ شركةٍ يُخاطبُ أحدَ الموظفين عنده: أنتَ أخطأتَ في حقِّ الجماعةِ يا ثروت.. وبيدو أنك لم تعرفَ ما قاله حسنُ البنا.. قال نحنُ جماعةٌ انتظمنا في صفٍّ واحدٍ فإذا خرجَ منا واحدٌ، لن يقولَ الناسُ خرجَ واحدٌ ولكن سيقولون صفٌّ أعوج. تركته يسترسلُ في حديثه إلى أن قال: نحنُ نتحالفُ مع مَنْ يستطيعُ أنْ يقربنا من دوائرِ صنعِ القرار.. نحنُ تحالفنا في الأطباءِ مع حمدي السيد ومع حسب الله الكفراوي في المهندسين لهذا السبب.. وأي شخصٍ قريبٍ من دوائرِ السلطةِ العليا سنتحالفُ معه ولن نقبلَ أنْ يخرجَ أيُّ واحدٍ منا على هذا القانون.. هذا هو دستورُ الجماعة.. دستورُ الجماعة.. وأنتَ رجلُ قانونٍ.

انتظرتُ إلى أن استكملَ كلامه ثم قلتُ: قانونُ التحالفِ مع مَنْ يكونُ قريباً من السلطةِ أظنُّ أنه من الممكن أن يكون وسيلةً مرحليةً وليس دستوراً دائماً. ظهر الضيقُ على وجهه ثم قال بنفادٍ صبرٍ: لا تجادلني.. أنتَ رجلُ قانونٍ.. لماذا وضعتُ الدولةَ قانوناً للمرور؟ طبعاً حتى لا تتصادمَ السياراتُ.. ماذا لو خالفتُ سيارةٌ قانونَ الدولة وقطعتُ الإشارةَ الحمراء؟ قطعاً ستقعُ حوادثٌ وستضطدمُ السياراتُ بالمارة.. ماذا لو أقامَ أحدهمُ بنايةً دون ترخيصٍ من الحيِّ وفقاً للقانون؟ سيصبحُ الحالُ فوضى... هناك قانونٌ للعقوباتِ.. مَنْ يخالفه يكون قد ارتكبَ جريمةً أليس كذلك؟

تنفستُ الصعداءَ وأنا أقولُ: لا ليس كذلك.

ماذا تقصدُ؟ قالها مقاطعاً وهو يبيدي استغرابه.

الأسرار الخفية لجماعة الإخوان المسلمين

أكملت كلامي وأنا أتناول كتاباً كان على المنضدة وكأنه لم يقاطعني:
هناك مواد في القانون يتم محاكمة الإخوان بموجبها مثل المادة 86 من المدونة
العقابية.. وبالمناسبة الإخوان يخالفون هذه المادة ويرتكبون بمخالفتهم هذه
جريمة إنشاء تنظيم دون أن يكون لهذا التنظيم رخصة من الجهات الرسمية..
فإذا كان قانون الجماعة في رأيك يجب أن يتم احترامه كما نحترم قانون المرور
وقانون العقوبات فحينئذ يجب أن نعلن عن حل الجماعة لأنها تخالف قوانين
الدولة لأنها نشأت دون رخصة كما البنايات التي تُنشأ من غير رخصة، وإلاَّ
لأدت هذه المخالفة إلى اضطدام السيارات ووقوع الحوادث وإشاعة حالة
فوضى.. أليس كذلك؟

هَبَّ الرجلُ وإقفاً وهو يقول بعصبيَّةٍ وحِدَّةٍ وهو يشيرُ إلى الباب: اتَّفضَّلْ
يا أستاذ، المقابلةُ انتهت.

تجمَّعُ في ذهني في تلك اللحظة كلُّ العمر الذي قضيتُه في الجماعة وكلُّ
ما مرَّ بي من أحداث... مرَّ شريطُ الذكريات وكأنه دهرٌ ولكنه مرَّ في جزءٍ
من الثانية... رأيتُ أمامَ عيني خيالي تلك المشاهد الرائعة التي شاركتُ فيها
أو اقتربتُ منها أو تفاعلتُ معها... رأيتُ أشخاصاً أفذاذاً في الفقه والفهم
وسعة الأفق.. رأيتُ عقولاً موسوعيةً وقلوباً نورانية.. والآن وأحسرتاهُ
أرى جماعةً بلا قلب.. هذا هو قلبُ الإخوان!! في مكانه فراغٌ، فقد تبخَّرَ
القلبُ وتناثرَ خَلْفَ مَنْ ماتوا ومع مَنْ خرَّ جُواً.. اندثرَ القلبُ وضاعَ مَنْ يَدُ
مَنْ قلبُ الإخوان إلى ناحيةٍ أخرى... الآن أن لي أن أختار.. أن لي أن أحسم
أمري.. أحببتُ جماعةَ الإخوان ووهبتُها قلبي ومشاعري وعقلي.. فضلتُها

على نفسي وبיתי وأولادي.. لم أكن أحبها لذاتها كذلك المحب الوله العاشق الذي يتدله حباً في محبوبته لذاتها.. ولكنتي أحببتها لما ترمي إليه.. لأنها دعوة وحكمة ووسطية وفهم واعتدال.. والآن تبدل الحال فلم أبقى؟ لم أظل أسيراً في حبائل تلك الجماعة التي فقدت قلبها.. لم أَرْضَ بالأسر والحبس في أسوار عالية تمنع الرؤية وتحجب الرؤيا فلا خيال ولا إبداع؟ أين كنزي الذي كنت أبحث عنه؟ أين الطريق الذي سيقودني إلى أسطوري؟ أأظل رهينة في محبسهم الوهمي مكبلاً بأغلالهم وأنا من تأقت نفسه إلى سماء بلا قيود وأرض بلا حدود كطائر الباتروس الذي يقضي حياته مُحَلَّقاً فوق مياه البحار والمحيطات؟ طرأ أيها الطائر.. غادرهم.. اذهب إلى سمائك.. واحذر من أولئك الذين سيقولون لك إنك ستطير في سماء ملبدة وتسير في أرض مظلمة.. فالنور في قلبي وبين جوانحي فعلام أخشى السير في الظلماء؟ علام أخشى الطيران في العتماء؟ كن كالنسر فوق القمة الشماء ولا تكن كدودة الأرض في جحر كئيب وجب سحيق.. لك نظر ولك بصيرة، فأين انتفاعك بنظرك ونظرتك؟ لله در المتنبي حين قال:

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوار والظلم

قَمِ الآنَ وأمعن النظر ويجب إذا نظرت أن تحسن الخروج كما أحسنت الدخول.
قمت متثاقلاً ثم قلت بهدوء وأنا أنظر إلى الناحية الأخرى: المقابلة انتهت قبل أن تبدأ.. الآن أن لي أن أختار الصواب.. أنا الآن لست معكم في الإخوان.

خرجت من بيت المستشار الهضيبي وقد عقدت العزم على الانطلاق،

وحين وُطِئْتُ قَدَمَايَ أَرْضَ الطَّرِيقِ شَعَرْتُ بِخَفَّةٍ فِي رُوحِي، وَسَعَادَةٍ فِي قَلْبِي، حَتَّى إِنَّنِي أَخَذْتُ أَنْظُرَ فِي وُجُوهِ النَّاسِ وَأَنَا أَبْتَسِمُ ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً، سِرْتُ فِي الطَّرِيقِ مَبْتَعِدًا عَنْ سَيَّارَتِي لَا أَلْوِي عَلَى شَيْءٍ، وَكَأَنَّنِي أُجَرَّبُ الْحَرِّيَّةَ لَأَوَّلِ مَرَّةٍ، فَوَجَدْتُني فِي مَيْدَانِ الْجَامِعِ الْقَرِيبِ مِنْ بَيْتِ مَأْمُونِ الْهَضِييِّ، وَأَمَامَ جَامِعِ جَمَالِ الدِّينِ الْأَفْغَانِي. تَوَقَّعْتُ، لَمْ أَكُنْ صَلَّيْتُ الْعِشَاءَ بَعْدُ وَكَانَتْ الصَّلَاةُ قَدْ أَنْتَهَتْ وَخَرَجَ الْمُصَلُّونَ إِلَى حَالِ سَبِيلِهِمْ، وَمَعَ ذَلِكَ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ الْمُؤَذِّنَ يَرْفَعُ الْأَذَانَ، وَسَمِعْتُهُ بِقَلْبِي وَهُوَ يُخْتِمُ الْأَذَانَ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. تَرَدَّدَتِ الشَّهَادَةُ فِي قَلْبِي حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهَا كَانَتْ تَرَجُّنِي رَجًّا، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. دَخَلْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ وَكَانَ أَوَّلُ مَا فَعَلْتُهُ حِينَ دَخَلْتُ أَنَّ سَجَدْتُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، كَانَتْ هَذِهِ هِيَ سَجْدَةُ الشُّكْرِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَثْنَاءَ صَلَاتِي شَعَرْتُ بِمَذَاقِ رُوحَانِي غَرِيبٍ لَمْ أَشْعُرْ بِهِ مِنْ قَبْلُ، كَانَ هَذَا هُوَ مَذَاقُ الْحَرِّيَّةِ عِنْدَمَا يَخْتَلِطُ بِالْعِبَادَةِ، أَوْ مَا أَرُوعَ عِبَادَةِ الْأَحْرَارِ!

فَرَرْتُ بِقَلْبِي مِنْ تَنْظِيمٍ لَا يَعْرِفُ الْقُلُوبَ وَلَا يَأْبَهُ لِلْمَشَاعِرِ، إِلَّا أَنَّنِي رَأَيْتُ وَأَنَا خَارِجَ قَلْبِ الْإِخْوَانِ أَشْيَاءَ تَحَارُمُهَا الْأَلْبَابُ وَتَسْتَعْصِي عَلَى التَّصَدِيقِ.



الفصل الثاني

إيكاروس

تقول الأسطورة اليونانية إن «إيكاروس» كان يعيش مع أبيه في جزيرة كريت، أحب إيكاروس الطيران، فصنع لنفسه أجنحة أخذها من الطيور، ولصقها في يديه بالشمع، ثم تهباً للطيران، وقبل أن يطير نصحه أبوه: لا ترتفع كثيراً يا إيكاروس، لا تفكر في الوصول للشمس، فإنك إن وصلت إليها فقدت حياتك، ولكن إيكاروس كان طموحاً للمعرفة فلم يستمع لنصيحة أبيه وطار وطار وطار محلقاً في الأجواء حتى اقترب من الشمس، اقترب من الحقيقة التي كان تواقاً لها، ولكن أشعة الشمس القوية الحارقة أذابت الشمع وحرقت الأجنحة فوق إيكاروس ميتاً قبل أن يصل إلى مبعاه.

فهل كنت كإيكاروس عندما حاولت أن أصل للحقيقة في جماعة الإخوان، وهل سأنال ما ناله؟ كانت رحلتي نحو الحقيقة قد بدأت مصادفةً بغير ترتيب مسبق، إذ لم يرد في خاطري أن جماعة الإخوان تضمر في نفسها حقائق مفزعة لا يعرفها معظم أفرادها، فالأسرار محفوظة عند الكهنة الكبار، في صندوق

خَفِيَ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَى مَا فِيهِ، إِذْ إِنَّ الْعَتَمَةَ الَّتِي يَعِيشُهَا أَفْرَادُ
الْجَمَاعَةِ تَحْجُبُ عَنْهُمْ نُورَ الْحَقِيقَةِ، وَحِينَ سِرْتُ وَرَاءَ بَصِيصِ الضَّوءِ أَرَانِي اللَّهُ
مَا يَعْجِزُ الْعَقْلَ عَنْ اسْتِيعَابِهِ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ، فَمَنْ عَاشَ فِي الْعَتَمَةِ زَمَنًا يَفَاجِئُهُ
النُّورُ فَيُعْشِي بَصَرَهُ لِلْحَضَاتِ وَيَصْعَبُ عَلَى حَقَّقَتِهِ اسْتِيعَابُ الضِّيَاءِ، وَقَتَهَا
قَدْ تَنَكَّرَ الْعَيْنُ الضَّوءَ وَتَسْتَنَكِرُهُ، وَمَا أَصْعَبَ أَنْ نَسْتَنَكِرَ الْحَقِيقَةَ!

انْكَبْتُ فِي فِتْرَةٍ مِنْ حَيَاتِي عَلَى الْقِرَاءَةِ عَنِ الْمَاسُونِ وَالْمَاسُونِيِّينَ،
وَكَانَ مِمَّا قَرَأْتُهُ أَنَّ الْأَفْرَادَ الْعَادِيِّينَ لِلْمَاسُونِ لَا يَعْرِفُونَ الْأَسْرَارَ الْعَظُمَى
لِتَنْظِيمِهِمُ الْعَالَمِيَّ، تِلْكَ الْأَسْرَارُ تَكُونُ نُخْفِيَّةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ يُؤْتَمِنُونَ عَلَى
الْحِفَاطِ عَلَى سِرِّيَّتِهَا، وَتَكُونُ هِيَ الْهَيْكَلُ الَّذِي يَحْفَظُ كَيَانَ الْمَاسُونِيَّةِ، وَعِنْدَ
بَحْثِي فِي الْمَاسُونِيَّةِ اسْتَلَفْتُ نَظْرِي أَنَّ التَّنْظِيمَ الْمَاسُونِيَّ يُشَبِّهُ مِنْ حَيْثُ الْبِنَاءُ
التَّنْظِيمِيَّ جَمَاعَةِ الْإِخْوَانِ، حَتَّى دَرَجَاتُ الْإِنْتِمَاءِ لِلْجَمَاعَةِ وَجَدْتُهَا وَاحِدَةً فِي
التَّنْظِيمِ!!.

وَعِنْدَمَا كُنْتُ طَالِبًا فِي السَّنَةِ النَّهَائِيَّةِ بِكَلِيَّةِ الْحُقُوقِ وَقَعَ تَحْتَ يَدِي طَبْعَةٌ
قَدِيمَةٌ لِأَحَدِ كُتُبِ الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ الْغَزَالِيِّ، وَإِذْ جَرَتْ عَيْنِي عَلَى سَطُورِ الْكِتَابِ
وَجَدْتُهُ يَتَحَدَّثُ عَنْ أَنَّ الْمُرْشِدَ الثَّانِي حَسَنَ الْهَضْيَبِيِّ كَانَ مَاسُونِيًّا! لَمْ تَحْمَلْ
عَيْنِي اسْتِكْمَالُ الْقِرَاءَةِ فَأَغْلَقْتُ الْكِتَابَ وَوَقَعْتُ فِي حَيْرَةٍ مُرْتَابَةٍ، كُنْتُ فِي
هَذِهِ الْفِتْرَةِ قَدْ أَحْبَبْتُ الْإِخْوَانَ وَشَغِفْتُ بِتَارِيخِهِمْ، وَكُنْتُ فِي ذَاتِ الْوَقْتِ
مُنْشِدًا لِلشَّيْخِ مُحَمَّدٍ الْغَزَالِيِّ وَخُطْبِهِ وَكُتْبِهِ وَطَرِيقَتِهِ الثَّائِرَةِ، كَانَ جِيلِي كُلُّهُ
يَعْتَبِرُ الْغَزَالِيَّ إِمَامَ الْعَصْرِ وَمُرْشِدَ الْعَقْلِ، لِذَلِكَ كَانَتْ كَلِمَاتُ الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ
الْغَزَالِيِّ الَّتِي أَتَمَّ فِيهَا الْمُرْشِدَ الثَّانِي حَسَنَ الْهَضْيَبِيِّ بِالْمَاسُونِيَّةِ بِمَثَابَةِ صَفْعَةٍ

على مشاعري، أيهما أصدق؟ الإخوان الذين طهّرهم الله فأصبحوا جماعة «ربّانية» أم الشيخ الإخواني حتّى النُخاع، العالم الفقيه المجاهد الثائر المجدّد محمد الغزالي؟ هل الغزالي يكذب؟! ويكذب علينا أمّا كلّ الناس!! هل كان حاقداً فأمسك معوله ليهدم الإخوان؟ أم أنّه كان صادقاً وكان الإخوان يعلنون غير ما يسرون؟ لم تنته حيرتي ولكنني وضعتها في زاوية مهجورة من عقلي، لا أقرب منها أبداً ولا أتطرق إليها لا مع نفسي ولا مع آخرين، قرّرت ألاّ أفتح هذه القصة أبداً بمجرد أن أغلقت الكتاب، بل إنني أصدرت أمراً لنفسي ألاّ أفتح هذا الكتاب أبداً، وكم كان سروري حين وضعتني الأقدار أمام هذا الموضوع نفسه بعد عدة أيام من إغلاق الكتاب، وكأنما تأبى الأقدار إلاّ أن أمعن النظر في ماسونية الإخوان، فقد دعاني الأخ خالد بدوي الذي كان أميراً للجماعة الإسلامية في كلية الحقوق لحضور ندوة في المدينة الجامعية للشيخ «إبراهيم عزّت» الذي كان أميراً للجماعة التبليغ والدعوة في مصر آنذاك، وكان في ذات الوقت مقرّباً من الإخوان بحسبه كان في إحدى فترات عمره عضواً بالجماعة، وبعد الندوة تلقى الشيخ إبراهيم عزّت سؤالاً من أحد الحاضرين عن حقيقة اتّهام الشيخ الغزالي لبعض قيادات الإخوان بالماسونية؟ وكان ردّ الشيخ أن هذا الكلام كتبه الشيخ الغزالي في ثورة غضب بعد خلافٍ بينه وبين الجماعة ثم إنّه بعد أن هدأت ثائرته بعد ذلك قام بحذف هذه العبارات من الطبعات الجديدة للكتاب، بل إنّه وقبل وفاة الأستاذ حسن الهضيبي زاره وسلّم عليه وصلى خلفه، كانت إجابة الشيخ إبراهيم عزّت مريحة لنفسي إلاّ أنّها لم تكن كافية؛ ذلك أنّها فتحت مجالاً في عقلي

لاتهام الشيخ الغزالي بالكذب وتلويث سمعة من خالفه في الرأي بغير حق! ولكنني فعلت ما انتويت عليه وهو أن أغلق عقلي مع نفسي باب النقاش في هذا الموضوع.

ومررت سنوات وسنوات وهذا الموضوع من المحرمات التي لا يجوز أن أقرب منها أو أبحث فيها، بل إنني كنت أنظر ساخرًا لمن يفتح هذا الموضوع وأنا أقول لنفسي كيف يلتقي الدين مع اللادين؟ كيف يلتقي الإسلام الذي تعبّر عنه جماعة ربانية بالصهيونية التي تحارب الإسلام وتحارب جماعة الإخوان؟ إلى أن تداخلت أحداث كثيرة في حياتي فأخذت أبحث عن الأصول الفكرية لجماعة الإخوان، كيف فكر حسن البنا في إنشاء الجماعة؟ ولماذا؟ وما هي الأدوات التي أمسك الإخوان بتلابيبها لكي يحققوا هدفهم الأعظم، وقتها وقعت تحت يدي مقالات كان الأستاذ سيد قطب قد كتبها في جريدة «التاج المصري» وأثناء بحثي عرفت أن هذه الجريدة كانت لسان حال المحفل الماسوني المصري!! وكانت لا تسمح لأحد أن يكتب فيها من خارج جمعية الماسون، وهنا عاد ما كتبه الشيخ الغزالي في كتابه «ملاحم الحق» إلى بؤرة الاهتمام، خرج كتاب الغزالي من الزاوية المهجورة داخل عقلي إلى أرض المعرفة، الإخوان والماسونية!! عدت إلى الكتاب الذي كنت قد عزمت على أن لا أعود إليه لأقرأ ما كتبه الشيخ فوجدته يقول في كتابه: «إن سيد قطب انحرف عن طريق البنا وأنه لم يشعر أحد بفراغ الميدان من الرجال المقتدرة في الصف الأول من الجماعة المسماة الإخوان المسلمين إلا يوم قتل حسن البنا في الأربعين من عمره، لقد بدا الأقرام على حقيقتهم بعد أن ولى

الرجل الذي طالما سدَّ عجزَهم، وكان في الصفوفِ التالية مَنْ يَصْلُحُونَ بلا ريبٍ لقيادة الجماعةِ اليتيمة، ولكنَّ المتحاquدين الضعافَ من أعضاء مكتب الإرشادِ حلَّوا الأزيمة، أو حلَّتْ بأسمائهم الأزيمة بأن استقدمت الجماعةُ رجلاً غريباً عنها ليتولَّى قيادتها، وأكادُ أوقنُ بأنَّ مَنْ وراءِ هذا الاستقدامِ أصابعُ هيئاتٍ سريةٍ عالميةٍ أرادتْ تدويخَ النشاطِ الإسلاميِّ الوليدِ فتسلَّلتْ من خلالِ الثغراتِ المفتوحةِ في كيانِ جماعةٍ هذهِ حالها وصنعتُ ما صنعتُ، ولقد سمعنا كلاماً كثيراً عن انتسابِ عددٍ من الماسونِ بينهم الأستاذُ حسنُ الهضيبي نفسه لجماعةِ الإخوانِ ولكنني لا أعرفُ بالضبطِ كيف استطاعتْ هذه الهيئاتُ الكافرةُ بالإسلام أن تخنقَ جماعةً كبيرةً على النحو الذي فعلته؟ وربما كشفَ المستقبلُ أسرارَ هذهِ المأساة.

هذا هو نصُّ كلامِ الشيخِ محمد الغزالي، لعلَّه لم يتحسَّسْ كلماته وهو يكتبُ كتابه هذا إلا أنني وجدْتُني مضطراً ونحنُ في هذا الجوّ الاستثنائي المشحونِ من تاريخِ مصرٍ إلى أن اتَّحسَّسَ الكلماتِ، ولكن هل أنا الذي أكتبُ؟ أنا فقط أنقلُ ما كتبه الشيخُ الغزالي، وأكتبُ تاريخَ ما لم يُنكره التاريخ، هل قالَ التاريخُ إنَّ حسنَ الهضيبي وحده هو الذي كانَ ماسونياً؟ أو إنَّ سيدَ قطب ارتبطَ معهم بصِلاتٍ وكتبَ في صُحفهم؟ لا، مصطفى السباعي مراقبُ الإخوانِ المسلمين في سوريا كانَ ماسونياً هو الآخرُ، الموضوعُ جدُّ خطيرٌ لا شكَّ في ذلك، لا يجوزُ الدخولُ فيه بمجردِ تخميناتٍ أو شكوكٍ، حتى إنني قرَّرتُ حقيقةً أن لا أخوضَ في هذا الموضوعِ، ولكن أتركُ أمراً في مثلِ هذهِ الخطورةِ دونَ أن أفحصه وأتبينَ حقيقته؟ قد تكونُ نتيجةُ البحثِ في غيرِ

صَالِحِ الْإِخْوَانِ، وَقَدْ تَكُونُ النَتِيجَةُ فِي صَالِحِهِمْ، وَفِي كِلْتَا الْحَالَتَيْنِ يَجِبُ أَنْ
يَسْتَكْشِفَ التَّارِيخُ هَذِهِ الْفَرْضِيَّةَ، مَا عِلَاقَةُ الْإِخْوَانِ بِالْمَاسُونِيَّةِ؟



لِمَاذَا أَكْتُبُ هَذِهِ الذِّكْرِيَّاتِ؟ يَلُومُنِي الْبَعْضُ عَلَيْهَا وَيَقُولُونَ إِنَّكَ بِهَا تَفْتُ
عُضْدَ الْجَمَاعَةِ الَّتِي تَرَبَّيْتُ فِيهَا، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْحِكَايَاتِ الَّتِي نَكْتُبُهَا
وَلَا نَكْتُبُهَا تَصْبِحُ غَنِيمَةً لَأَعْدَائِنَا، لَا يَعْلَمُونَ أَنَّنَا لَا نَرْتَفِعُ إِلَّا إِذَا تَعَلَّمْنَا مِنْ
تَجَارِبِ الْحَيَاةِ، وَمَنْ يَقْصُ عَلَيْنَا تِلْكَ التَّجَارِبِ أَبَدَ الدَّهْرِ لَا أَبَالِكَ يَرْفَعُنَا
وَيَنْفَعُنَا.

حِينَ اخْتَلَفْتُ مَعَ تَنْظِيمِ الْإِخْوَانِ، كُنْتُ مَا زِلْتُ فِي قَلْبِهِ، أَخَذْتُ أَقْلَبُ
الْفِكْرَ، هَلْ أَنَا الَّذِي اخْتَلَفْتُ مَعَهُمْ أَمْ أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا مَعِي؟ ثُمَّ هَلْ
يُعْقَلُ أَنْ يَخْتَلِفَ شَخْصٌ مَعَ نِصْفِ مِلْيُونِ شَخْصٍ! كَيْفَ هَذَا؟! هَلْ هُمْ آلَاتٌ
مُضْبُوطَةٌ مِنَ الْمَصْنَعِ عَلَى حَرَكَةٍ وَاحِدَةٍ وَلَفْتَةٍ وَاحِدَةٍ وَإِيمَاءَةٍ وَاحِدَةٍ؟! أَيْعَقَلُ
أَنْ يَكُونَ نِصْفُ مِلْيُونٍ مِنَ الْبَشَرِ عَلَى رَأْيٍ وَاحِدٍ وَفِكْرٍ وَاحِدٍ وَعَقْلٍ وَاحِدٍ؟!
أَفَهُمْ أَنْ يَكُونَ مِلَايِينُ الْبَشَرِ عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ، وَلَكِنْ حَتَّى عَالَمُ الدِّينِ الْمُقَدَّسِ
تَجِدُ النَّاسَ يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، يَخْتَلِفُ الْمُسْلِمُونَ وَيَفَكِّرُونَ بِطُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ، فَيَكُونُ
مِنْهُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالشَّيْعَةِ وَالْمُعْتَزِّلَةُ وَالْأَشَاعِرَةُ وَالْخَوَارِجُ وَالْمَرْجُئَةُ وَغَيْرُهُمْ،
يَخْتَلِفُونَ فِي الْعَقِيدَةِ، وَيَخْتَلِفُونَ فِي الشَّرِيعَةِ، وَيَنْقَسِمُونَ إِلَى مَذَاهِبٍ، وَفِي دَاخِلِ
الْمَذَاهِبِ يَخْتَلِفُ الْمَذْهَبِيُّونَ فِي الْمَذْهَبِ الْوَاحِدِ، وَيَخْتَلِفُ أَصْحَابُ الْمَدْرَسَةِ
الْوَحِيدَةِ فِي الْمَذْهَبِ فِي عَشْرَاتٍ بَلْ مِائَاتِ الْمَسَائِلِ، بَلْ إِنَّ الْإِمَامَ الشَّافِعِيَّ

اختلفَ مع نفسه فكان في شطرٍ من عمره على فقهٍ معيّن، وفي الشطرِ الثاني كان على فقهٍ آخر، وكذلك المسيحيةُ انقسم أهلها إلى فرقٍ وطوائف، اختلفوا في فهم ذاتِ الله وطبيعته فكانوا طرائقَ عدّة، هذه هي طبيعة البشر، طبيعتهم التي فطرهم الله عليها هي الاختلاف؛ لذلك قال سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ ثم قال: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾.

المجموعة التي لا ينبغي لها أن تختلف أو تخالف رأيَ القائد هي الكتيبة العسكرية التي تخرج في عملية قتالية، في وسط أجواء القتال لا يجوز أن يكون هناك أكثر من رأي أو أكثر من قرار، ولكن أين هذا من حياتنا المدنية؟ لذلك بلغ استغرابي مداه عندما وصّفتني بعضهم قبل أن أترك الجماعة بأنني نغمةٌ نشازٍ وسطَ سيمفونيةٍ موسيقيةٍ إخوانيةٍ، إذ تصوّرتني درجةً من درجات السُلّم الموسيقيّ التي لم يستطع الموسيقار أن يضعها في موقعها المناسب من السيمفونية، فإذا بالموسيقار ينهال لومًا عليها ويقرّر الاستغناء عنها، فلتسقط هذه النغمة!! ومع ذلك فإنّ السيمفونية الموسيقية التي يؤلفها البشر تقوم على توظيف الاختلاف لا الاستغناء عنه، ولا تصبح السيمفونية رائعة إلا بمقدار الاختلاف المبدع الذي تنتجه قريحة الموسيقيّ المبدع بين النغمات ودرجات السُلّم الموسيقيّ، ولكنتي في كلّ الأحوال أرفض أن أكون نغمةً في سيمفونية يديرها إنسان، أنا إنسان، لي عقلي وفكري وقلبي، من أراد أن يتعامل معي على ذلك فأهلاً وسهلاً، ومن لم يردّ فهو وشأنه، العازف الذي يجلس في الفرقة الموسيقية لا يستطيع أن يحرك آلهة الموسيقية إلا إذا أشار له

المايسترو بذلك فإذا لم يُشر له كان عليه أن يظل ساكنًا، وأنا لست كذلك،
فقد اكتشفتُ عندما احتدم خلافي معهم أنني أحب العزف المنفرد.



تنقسم جماعة الإخوان من حيث الهيكل التنظيمي إلى مناطق وأقسام،
يعمل الأخ في الإخوان من خلال منطقته، ويعمل كذلك من خلال أي قسم
من الأقسام، وأشهر أقسام الإخوان هي قسم الطلبة وقسم المهنيين وقسم
أساتذة الجامعات وقسم الدعوة وقسم التربية وقسم الأخوات الذي تم
تفعله حديثًا، وظلت بعض الأقسام بعيدة عن عيون أفراد الجماعة لا يعرف
عنها أحد شيئًا، وكان أخطر هذه الأقسام وأكثرها أهمية هو قسم «الوحدات»
وهو الخاص بأنشطة الإخوان داخل الجيش والشرطة.

كان القسم الذي باشرت فيه نشاطي داخل الجماعة هو قسم المهنيين
وكانوا يعتبرونني أنشط أفراد هذا القسم وأكثرهم تأثيرًا خاصة فيما يتعلق
بالانتخابات ودروبها ومسالكها وخططها، ولأن قسم المحامين الذي هو
أحد فروع قسم المهنيين كان أكثر أقسام الجماعة إثارة للجدل لدى الرأي
العام، فقد كان بطبيعة الحال أكثر الأقسام إجهادًا للجماعة، فقد كان البعض
يعتبر أن قسم المحامين يعدو بخطى واسعة تتجاوز خطى الجماعة، حتى أنه لما
فرض النظام على نقابة المحامين ما يعرف بالحراسة القضائية لم يسكت القسم
ولم يقبل هذه الحراسة صاغرا بل ثار عليها بكل الوسائل الممكنة، واستطاع
المحامون الذين ينتمون للإخوان التحالف مع كل القوى السياسية الفاعلة في

النقابة من أجل إنهاء هذه الحراسة، وبعد أن نجحت مساعي المحامين وصدر حكم قضائي نهائي برفع الحراسة عن النقابة قرر قسم المهنيين أن يعقد اجتماعاً لمناقشة هذه التطورات، وتسرب خبر هذا اللقاء للجهات الأمنية.

تقرير من مرشد سري إلى مباحث أمن الدولة: «سيتم عقد اجتماع لقسم المهنيين في الإخوان في مقر جمعية هندسية إسلامية تابعة لنقابة المهندسين، مقرها في المعادي، وسيحضر الاجتماع كل من، محمد بديع، مختار نوح، خالد بدوي، مدحت الحداد، سعد زغلول العشماوي و، و، و، وسيكون الاجتماع في منتصف أكتوبر عام 1999». أضيف رسمياً وسعى رسمياً.

وكان أن تم القبض عليهم وإحالتهم إلى نيابة أمن الدولة التي أجرت معهم تحقيقات قضائية موسعة، ولأنك في مدينة الإخوان قد يستغل عليك الفهم أحياناً فقد بدوت كرجل عيب بطيء الفهم وأنا أرى أن رد فعل الجماعة على المستوى الإعلامي والسياسي لهذه القضية رديء بطيء، وحين وجدت وأنا أضرب كفاً على كف أن الجماعة لم تلق بالاً لهذه القضية، أخذت أبحث عن سر هذا التهاون، فالمستغرب أن بعض المقبوض عليهم كانوا من كبار قيادات الجماعة، فمنهم الدكتور محمد بديع عضو مكتب الإرشاد وقتها ومرشد الإخوان فيما بعد، ومنهم أيضاً الدكتور محمد بشر عضو مكتب الإرشاد، والأستاذ مختار نوح مسئول قسم المحامين بالجماعة وغيرهم، إلا أنني لم أصل في الأشهر الأولى للقضية إلى شيء، فقد شغلتني الأحداث عن تتبع حقيقة الإعراض.

كَانَ مِنَ الْمَجْهَدِ لِي ذَهْنِيًّا ذَلِكَ الْفُتُورُ الْبَارِدُ الَّذِي وَجَدْتُ الْإِخْوَانَ عَلَيْهِ
وَقَتْلُذٍ، فَقَدْ صَنَعُوا لَأَنْفُسِهِمْ أَذْنًا مِنْ طِينٍ وَأَذْنًا مِنْ عَجِينٍ؛ لِذَلِكَ أَخَذْتُ
أَدْفَعُ قِسْمَ الْمَحَامِينِ إِلَى الْقِيَامِ بِدَوْرٍ فَاعِلٍ وَمُؤَثِّرٍ، وَكَانَ الدَّكْتُورُ مُحَمَّدُ بَدِيعٍ
وَإِخْوَانُهُ فِي السَّجْنِ يُرْسِلُونَ لِي رِسَائِلَ شَبَّهَ يَوْمِيَّةٍ يَطْلُبُونَ فِيهَا مِنِّي أَنْ
أَتَحَرَّكَ مَعَ الْمَحَامِينِ عَلَى الْمُسْتَوَى السِّيَاسِيِّ وَالْقَانُونِيِّ بَعِيدًا عَنْ أَقْسَامِ الْجَمَاعَةِ
الرَّسْمِيَّةِ الَّتِي رَأَوْا أَنَّهَا خَذَلَتْهُمْ، كَانَتْ رِسَائِلُهُمْ لِي تَقْطُرُ حُزْنًا وَأَسَىً مِنْ
إِخْوَانِهِمْ فِي اللَّهِ الَّذِينَ تَرَكُوهُمْ بِلا اِهْتِمَامٍ، حَتَّى إِنَّ مَكْتَبَ الْإِرْشَادِ عِنْدَمَا قَرَّرَ
تَخْصِيصَ مَرْتَبٍ شَهْرِيٍّ لِأَسْرِ الْإِخْوَةِ الْمُحْبُوسِينَ، أَغْدَقَ عَلَى الْبَعْضِ وَحَرَّمَ
الْبَعْضَ الْآخَرَ!! كَانَ شَهْرُ أُكْتُوبَرِ مِنْ عَامِ 1999 هُوَ الشَّهْرُ الَّذِي تَمَّ الْقَبْضُ
فِيهِ عَلَى الْإِخْوَانِ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ، وَكَانَ شَهْرُ الْخَرِيفِ هُوَ الشَّهْرُ الَّذِي أُسْفِرَ
عَنْ بَصِيصِ الضَّوِّ الَّذِي تَبَعْتُهُ لِأَصِلَ إِلَى صَنْدُوقِ الْأَسْرَارِ، وَفِي مُنْتَصَفِ
شَهْرِ نَوْفَمْبَرٍ مِنْ نَفْسِ الْعَامِ صَدَرَ قَرَارُ رَئِيسِ الْجُمْهُورِيَّةِ بِإِحَالَتِهِمْ لِلْمَحْكَمَةِ
الْعَسْكَرِيَّةِ، وَكَانَ قَرَارُ الْإِحَالَةِ هَذَا عَلَى غَيْرِ مَا أَنْبَأْنَا بِهِ الْوَسْطَاءُ!! لِذَلِكَ
كَانَ وَقَعُهُ عَلَى نَفْسِي مُؤَلِّمًا جَارِحًا، وَبَعْدَ يَوْمٍ مِنْ قَرَارِ الْإِحَالَةِ لِلْمَحْكَمَةِ
الْعَسْكَرِيَّةِ عَقَدْنَا فِي قِسْمِ الْمَحَامِينِ بِالْجَمَاعَةِ اجْتِمَاعًا فِي مَكْتَبِ الْأَخِ بَهَاءِ
عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَحَامِي عَضُو مَجْلِسِ نِقَابَةِ الْمَحَامِينِ عَنِ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ، كَانَ
لِهَذَا الْاجْتِمَاعِ ضَرُورَةٌ قُصُوى، فَالْقَضِيَّةُ تَمَّ إِحَالَتُهَا لِلْقَضَاءِ الْعَسْكَرِيِّ وَلِهَذَا
الْأَمْرُ مَغْزَاهُ عِنْدَنَا، وَكَانَ هَذَا الْأَمْرُ يَعْنِي أَنَّ كُلَّ جُھُودِ الْوَسْطَاءِ قَدْ فَشِلَتْ
وَذَهَبَتْ أَدْرَاجَ الرِّيحِ، وَكَانَ يَجِبُ أَنْ يَجْتَمَعَ قِسْمُ الْمَحَامِينِ لِيَنْظُرَ مَاذَا سَيَفْعَلُ
فِي الْأَيَّامِ الْقَادِمَةِ عَلَى مُسْتَوَى كَافَةِ الْأَصْعَدَةِ، هَلْ سَنَسْتَمِرُّ فِي طَرَقِ أَبْوَابِ

أَلَيْسَ بِرَّسْمِيَّةٍ
وَسَعِيَّةٍ وَرَسْمِيَّةٍ

الْوَسْطَاءِ، أَمْ سَنَلْجَأُ لِلْمُنْظَمَاتِ الْحَقُوقِيَّةِ الْعَالَمِيَّةِ أَمْ سَنَلْجَأُ لِلْقُوَى السِّيَاسِيَّةِ
الليبرالية والاشتراكية والناصرية والعلمانية لِنَتَدَثَّرَ بِهَا كِي نَبْدُو أَمَامَ الْمَجْتَمَعِ
الْعَالَمِيِّ فِي صُورَةِ الْقُوَّةِ السِّيَاسِيَّةِ الْمُضْطَهَّدَةِ وَالَّتِي يُؤْمَنُ بِقَضَايَاهَا كُلُّ أُلُوَانِ
الطِّيفِ السِّيَاسِيِّ فِي مِصْرَ فَيُعْطِي هَذَا ثِقْلًا لِنَحْرُكَاتِنَا؟ أَمْ أَنَّنَا سَنَفْعَلُ كُلَّ هَذَا
وغيره أيضًا، وَكَانَ اخْتِيَارُ مَكْتَبِ بَهَاءِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ كَمَقَرٍّ لِهَذَا الْجَمْعِ عَلَى
أَسَاسٍ أَنَّ مَسَاحَةَ مَكْتَبِهِ كَبِيرَةٌ كَمَا أَنَّهُ فِي مَنَاطِقَةٍ مُتَمَيِّزَةٍ فِي «وَسْطِ الْبَلَدِ» وَكَانَ
بِهَاءٌ قَدْ حَصَلَ عَلَى هَذَا الْمَكْتَبِ بَوَسَاطَةِ مِنَ الْمَحَامِي النِّقَابِيِّ الشَّهِيرِ الْمَرْحُومِ
عِصْمَتِ الْهُوَارِيِّ الَّذِي كَانَتْ تَرْبِطُهُ بِهِ صِلَاتٌ قَوِيَّةٌ، وَقَدْ كَانَ هَذَا الْمَكْتَبُ
فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ مَكْتَبًا لِلدُّكْتُورَةِ سَمِيحَةِ الْقَلِيوبِيِّ أَسْتَاذِ الْقَانُونِ التِّجَارِيِّ
بِحَقُوقِ الْقَاهِرَةِ وَالَّتِي كَانَتْ أَيْضًا عَضْوًا بَارِزًا فِي الْحِزْبِ الْوَطَنِيِّ.

وَمِنْ تَصَارِيفِ الْقَدَرِ أَنَّ بَهَاءَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ كَانَ مِنَ الْإِخْوَةِ الَّذِينَ كَانَ مِنْ
الْمَفْتَرَضِ أَنْ يَحْضُرُوا الْاجْتِمَاعَ الَّذِي تَمَّ الْقَبْضُ فِيهِ عَلَى الدُّكْتُورِ بَدِيعٍ وَإِخْوَانِهِ
وَلَكِنَّهُ حَاضِرٌ مُتَأَخِّرًا، كَانَتْ طَبِيعَةُ بَهَاءِ الشَّخْصِيَّةِ هِيَ الْحُضُورَ مُتَأَخِّرًا فِي كُلِّ
الْلِّقَاءَاتِ، وَكَانَتْ الدُّعَابَةُ الَّتِي نُدَاعِبُهُ بِهَا حِينَ نُكَلِّمُهُ عَلَى الْهَاتِفِ نَسْتَفْسِرُ
مِنْهُ عَنْ سَبَبِ تَأْخِيرِهِ فِي الْحُضُورِ فِي أَيِّ اجْتِمَاعٍ أَنْ نَقُولَ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَنْبَسَ
بِنْتِ شَفَةِ: أَنْتَ الْآنَ عَلَى كُوبَرِي أَكْتُوبرِ وَالْكُوبَرِي عَلَيْهِ حَدَثٌ يُعْرِقُ
حَرَكَةَ الْمُرُورِ وَإِنَّكَ عَلَى وَشْكِ أَنْ تَتَجَاوَزَ مَكَانَ الْحَادِثِ. فَيَضْحَكُ قَائِلًا: هُوَ
كَذَلِكَ. وَكَانَ مِنْ حُسْنِ طَالِعِ بَهَاءِ أَنْ اصْطَحَبَ مَعَهُ لِحُضُورِ هَذَا الْجَمْعِ
الْمَشُومِ الْأَخَ أَحْمَدَ رِبْعٍ فَأَصْبَحَ التَّأْخِيرُ حَتْمِيًّا، وَحِينَ اقْتَرَبَ أَحْمَدُ وَبَهَاءُ
مِنْ مَقَرِّ الْجَمْعِ وَجَدَا حَرَكَةَ غَرِيبَةٍ فِي الشَّارِعِ وَشَاهَدَا قُوَاتِ الْأَمْنِ تُحِيطُ

بالمكان فقررا الانصراف، ومن الغرائب أن اقترَبَ منهما ساعتئذٍ بعض الجنود وألقوا القبض عليهما، وأخذوا منهما بطاقتي تحقيق الشخصية الخاصة بهما ووضعوهما بالفعل في «البوكس» إلا أن أحد الضباط جاء مسرعاً من السيارة وقال للجنود: مَنْ هؤلاء؟ قالوا: وجدناهما يسيران بالقرب من المقر يا فندم، فقال للجنود: (بلاش مضيعة وقت، انزل يا أستاذ انت وهو، فارقونا). فأسرع بهاء وأحمد في الانصراف وبهاء يقول للضابط: (طيب وبطاقات الشخصية يا فندم؟) وأخذ يكررهما وأحمد يلكره في جانبه ليسرع في الانصراف وهو يقول له: (طلع بدل فاقد يا بهاء وما تودينا ش للداهية تاني). ونجا بهاء وأحمد من عملية القبض هذه ليكون لنا أن نعقد هذا الاجتماع في مكتبه.

مكتب بهاء عبد الرحمن يقع في منطقة عابدين وهو مكتب متسع الحجرات والردهات، بدأت وفود الإخوة تهل على المكان حتى اكتمل الجمع في الساعة العاشرة صباحاً، وحين بدأت وقائع اجتماعنا تحدث الأستاذ محمد طوسون عضو الجماعة وقال إن الدكتور محمد بديع المحبوس في القضية طلب من القسم تشكيل لجنة إخوانية تكون مهمتها إدارة معركة هذه القضية من الناحيتين السياسية والقانونية، واقترح الأستاذ طوسون أن يكون اسم هذه اللجنة هو: «لجنة إدارة الأزمة» وأن تكون بالانتخاب وفقاً للائحة قسم المحامين، أخذ كل واحد من الإخوة يدلي برأيه في الاقتراح، وتحدث كل ممثلي المحافظات، كان كلام الجميع حماسياً إلا أنني لاحظت أن كلام الشاعر كان خطابياً بليداً كأنه من تماثيل الشمع التي تشبه الحقيقة ولكنها ليست هي، نظرت للإخوان الذين يتحدثون وكأنني أنظر إلى التماثيل التي تزين أروقة متحف «مدام تيسو»

للسمع في لندن!! تَحَيَّلْتُ أَنِّي أَقْتَرَبُ مِنْ حِمَاسِهِمِ الْمَتَدَفِّقِ لِأَمْسِهِ وَأَتَبَيِّنُ حَقِيقَتَهُ
فَإِذَا بِي أَكْتَشَفُ أَنَّهُ بِلَا حَيَاةٍ، مُزَيَّفُونَ، كُلُّهُمْ مُزَيَّفُونَ، إِلَّا هُوَ، شَعَرْتُ بِصِدْقِهِ
وَحَرَقَةَ قَلْبِهِ، أَحْمَدُ رِبِيعُ غَزَالِي... كَانَ أَحْمَدُ رِبِيعٌ يَتَوَلَّى مَسْئُولِيَّةَ قِسْمِ الْأَشْبَالِ
بِجَمَاعَةِ الْإِخْوَانِ فِي مَحَافِظَةِ الْجِيزَةِ، وَكَانَ عَضْوًا بِمَجْلِسِ شُورَى الْجَمَاعَةِ وَأَمِينًا
لِصُنْدُوقِ نِقَابَةِ الْمُحَامِلِينَ بِالْجِيزَةِ، كَانَ هُوَ أَعْلَى الْمَوْجُودِينَ فِي رُتْبَتِهِ الْإِخْوَانِيَّةِ،
وَشَعَرْتُ أَنَّهُ أَعْلَاهُمْ فِي رُتْبَتِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَالْحَقُّ أَنِّي لَمْ أَكُنْ مِنْ أَصْدِقَاءِ أَحْمَدِ
رِبِيعِ الْمُقَرَّبِينَ، وَلِذَلِكَ لَمْ أَكُنْ أَرَاهُ كَثِيرًا قَبْلَ وَقَائِعِ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ، وَلَكِنِّي كُنْتُ
أَشْعُرُ بِنَفْسِي تَهْفُو إِلَيْهِ دُونَمَا سَبَبٍ ظَاهِرٍ، وَلَكِنَّمَا كَانَتْ جُرْأَتُهُ فِي الْحَقِّ هِيَ سَبَبُ
أَنْشِدَاهِي لَهُ، وَلَرَبَّمَا كَانَ صِدْقُهُ هُوَ الرَابِطَةُ الَّتِي أَوْصَلَتْهُ لِفُؤَادِي، وَأَشْهَدُ أَنِّي
لَمْ أَكُنْ أَرَاهُ مِنْ قَبْلُ إِلَّا مِنْ خِلَالِ ضَوْءٍ ضَعِيفٍ، هُوَ ضَوْءُ «الرَّوَاطِلِ الْإِخْوَانِيَّةِ»
وَهُوَ أَخْفَتْ مِنْ ضَوْءِ الشَّمْعَةِ، وَضَوْءُ الشَّمْعَةِ لَا يَكْفِي لِكَي تَكْتَشِفَ الْجَمَالَ
الْإِنْسَانِيَّ فَيَمُنُّ تُحِبُّهُمْ.

وَعَلَى آخِرِ النَّهَارِ تَمَّتْ اِنتِخَابَاتُ «لَجْنَةِ إِدَارَةِ الْأَزْمَةِ»، وَانْتِخَابَاتُ
الْإِخْوَانِ لَهَا طَبِيعَةٌ خَاصَّةٌ، فَلَا يَجُوزُ فِيهَا أَنْ يَتَقَدَّمَ أَحَدٌ لِلتَّرْشِيحِ، وَلَكِنْ
الْكُلُّ يَتَخَبَّرُ، وَالْكُلُّ مُرَشَّحٌ، وَأَسْفَرَتْ اِلانتخاباتُ عَنْ فَوْزِي بِرِئَاسَةِ
لَجْنَةِ الْأَزْمَةِ «بِالْإِجْمَاعِ» مَا عَدَا صَوْتِي أَنَا فَقَدْ ذَهَبَ لِأَحْمَدِ رِبِيعٍ، وَنَجَحَ فِي
عَضْوِيَّةِ اللِّجْنَةِ تِسْعَةُ أَعْضَاءٍ كَانَ مِنْهُمْ أَحْمَدُ رِبِيعٌ وَبِهَاءُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَجَمَالُ
حَنْفِي عَضْوُ مَجْلِسِ الشَّعْبِ فِيمَا بَعْدَ وَبَعْضُ أَفْرَادِ آخَرِينَ، وَأَخَذَتِ اللِّجْنَةُ
بَعْدَ ذَلِكَ دَوْرَهَا فِي إِدَارَةِ الْأَزْمَةِ، وَيَبْدُو أَنَّ هَذِهِ اللِّجْنَةَ كَانَتْ مُصَدِّرَ قَلْقٍ
لِلْجَمَاعَةِ، وَكَانَ الَّذِي أَثَارَ أَنْدِهَاشِي أَنَّ الْأُسْتَاذَ مُحَمَّدَ طَوْسُونَ عِنْدَمَا رَأَى

السَّرعَة التي نَسِيرُ بها لنُصرة إخواننا كانَ يَقولُ لي ولأحمد ربيع مُستنكراً وقد اشتدَّ به الحنقُ: لماذا هذا الحماسُ؟! هذه ليست أول قضية يتم حبس الإخوان فيها، خففا عنكما فقد يكون حبسهم فيه مصلحة للجماعة!!



في إحدى الجلسات الهامة بالمحكمة العسكرية التي انعقدت لمحاكمة الثَّقايبين الإخوان تذكَّرتُ واقعة خطيرة كانت قد حدثت عام 1995، كان النظام قد قبض على عدد كبير من الإخوان ما بين عامي 1995، 1996، وكان المقبوض عليهم من أعلى قيادات الجماعة، فمنهم عصام العريان وخيرت الشاطر وعبد المنعم أبو الفتوح وعبد الحميد الغزالي ولاشين أبو شنب وجمعة أمين ورشاد البيومي ومحمد حبيب ومحمود عزت ومهدي عاكف وإبراهيم الزعفراني وسعد الحسيني، وحسن الجمل والسيد النزيلي ومحسن راضي ومحيي الزايط وحلمي الجزار وأبو العلا ماضي وآخرون وأخذت هذه القضايا أرقام 8، 11 لسنة 1995، 5 لسنة 1996، وكان الدكتور محمد سليم العوا هو رئيس هيئة الدفاع ومعه مختار نوح الذي كان منسباً لهيئة الدفاع، وقتها قام الإخوان باستقدام عدد من المحامين الإنجليز لحضور جلسات المحاكمات بصفتهم مراقبين، وكان من حظي أن كنت مكلفاً من الإخوان مع بعض المحامين الإخوان بمرافقة هذا الوفد، كان الدكتور العوا هو الشخص الوحيد الذي كان مؤهلاً للتعامل مع هذا الفريق، أما نحن فقد كنا مجرد رفقاء طريق، فالدكتور العوا لديه كل تفصيلات القضايا

ألف وتسعين وخمسة وستين

صحة سنة ألف وتسعين وخمسة وستين

ثمانية، أصد عشر سنة ألف وتسعين وخمسة وستين

بحسب موقعه في رئاسة فريق الدفاع كما أنه يجيد الإنجليزية إجادته للعربية، وفي هذه الفترة عرفت من خلال أحد الإخوة المقربين من الدكتور العوا أنه أي الدكتور العوا تدخل سياسيًا للصّح بين جماعة الإخوان والنظام، كان هدف الدكتور العوا من الوساطة للصّح أن يتيح للحركة الإسلامية مساحة كبيرة في الحركة الدعوية، والدعوة هي الوسيلة الإنسانية الرفيعة التي من شأنها الارتقاء بمفاهيم وقيم الناس، وترشيد سلوكياتهم، وبالدعوة تقوم الحضارات، فما من حضارة إلا ولها دعوة ودعاة.

طلب الدكتور العوا مقابلة اللواء عمر سليمان مدير المخابرات فحدد له الأخير موعدًا، وفي الاجتماع عرض العوا الوساطة في الصّح، فوافق عمر سليمان، إلا أنه اشترط عدة شروط، منها أن يمتنع الإخوان عن خوض أي انتخابات نقابية أو برلمانية لمدة خمس سنوات، على أن يتيح لهم النظام مساحة حركة من خلال المساجد، فإذا وافق الإخوان على هذا الشرط يتم الإفراج عن كل المحبوسين الإخوان، كان هذا العرض مرضيًا للدكتور العوا، ظن وقتها أن قيادات الإخوان ستوافق على هذا العرض وسترحّب به أيما ترحيب، فهي فرصة نادرة لا تتكرر، وقبل أن يغادر العوا مكتب عمر سليمان قال له هذا الأخير: على فكرة يا دكتور.. الإخوان لن يوافقوا على هذا العرض، مأمون الهضيبي سيرفض بشدة... ويبدو أن الدكتور العوا أصابته حالة من الاندهاش عندما جاء له رد المستشار الهضيبي قاطعًا برفض العرض!! كيف يرفض الهضيبي اتفاقًا كهذا، وأنّي لعمر سليمان أن يعرف الرفض مسبقًا!! إلا إذا كان صندوق الأسرار لا يزال يرفض البوح بأسراره.

جرت هذه الذكريات في خاطري وأنا في المحكمة العسكرية أنتظر مع باقي المحامين مشاهدة شريط الفيديو الذي سجّله مباحث أمن الدولة للمتهمين لحظة القبض عليهم في الاجتماع الذي عقّده بالمعادي، انعقدت الجلسة برئاسة اللواء أحمد الأنور، وبعد الإجراءات القانونية الأولى تم استدعاء شاهد الإثبات الأول الذي كان ضابطاً بمباحث أمن الدولة ومسئول قسم الإخوان بالجهاز وكان اسمه الحركي عاطف الحسيني، وكان من المعروف عن عاطف الحسيني أنه يعرف كل كبيرة وصغيرة في الإخوان ويحفظ وجوه أفرادهم فرداً فرداً، قام عاطف الحسيني بتشغيل شريط الفيديو وبدأت الصورة تظهر على شاشة التلفزيون، كانت الصور التي تابعت هي صور بعض الإخوان وهم يدخلون إلى مقر الاجتماع، وطلبت المحكمة من الشاهد عاطف الحسيني أن يوقف الشريط عند كل فرد دخل للمكان ثم يقوم بالتعريف بهذا الشخص، وكانت المحكمة تستدعي كل متهم تعرف عليه الشاهد في الشريط لتقوم بمناظرته، وظهر أن الشاهد يعرف الجميع.

هل تعرفون قصة المرشد السري؟ ليس قصدي هنا مرشد جماعة الإخوان السري، فقد تحدثت عنه بما فيه الكفاية في الجزء الأول من كتابي، وأظن أن الحديث عنه أثار حالة من الجدل التاريخية، إثباتاً أو نفيًا، ولكن المرشد السري هنا هو ذلك الأخ الإخواني الذي قام بإبلاغ مباحث أمن الدولة عن هذا اللقاء، نعم فـجهاز أمن الدولة وفقاً لما قاله الدكتور محمد حبيب في أكثر من لقاء استطاع اختراق الجماعة من أعلاها إلى أدناها، وكانت الشكوك قد حامت حول بعض الإخوة الذين تخلفوا فجأة عن حضور هذا الاجتماع

الهام، فلربما قام أحدهم بالإبلاغ عن هذا اللقاء، أخذت الاتهامات تُصيب الكثير من أفراد الجماعة من الذين كانوا يعرفون خبر هذا اللقاء، وكانت هذه الاتهامات والشبهات تُزعزع الثقة في كثير من الإخوة كما أنها كانت تُصيب هؤلاء الإخوة بحالة من الغضب والإحباط، فما أقسى الاتهامات التي لا تكون بلا سندٍ أو دليل!

إلا أن الشاهد عاطف الحسيني في شهادته أمام المحكمة قال إنه اتفق مع مرشده السري الإخواني على حضور الاجتماع وجهزه بالتسجيلات اللازمة لتسجيل كل شاردة وواردة في اللقاء، وكنّا في جلسة سابقة قد سمعنا التسجيلات، وبقي أن نعرف من هو المرشد السري.



الدكتور عمرو عبد الإله البليسي، هو أحد الإخوان الفاعلين في قسم النقبائين بالإخوان، وعندما بدأ المهندس أبو العلا ماضي في تشكيل حزب الوسط أواخر عام 1995 انضم عمرو إلى الحزب، وبعد أن احتدمت الخلافات بين أبو العلا والإخوان طلب المستشار الهضيبي من كل الإخوان الذين كانوا قد حرروا توكيلات لوكيل المؤسسين أبو العلا ماضي أن يقوموا بإلغائها، فقام عمرو البليسي بإلغاء التوكيل فوراً، لم يكن البليسي وحده هو من فعل ذلك ولكن كان معه في ذلك صلاح عبد المقصود وجمال حشمت وغيرهم، الكل انساق خلف مأمون الهضيبي الذي كان يسوق الجماعة فتساق له، وفي لقاء جمع أبو العلا ماضي بعمرو البليسي، بكى البليسي

ألف وتسعمائة وخمسة وتسعين

أسفًا على إلغاء التوكيل وقال: لم يكن لي حيلة في ذلك. فردَّ عليه أبو العلاء ردًّا قاسيًا: يبدو يا دكتور عمرو أن قادة الجماعة قامت بعملية «إخفاء» لأفراد الجماعة بالأمر الذي ترتب عليه فقدكم لرجولتكم!!.

كان الدكتور عمرو البليسي قد حضر لقاء النقيبين وانصرف منه قبل القبض على الإخوة بعشر دقائق، وكنا نعرف هذا الأمر، كان العجب يُلَفُّنا، لماذا لم يتم القبض على البليسي رغم أنه كان من الحاضرين؟! بل إنَّ أحد من حضرُوا اللقاء كان قد انصرف هو كذلك إلا أنَّ ضباط أمن الدولة قبضوا عليه قبل أن يركب مترو الأنفاق، وتم تقديمه في القضية مع باقي المتهمين، بل إنَّ الدكتور محمد بشر عضو مكتب الإرشاد لم يحضر اللقاء من الأصل ومع ذلك تمَّ القبض عليه!! فلماذا تمَّ استثناء عمرو البليسي؟! كانت هذه الأفكار تُباغتني وأنا أشاهد شريط الفيديو مع باقي المحامين بجلسة المحكمة العسكرية، وكان عاطف الحسيني لا يزال يتوقَّف عند صورة كلِّ متهم ليقوم بتعريفه، وفجأة ظهر على الشاشة صورة عمرو البليسي وهو يدخل المكان، ثم ظهرت بعد ذلك صورته وهو يغادر المكان قبل القبض على المتهمين بدقائق، طلب اللواء أحمد الأنور رئيس المحكمة إيقاف الشريط عند صورة عمرو البليسي وقال للشاهد عاطف الحسيني: من هذا؟ هل تعرفه؟ هل هو من المتهمين؟ وهنا نظرتُ إلى وجه الشاهد الحسيني لأقرأه ثم نظرتُ إلى وجوه بعض المحامين من الإخوان لأترقب ردِّ فعلهم، وجاءت إجابة عاطف الحسيني من أغرب ما يمكن.

الفصل الثالث

المرشد السري وزمن الجواسيس

تَلَحُّ عَلَيَّ أحيانًا الرغبةُ في الصَّمْتِ، أَصْمُتُ، اكسِرْ قَلَمَكَ، إِنَّكَ لَنْ تُصْلِحَ
الكونَ أَبَدًا، سَيَجْهَلُ قَوْمُكَ مَقْصِدَكَ، سَيَمَزِّقُونَ صُورَتَكَ، سَيَتَهَمُونَكَ في
وَطَنِيَّتِكَ أحيانًا وفي عقيدَتِكَ أحيانًا أُخْرَى، كُنْ كَبَاقِي أَصْحَابِكَ، أَمْسِكِ
الْعَصَا مِنَ الْمُتَنَصِّفِ، حَاوِلْ أَنْ تُرْضِيَ الْجَمِيعَ، مَا الَّذِي سَتَرَبُحُهُ مَنْ كَشَفَ
الحَقِيقَةَ؟! هَلْ تَظُنُّ أَنَّ الحَيَاةَ مِثْلُ الحُدُوتَةِ الَّتِي نَقُصُّهَا عَلَى الصِّغَارِ؟! في
الحُدُوتَةِ يَدُورُ الصِّراعُ بَيْنَ الخَيْرِ وَالشرِّ، بَيْنَ الحقِّ وَالْبَاطِلِ، وفي النِّهَايَةِ يَنْتَصِرُ
الخَيْرُ وَتَعْلُو رَايَةُ الحقِّ، وَلَكِنَّ الدُّنْيَا غَيْرُ ذَلِكَ، الخَيْرُ لَا يَنْتَصِرُ دَائِمًا وَرَايَةُ
الْبَاطِلِ تَعْلُو كَثِيرًا، وَلَكِنْ يَهْزُنِي «فِعْلُ أَمْرٍ» يَصْدُرُ مِنْ أَعْمَاقِي، هُوَ «اُكْتُبْ،
اُكْتُبْ» الكِتَابَةَ تَسْبِقُ القِرَاءَةَ، وَلَوْلَاهَا مَا قَالَ اللهُ لَنَا «اقْرَأْ» يَبْدَأُ الْإِنْسَانُ طَرِيقَ
المَعْرِفَةِ بِقِرَاءَةِ الكِتَابِ ثُمَّ يَرْتَقِي فَيَقْرَأُ النَّاسَ ثُمَّ يَرْتَقِي فَيَقْرَأُ الحَيَاةَ ثُمَّ يَرْتَقِي
فَيَقْرَأُ المَوْتَ، وَلَكِي نَقْرًا يَجِبُ أَنْ نَكْتُبَ.



القاعة الكبرى في المحكمة العسكرية بالهايكستب هي في الأصل قاعة مسرح، كنا نعيش في أجوائها وكأننا بالفعل على مسرح تجريبي، نشاهد مسرحية عبثية، يشترك فيها الممثلون والجمهور، يؤدي بعضهم دوره ارتجالياً ويؤدي البعض الآخر دوره المرسوم له من المؤلف العبقرى الذي كاد أن ينافس شكسبير في حركاته الدرامية، تقع منصة القضاة على خشبة المسرح، وأمامهم ميكروفونات ليصل صوتهم بوضوح إلى كل الجمهور، يقف المحامون والشهود خلف منصة خاصة بهم أسفل خشبة المسرح، أمامهم هم أيضاً ميكروفونات، قفص المحكمة كئيب متشابك الأسلاك بحيث يصعب عليك أن تبين بوضوح وجوه الأشخاص الذين يقعون خلفه، أما القاعة فتتسع لحوالي ثلاثمائة شخص، وبجوار منصة المحامين منصة مرتفعة وضعت عليها جهاز تلفزيون كبيراً وجهاز فيديو، وبجوارهما يقف ضابط أمن الدولة عاطف الحسيني، كان العرض المسرحي الذي نشاهده ونشترك فيه هو تسجيل فيديو لدخل عمارة الصورة أمامنا جامدة ولكنها كانت تتحرك كل فترة بدخول أحدهم للعمارة.

حين دخل الدكتور عمرو البليسي لم ينبس الضابط عاطف الحسيني ببنت شفة، تفحصت وجهه لحظتها فوجدته جامداً لا يشي عما بداخله، وفي نهايات عرض الشريط خرج عمرو البليسي من العمارة فلم يحرك عاطف الحسيني ساكناً أو يوقف شريطاً، قطع صوت اللواء أحمد الأنور صمت القاعة قائلاً: لم نجب على سؤالي يا عاطف بك، من هذا؟

رد عاطف الحسيني قائلاً: لا أعرفه!! في الغالب هو أحد سكان العمارة ولا علاقة له بتنظيم الإخوان.

كُنْتُ أَقِفُ بِجَوَارِ عَاطِفِ الْحُسَيْنِيِّ حِينَمَا قَامَ بِإِغْلَاقِ شَرِيطِ الْفِيدِيُو
وَصَوْتُ الْحَاجِبِ يَحْتَرِقُ أَذَانَنَا قَائِلًا: مُحْكَمَةٌ مُعْلِنًا رَفَعَ الْجُلُوسَةَ، رَبَّتْ أَحَدُ
الْمَحَامِيْنِ عَلَى كَتِفِي قَائِلًا: الدُّكْتُورُ بَدِيعٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَكَلَّمَ مَعَكَ.

ذَهَبْتُ إِلَى الْقَفْصِ، فَأَخَذْتُ أَنْظَرُ لِلْوُجُوهِ الَّتِي بَدَاخِلِهِ، لَمْ أَسْتَطِعْ تَبْيُنَ
مَلَامِحِ الْقَابَعَيْنِ بِالْداخِلِ بِشَكْلِ دَقِيقٍ، فَالْأَسْلَاكُ الْكثِيفَةُ الْمُتَشَابِكَةُ تَعَوَّقُ
جُزْءًا كَبِيرًا مِنَ الرُّؤْيَا، وَكَذَلِكَ نَفْسُ الْأَسْلَاكِ تَعَوَّقُ رُؤْيَا الَّذِينَ بَدَاخِلِ
الْقَفْصِ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رُؤْيَا الَّذِينَ يَقِفُونَ خَارِجَ الْقَفْصِ، رَبَّتْ عَلَى كَتِفِ
عَاطِفِ عَوَادِ الَّذِي كَانَ يَتَحَدَّثُ وَقَتْنَدٍ مَعَ إِخْوَةٍ لَمْ أَتَبَيَّنْهُمْ، وَإِذْ أَمَعَنْتُ النَّظَرَ
وَجَدْتُهُمُ الدُّكْتُورَ مُحَمَّدَ بَدِيعٍ وَمُخْتَارَ نُوحٍ، وَقَفْتُ بِجَوَارِ عَاطِفِ صَامِتًا إِلَى
أَنْ أَنْهَى كَلَامَهُ، وَبَعْدَ أَنْ أَلْقَيْتُ السَّلَامَ سَأَلَنِي الدُّكْتُورُ بَدِيعٌ: مَنْ هَذَا الَّذِي
سَأَلَ عَنْهُ رَئِيسُ الْمُحْكَمَةِ؟ هَلْ هُوَ وَاحِدٌ مِنَ الْإِخْوَانِ؟

قُلْتُ هَامِسًا: نَعَمْ، هُوَ عَمْرُو الْبَلْبِيسِيِّ.

بَدِيعٌ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ أَنْ الضَّابِطَ لَمْ يَتَعَرَّفْ عَلَيْهِ وَإِلَّا لَكَانُوا قَدْ قَبَضُوا عَلَيْهِ هُوَ
الْآخِرُ، رَبَّنَا نَجِّاهُ وَأَعْمَى بَصَرَهُمْ وَبَصِيرَتَهُمْ)

أَنَا: (الْحَمْدُ لِلَّهِ يَا دَكْتُورُ رَبَّنَا يُنَجِّكُمُ)

بَدِيعٌ: (عَلَى فِكْرَةٍ، إِخْوَانُكَ فِي السَّجْنِ يُحِبُّونَكَ كُلَّهُمْ وَيَدْعُونَ لَكَ بِظَهْرِ
الْغَيْبِ، وَيَطْلُبُونَ مِنْكَ الْأَخْذَ بِالْأَسْبَابِ، وَلَا تَيْشُ إِذْ لَمْ تَتَحَقَّقِ النَّتَائِجُ، فَمَا
عَلَيْنَا إِلَّا الْعَمَلُ).

أَنَا: (طَبْعًا طَبْعًا يَا دَكْتُورُ، إِحْنَا تَلَامِيذُكَ).

بديع: عرفتُ بأمر اللّجنة التي تشكّلت برئاسة برئاستك، ونحن نثقُ في إدارتك للمعركة، هل قرأت الخطّة التي أرسلتها إليك؟
أنا: نعم قرأتها.

بديع: كنتُ حريصاً فيها على أن أقول لإخوانك في مكتب الإرشاد إنّه من الجيد أنهم تنبّهوا الملكاتك وقدراتك، وإنّك تستطيعُ بقدراتك على التفاوض أن تقفزَ بقضيتنا إلى مناطق آمنة إن شاء الله.
أنا: ربّنا يوفّقنا يا دكتور.

بديع: أنا من سجنني أساعدك قدر المستطاع، وقد أرسلتُ إلى إخوانك في المكتب «مكتب الإرشاد» كي يكتبوا مقالة باسم الحاج مصطفى مشهور وينشرونها في جريدة الشعب عن زيارة الرئيس مبارك لبيروت ودعّمه لها ولإميل لحود بعد الاعتداءات الإسرائيلية عليها.

تدخل عاطفُ عواد قائلاً: (ياريت تطلبُ منهم يا دكتور يكتبوها كويس ربّنا يكرمك، أنا خايف يشتّموا في لبنان أو إميل لحود ويقولوا عليه شيوعي أو درزي!!)

ابتسم الدكتور بديع وهو يقول: لا أنا طلبتُ منهم يمدحوا مبارك جدّاً، هذه فرصة لنا كي نثبت أننا لا نعارضُ من أجل المعارضة.

عاطف عواد: هوّده الكلام يا دكتور، ربّنا يكرمك، ينبغي أن لا نكونَ عدميّين، نحنُ نعارضُ الخطأ ونوافقُ على الصّواب.

التفت بديع ناحيتي وهو يقول: أنا طلبت منهم في قسم المهنيين أن يجعلوا الأخ عمرو البليسي مفوضاً من قسم المهنيين للحضور معكم وتوصيل طلباتكم فوراً لمكتب الإرشاد والمرشد.

كتمت دهشتي، إلا أنني اعترضت قائلاً: عمرو عبد الإله البليسي يا دكتور!! ألا يوجد أحد غيره؟

رد بديع بحزم: ماله عمرو يا ثروت؟! هو أخ فاضل وخبرته كبيرة في كل أنشطة المهنيين، ثم إنه بلدياتك، ابدأ معه التنسيق من اليوم.

واقفت مرغماً: كما ترى يا دكتور.

جری فی خاطري أنني سأتعامل مع عمرو البليسي وسأستق معه ولكنني لن أكشف له كل أوراقني (وفيما بعد أصبح عمرو عبد الإله البليسي أحد الكبار في قسم المهنيين بجماعة الإخوان، إلا أنه بعد الثورة أصبح منزوياً بعيداً عن موقع القرار وحدث أن قابلته قدراً في معرض الكتاب فاشتكى لي من الإخوان وظلمهم له) يكفي أن حياتنا امتلأت بالجواسيس، جواسيس يكتبون التقارير لقيادات الإخوان، وجواسيس يكتبون التقارير لأجهزة الأمن، وأحياناً يقوم الجاسوس بالدور المزدوج، لا كما هو متعارف عليه في أجهزة المخابرات، ولكن بشكل جديد، فالجاسوس الإخواني الجديد ينقل لقيادات الإخوان، وفي ذات الوقت ينقل لجهاز أمن الدولة، وكم تكون صدمة الواحد مؤلمة عندما يكتشف أن أحد المقربين منه يتجسس عليه!! وآه من زمن الجواسيس، في كل زمن تتكرر قصة يهوذا الأسخريوطي، في كل زمن صديق يغدر بصديقه وهو ينظر

إلى صندوق الذهب الذي سيحصل عليه، وقد يحصل على الذهب فعلاً، ولكنه
حتمًا يفقد نفسه، يحتقر فعله، ولكنه ككل إنسان مريض سيستخدم جرعات
مخدّرة حتى يغيب ضميره، وكلما زاد حجم الخيانة زادت جرعات المخدر،
في الحقيقة أنا غير غاضب منهم، أنا أشفق عليهم، أعرف أنهم لا يستطيعون
النظر لأنفسهم في المرآة، لا يستطيع الواحد منهم أن يرفع رأسه أمام ابنه وهو
يحاول أن يرشده وينقل له تجارب الحكمة التي ستحميه في مستقبل أيامه، كيف
تحدث مع ابنه الذي على مشارف الشباب ويث في نفسه الأخلاق وهو الذي
فقد كل أخلاقه في مقابل حفنة من الجنيهات ستفنى كما تفنى كل الأشياء
في الدنيا، أتعرف؟ قد يلجأ إليك هذا الصديق الجاسوس ويطلب منك أن
تحدث مع ابنه وأن تستعيده من انفلات أو شك أن يقع فيه!! فتذهب بكل
أريحية وتعدّد جلسات وجلسات مع هذا الابن الشارد، فإذا ما أنتهت هذه
الجلسات وأنفرد بك الأب الصديق الذي عينوه ليتجسس عليك إذا به يحاول
استدراجك ليعرف منك ويحصل على المعلومات التي سترفع من قدره لدى
الجهة الأمنية التي وضعتك عليك جاسوسًا، يظن أنك لا تعلم، ولا يعرف أنه
منذ أول لحظاته وهو مكشوف، كان كتابًا مفتوحًا من فرط سذاجته، ويظل
الجاسوس الغبي دائمًا مكشوفًا وهو يظن أنه أذكى من الجميع، ومع ذلك فإنني
كنت أنقل له ما أريده أن يصل، فأنا في معركة، وإخواني في السجن، كنت
أحدث نفسي: لا كنت إن لم أنصرهم، فلأستغل هؤلاء الجواسيس. بعضهم
كان من الإخوان وبعضهم من خارج الجماعة ولكنهم كلهم كانوا مكشوفين
أكاد أقرأ على وجه كل واحد منهم كلمة «جاسوس».

ليست هذه مجرد معانٍ مجردة أو كلماتٍ عامةٍ، ولكنها حياةٌ عشتُ فيها وعاشتُ أشخاصها، كنتُ أرثي لهم وأشفقُ على عائلاتهم وأولادهم، كان منهم سليمان، وسليمان هذا ليس اسمه الحقيقي طبعاً إذ ليس هدفي أن أفصح هؤلاء أو أشهرّ بهم، ولكن هدفي أن أكشف عن هذا المرض الذي استشرى في قلب الحركة الإسلامية أو قل في وسط المجتمع المصري الذي اشتدت فيه قبضة الأمن، كان سليمان قريباً مني، بل كان صديقي، وكان في ذات الوقت قريباً من الإخوان، وفي حملة أمنية تم القبض عليه، وكان عجبني كبيراً، سليمان ليس من ضمن أفراد الإخوان، وهو ليس نكرة يجهلها الأمن! وضعت علامات تعجب أمام قرار القبض عليه، ولكنني وقفت معه وذهبتُ لتحقيق النيابة وحضرتُ مدافعاً عنه، وفي التحقيق وجدتُ أن أسئلة وكيل النيابة روتينية سطحية مجرد تأدية واجب، وفي نهاية التحقيق تم حبس سليمان خمسة عشر يوماً على ذمة التحقيق، وكان أهل بيته قد أحضروا له الملابس البيضاء التي يرتديها المحبسون احتياطياً فعرفتُ منهم أن بعض ضباط أمن الدولة قاموا بتفتيش البيت وأخذوا جهاز كمبيوتر، ولكنهم كانوا في منتهى الأدب والاحترام وهم يفتشون البيت حتى إنهم اكتفوا بالتفتيش الظاهري مع تقديم عبارات الاعتذار، وبعد ذلك كنتُ أذهب إليه يومياً في سجن مزرعة طرة لأطمئن عليه وأنقل له «الزيارة» التي يجيئها له أهله، وبعد انتهاء فترة الحبس الأولى تم عرضُه على نيابة أمن الدولة لتقرر إمّا مدّ حبسه وإمّا إخلاء سبيله، وأثناء دفاعي عنه لاحظتُ أن وكيل النيابة لم يكن معي، وكأنه لا يسمعي إطلاقاً بل كأنه لا يدري أن هناك محامياً جالساً أمامه

يَبْدِي دِفَاعَهُ عَنْ مُتَّهَمٍ مَحْبُوسٍ، فَقَدْ كَانَ يَقْرَأُ بِتَرْكِيزٍ وَرَقَةً عَلَيْهَا مِنْ أَعْلَى مِنْ
النَّاحِيَةِ الْيُمْنَى شِعَارُ مَبَاحِثِ أَمْنِ الدَّوْلَةِ، كُنْتُ أُرِيدُ مَعْرِفَةَ مَا هُوَ الْمَكْتُوبُ
فِي هَذِهِ الْوَرَقَةِ، شَدَّنِي حُبُّ الْاسْتِطْلَاعِ إِلَى حَدِّ لَمْ أُسْتَطِعْ مَقَاوِمَتَهُ، فَسَأَلْتُ
سَلِيمَانَ الَّذِي كَانَ جَالِسًا فِي الْمَقْعَدِ الْمَوَاجِهِ لِي أَمَامَ وَكِيلِ النِّيَابَةِ: هَلْ مَعَكَ
قَلَمٌ أُرِيدُ أَنْ أَكْتُبَ طَلِبًا لِسَعَادَةِ وَكِيلِ النِّيَابَةِ، فَقَالَ لِي سَلِيمَانُ: لَا لَيْسَ مَعِيَ،
فَأَنْكَفَأْتُ بِجَسَدِي عَلَى مَكْتَبِ وَكِيلِ النِّيَابَةِ بِفُظَاظَةٍ رِيفِيَّةٍ مُتَحَجِّجًا بِرَغْبَتِي
فِي اخْتِذِ قَلَمٍ مِنْ أَمَامِهِ، فَانْتَبَهَ وَكِيلُ النِّيَابَةِ وَقَالَ مُتَعَجِّبًا: (فِيهِ إِيهِ يَا أَسْتَازَا!
بَتَعْمَلُ إِيهِ؟)

قُلْتُ لَهُ وَأَنَا أَنْظُرُ بِإِمْعَانٍ فِي الْوَرَقَةِ الَّتِي كَانَ يَقْرَأُ فِيهَا: (قَلَمُ يَا قَنْدِيلُ بَكَ،
أُرِيدُ قَلَمًا وَلَا مُوَاخَذَةً)

رَدَّ وَكِيلُ النِّيَابَةِ بِحُسْمٍ وَقَدْ زَادَ عَجَبُهُ: (سَتُخْدَمُ قَلَمَكَ يَا أَسْتَازَا).
اعْتَدَلْتُ فِي جِلْسَتِي بَعْدَ أَنْ قَرَأْتُ الْعِبَارَةَ الْآتِيَةَ «الْمَذْكُورُ مِنَ الْعُنَاصِرِ
الْمُتَعَاوِنَةِ مَعَ الْجِهَازِ.....».

قَالَ وَكِيلُ النِّيَابَةِ: مَا هِيَ طَلِبَاتُكَ يَا أَسْتَازَا؟
- الْإِفْرَاجُ عَنِ الْمُتَّهَمِ بِالضَّمَانِ الَّذِي تَرَاهُ النِّيَابَةُ.
هَبْ وَكِيلُ النِّيَابَةِ وَاقِفًا وَهُوَ يَقُولُ: (لِحِظَاتٍ وَسَاقِي لَكُمْ، أَنْتَظِرْنِي
يَا أَسْتَازَا)

حَمَلَ وَكِيلُ النِّيَابَةِ الْوَرَقَةَ وَخَرَجَ بِهَا مِنْ حُجْرَةِ التَّحْقِيقِ فَخَرَجَتْ وَرَاءَهُ
لَأَرْقُبَ مَا الَّذِي سَيَفْعَلُهُ فَوَجَدْتُهُ قَدْ تَوَجَّهَ لِمَكْتَبِ الْمَحَامِي الْعَامِّ لِنِّيَابَاتِ أَمْنِ

الدولة، عدت إلى الحجرة وأبتسمت في وجه سليمان وأنا أقول له: (إفراج إن شاء الله يا سليمان).

سليمان: (تفتكر؟)

أكدت له: (دلوقت هاتشوف)

وصدر القرار، كان سليمان هو الوحيد الذي تم الإفراج عنه.

توقع عاطف عواد بعد أن تم الإفراج عن سليمان أن ينقطع عنا ويقاطع أي إخواني، فكفاه خمسة عشر يوماً في طرة، إلا أنني قلت لعاطف: ستجد العكس سيقرب صديقك هذا من الإخوان بشكل أكبر مما كان وسيكون مدافعاً عنهم متحمساً لهم بشكل مبالغ فيه، وبعد أسبوعين عقد إخوان منطقة شرق القاهرة إفطاراً في أحد فنادق مصر الجديدة وكان سليمان أحد المدعوين، والغريب أن «الرائد إسلام» مسئول أمن الدولة في منطقة شرق القاهرة كان مدعواً هو كذلك في هذا الإفطار، ومن بعدها ظل سليمان يتجسس عليّ وأنا أتصنع التغفيل:

ليس الغبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي

تداعت قصة سليمان على ذاكرتي وأنا أنتظر دوري في الخروج من المحكمة، فقد كنا نخرج في «ميكرو باصات» على دفعات.

بعد أن خرجنا من مبنى المحكمة جلست مع أحمد ربيع في السيارة لمدة ساعة نتداول فيما حدث بالجلسة، قلت له وأنا أختبر فراسته: أظن المسألة واضحة.

ضحك بخيبة أمل: (للأسف آه).

استرسلت قائلاً: هل يعقل أن يكون عاطف الحسيني بجلالة قدر أهله لا يعرف من هو عمرو عبد الإله البليسي، عمرو العضو البارز بقسم المهنيين، عمرو الذي كتب توكيلاً لحزب الوسط ثم سحبه!!
قال أحمد وهو يتسهم ابتسامة ساخرة: (أزيدك من الشعر بيت، عمرو الذي استدعاه عاطف الحسيني أكثر من مرة للتحقيق معه في أنشطة قسم النقايبين!!

قلت: إذن هو من قام بالإبلاغ.
أحمد ربيع: قد لا يكون وحده، العصافير تغرد في سماء الإخوان.
رددت قائلاً: هل تشك في آخرين؟

أحمد ربيع: هل تعرف أن الأخ إسماعيل بكير كان يعرف خبر اللقاء وكان من المفترض أن يذهب مع مختار نوح وخالد بدوي بسيارته إلا أنه اعتذر في اللحظة الأخيرة مما جعلهما يستعينان بعم محمود سائق التاكسي المسكين الذي قبضت عليه مباحث أمن الدولة لأيام؟!
أنا: ولكن هذا ليس دليلاً على شيء.

أحمد ربيع: إسماعيل بكير جاسوس، هذا أمر لا شك فيه، كلنا يعرف ذلك، وعندك الأخ عبد الموجود، هل تعرف أنه تم تجنيده منذ عامين ولتغطية عماله للأمن قبضوا عليه وحبسوه خمسة عشر يوماً؟

أنا: أعرف، وقد استخدموا هذه الطريقة كثيراً (سألت الدكتور محمد

حبيب مؤخرًا هل كنتم تعرفون أن عبدالموجود عميلٌ لأمن الدولة؟ قال نعم كنا نعرف ذلك ولكن بعض إخوانك كانوا يستفيدون من عمالته هذه لأنه كان يقضي لهم مصالحهم ويفاوض الأمن ويقلل من حجم الخسائر بخصوص الحملات الأمنية، أي أنه كان يفيدهم فكان من الطبيعي أن يركنوا إليه حتى أصبح مركز قوة كبيرًا في الجماعة، بل في الدولة كلها بعد الثورة، لدرجة أنه جعل الإخوان يسندون لأحد أقاربه مركزًا مرموقًا في الدولة.

أكملت وأنا أبدي لأحمد موافقتي على ما قال: يا عم أحمد، أنا أكاد أعرف كل الجواسيس، سيماهم على وجوههم من أثر التجسس، وجوههم كريهة سمجة.

أحمد ربيع: نعم أنا معك، لكن الاحتياط واجب، وخذ بالك، أنت تعرف أن بعض أعضاء الإخوان كانوا ضباط مباحث سابقين وهم على صلة قوية بالأمن ويقدمون لقيادات الجماعة خدمات كثيرة من خلال علاقتهم بالقيادات الأمنية في مصر.

أنا: اعقلها وتوكل.

ضحك أحمد ربيع قائلاً: هل ستفعل كحسني مبارك؟ مبارك قال مرة في خطبة له «اعقلها وتوكل» وهو يشير إلى رأسه، وكأنه يظن أن «اعقلها» من إعمال العقل.

بأدله الضحك وأنا أقول: إذن اربطها وتوكل.



بعد أن انتهت جلسات المحكمة العسكرية وقبل أن تصدر الأحكام
وأثناء زيارتي للأخ مختار نوح في محبسه تقابلت مع الدكتور محمد بديع إذ كان
يجلس في مكان الزيارة ومعه بعض أهله، فسلمت عليه وأبلغته سلام الجميع
فهمس في أذني قائلاً: اذهب للمحكمة العسكرية واطمئن على الأحكام.

تعجبت من طلبه: وكيف ذلك وموعد الأحكام لم يحن بعد!!.

اذهب واسأل «والي يسأل ما يتوهش» يا أخ ثروت... ثم تركني
وانصرف لأهله.

لم آخذ طلب الدكتور بديع مأخذ الجد إلا أنني بعد أيام ذهبت للمحكمة
العسكرية بالحى العاشر بمدينة نصر أتلّس الأخبار وأتذرع بطلب «فتح
باب مرافعة» زعمت أنني أرغب في تقديمه، قابلت سكرتير الجلسة فوجدت
ملف الدعوى بكامله أمامه، وحين تعجبت وقلت له: الدعوى محجوزة
للحكم والمفروض الملف عند القضاة فماذا يفعل عندك؟

قال وكأن الأمر لا يعنيه: وهل تظن أن المحكمة ستصدر الحكم وفقاً
للملف؟! أنت رجل طيب.

طيب طيب، معي طلب فتح باب مرافعة أرغب في تقديمه.

قدمه كما تحب، ولكن... انتظر.. العميد حسنين الذي في مكتب المدعي
العسكري قال لي من قبل إنه يريدك، فمن الأحسن أن تقدم له طلبك هذا.

أشرت إلى صدري وأنا أقول: يريدني أنا، أنا!! هل قال لك ذلك؟! من
هو العميد حسنين هذا؟

ألا تعرفه؟

لا.. إطلاقاً.

ما على الرسول إلا البلاغ، عموماً هو في مكتبه بالدور الخامس، تستطيع أن تزوره الآن وتقدم له طلبك، تعال معي وأنا أوصلك لمكتبه.

كان العميد حسنين يجلس وحده بمكتبه وحين دخلت عليه كان يقرأ إحدى الصحف اليومية ويمسك سبحة في يده ليست كباقي المسابح التي نمسكها ولكنها سبحة كبيرة بعدد، فوجئت به وهو يرحب بي باسمي ولم أكن قد رأيته من قبل.

(أهلاً بك يا أستاذ ثروت، شرفتنا، اتفضل أقعد.

جلست على الكرسي المواجه لمكتبه وأنا أقول: أهلاً وسهلاً يا فندم، هل تسمح لي بأن أقدم طلب فتح باب مرافعة في قضية النقابيين وآمل أن يعرض على الهيئة الموقرة قبل جلسة الحكم؟

آه، طبعاً، هات الطلب.

تناول العميد حسنين الطلب ثم قام بالتأشير عليه وأعطاه لسكرتير الجلسة وكلفه بتقديمه لرئيس المحكمة ثم أمره بالانصراف، وعندما هممت بالانصراف أنا كذلك شاكرًا إذا بالعميد يلح عليّ إلحاحاً شديداً للجلوس معه بعض الوقت ريثما يطلب لي فنجان القهوة المضبوط، فجلست وأنا أستحي من كرم الرجل، وخطر على بالي أنهم يجلسون في النيابة العسكرية لا يفعلون شيئاً، وأن الرجل أراد أن يقطع وقت فراغه بالحديث معي، أخذ

الرجل يهز رأسه هزاً خفيفاً وهو يجري بأصابعه على حبات المسبحة ويتمم بذكر الله ثم قال لي وهو يضع على وجهه ابتسامة التقوى: أظن حسن البناء كان صوفيًا؟

- جاريته في الكلام: نعم كان في طريقة تسمى بالطريقة الحصافية.

- لماذا انحرف حسن البناء عن طريقه الصحيح؟

- أي طريق؟!.

طريق الإيمان الصحيح، أليس الله ربّ قلوب، هو الذي يطّلع على أفئدتنا؟ ألا يقول الله في كتابه الكريم: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُم جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾؟

- نعم، ولكن ليس معنى هذا أن نتوقف عن دعوة الناس، فالرسول ﷺ يقول: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً».

- نعم هذا هو بلاغ العلم، ويجب أن يقوم به من نال قسطاً من العلم ولو بمقدار آية، ولكن القلوب يا أستاذ لها ربها ولا يستطيع أحد أن يتسلط عليها، أدخلوا على الناس بالحب، قاتلوهم بالمحبة، أذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم، ولكن سعيكم للحكم لا يترك مكاناً في قلوبكم للحب.

- هو حضرتك في طريقة صوفية؟

(نعم، ربنا يهديكم، أعرف أنكم تحرّمون الصلاة في مساجد أولياء الله وآل البيت.

- لا أبداً، أنا لا أحرّم هذا، بل أذهب كثيراً لهذه المساجد مصلياً وزائراً، ولكن يوجد أخوة يحرمون، فلسنا شيئاً واحداً في هذا الأمر.

ثُمَّ انْتَابَتْنِي جُرْأَةٌ فَسَأَلَتْهُ: هَلْ لَا تَوْجَدُ - سيادتكَ - أَخْبَارٌ عَنْ حُكْمِ
قَضِيَةِ النِّقَابِيِّينَ؟ أَلَا تَوْجَدُ إِشَارَاتٌ أَسْتَطِيعُ أَنْ أُبَلِّغَ بِهَا رِيقِي؟
هَزَّ الرَّجُلُ رَأْسَهُ عَلَامَةَ النَّفْيِ وَهُوَ يَقُولُ: لَا وَاللَّهِ لَا تَوْجَدُ أَخْبَارًا، رَبَّنَا
سَيُجْرِي الْخَيْرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

- هَلْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ لَكَ شَيْئًا؟

- تفضل.

- حَضَرْتُكَ رَجُلٌ طَيِّبٌ جِدًّا وَشَخْصِيَّةٌ جَدِيدَةٌ بِالاحْتِرَامِ، وَيَشْهَدُ اللَّهُ
أَنِّي أَحْبَبْتُكَ حِينَ رَأَيْتُكَ.

- الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مَجْنُونَةٌ يَا أَسْتَاذَ ثُرُوتٍ، خُذْ هَذَا الشَّرِيطَ هَدِيَّةً مِنِّي، فِيهِ
بَعْضُ تَوَاشِيحِ الشَّيْخِ يَاسِينَ التَّهَامِيِّ، هَلْ سَمِعْتَهُ مِنْ قَبْلُ؟
- نَعَمْ سَمِعْتُهُ مَرَّةً.

- سَتَسْتَمِعُ بِهَذِهِ التَّوَاشِيحِ، فَالشَّيْخُ يَنْشُدُ فِيهَا لِسَيِّدِي عُمَرَ بْنِ الْفَارُضِ،
وَفِي الشَّرِيطِ قَصِيدَةٌ رَائِعَةٌ هِيَ «حَقُّ هَوَاكَ» إِسْمَعُهَا وَأَنْتَ وَحْدَكَ، فَهَذِهِ
قَصِيدَةٌ تَحِبُّ الْخُلُوةَ.

تَبَادَلْنَا أَرْقَامَ أَهْوَاتِفٍ، وَظَلَّتِ الصِّلَةُ بَيْنِي وَالْعَمِيدِ حَسَنِينَ قَائِمَةً لِفَرَاتٍ
طَوِيلَةٍ حَتَّى بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنَ الْخِدْمَةِ، فَقَدْ سَاعَدْتُهُ فِي الْقَيْدِ فِي نِقَابَةِ الْمُحَامِينِ،
وَذَهَبْتُ مَعَهُ مَرَّةً لَجُلُوسَةِ ذِكْرِ مَعَ بَعْضِ أَصْحَابِهِ فِي الطَّرِيقَةِ، وَكُنْتُ بَيْنَ الْحَيْنِ
وَالْآخِرِ أَلْجَأُ إِلَيْهِ بِحَسَبِهِ أَصْبَحَ مُحَامِيًّا، فَيُسَاعِدُنِي فِي إِنْهَاءِ بَعْضِ الْقَضَايَا

المتعلقة بموكليْن متهمين في قضايا «التهرب من التجنيد»، وكنتُ أُسندُ إليه في أحيانٍ أخرى الحضورَ والمرافعةَ في قضايا عسكرية، والحقُّ أنه كان يبلي فيها بلاءً حسنًا، وفي كلِّ مرةٍ التقيته فيها كنتُ أفتحُ حوارًا حولَ الطرقِ الصوفيةِ فأزادُ معرفةً بدُروها ورِجالها، وذاتَ يومٍ أصبحَ العميدُ حسنين هو إحدى أكبرِ المفاجآتِ في حياتي.



يسألني صديقي دائمًا: ما الذي كسبته من محاولاتك التي بذلتها كي تصلَ إلى الحقيقة؟ أظنُّكَ خسرتَ كثيرًا. نعم يا صديقي، خسرتُ كثيرًا، كي أكسبَ نفسي. أعودُ إلى أوراقِي التي دَوَّنتُ فيها مذكراتي كي آخذكم خطوةً خطوةً نحوَ كشفِ المستور، فالقصةُ لم تبدأ بعدُ، والحكايةُ ما زالتُ في قلبِ الحاكِي، تَضَعُ نفسها على الأوراقِ على مهلٍ وتؤدِّدُ، وهأنذا أقرأُ قصَّةَ إيكاروس الذي رامَ الوصولَ إلى الحقيقةِ فأخذَ ينشُدُ أهازيجَه مُترنِّمًا:

مَنْ رامَ نَبْعَ النورِ حاكٍ نَسِجَه
حَبَلًا إِلَى آفاقِهِ ثُمَّ ارْتَقَى
فَتَسَلَّقُوا صَوْبَ السَّمَاءِ وَشَمْسِهَا
فَلَرُبَّ طِينٍ قَدْ سَمَا فَتَسَلَّقَا

ظنَّي أن كلَّ مَنْ يُحاولُ الوصولَ إلى الحقيقةِ هو إيكاروس الجديدُ، فخلفَ كلَّ تجربةٍ إنسانيةٍ ثريةٍ إيكاروسُ الذي لَنْ يموتَ ما بقيتِ الحياةُ.



الجماعة محضن كالأُمِّ، ولكنها يجب أن تتصرف كأُمِّ راشدة، الأُمُّ الطيبة صاحبة الأُمومة الخالصة لا تحرم الوطن من أبنائها، ولا تسيطر على قراراتهم، الإخوان أحوج ما يكونون إلى الوطن، يحتاجون إلى الوقوف على أرضية الوطن لا على أرضية الجماعة، هم في أشد الحاجة لحضن الوطن لا حضن الجماعة، فإذا تنكبوا سبيل الوطنية فيجب أن نأخذ على أيديهم ليعودوا للصَّفِّ الوطني. هكذا حدثتني رُوحِي، وهكذا تحدثتُ أنا مع محمد منيب، من محمد منيب؟ إذن اسمعوا قصته وقصتي، تلك القصة التي أَمَاطَتِ اللَّثَامَ عن جزءٍ من أسرار جماعة الإخوان المخفية، أو قل أَمَاطَتِ اللَّثَامَ في المقام الأول عن نفسية من يعيش عمره أسيراً «تحت التوقيف» في جماعة الإخوان، أو بالأحرى في جماعة سرية لا تعرف كيف تمارس الاختلاف في الرأي بل وتعتبره ذنباً كبيراً؛ الجماعة السرية هي جماعة «إلغاء العقول».

محمد منيب المحامي، نقابي شهير، شغل - بعد هذه القصة - عضوية مجلس نقابة المحامين متحالفًا مع جماعة الإخوان المسلمين، ثم شغل عضوية مجلس الشعب متحالفًا أيضًا مع جماعة الإخوان، انخرط منيب في الأنشطة السياسية الناصرية وكان متهمًا في إحدى القضايا التي حاکمت الناصريين في أوائل الثمانينات، وبعد خروجه من المعتقل ساهم في تأسيس حزب الكرامة وأصبح أحد رموزه، وقد ربطتني به صلة صداقة واحترام متبادل، فهو رجل مثقف دمث الخلق، يجيد عرض فكرته ويقا تل من أجلها، ولعلكم ستعجبون حين أقول لكم إن محمد منيب كان هو مفتاح البداية.

بعد فترة المخاض التي انتهت بخروجه من الجماعة عام 2002 م والتي

اعتبرتها شهادة ميلادٍ جديدةٍ لي، حرصتُ على مقابلةٍ معظم رموز الحركة الوطنية في مصر، والحديث معهم وإنصات السمع لهم، فالذي أصيب بالصمم الجزئي بحيث أصبح لا يسمع إلا من اتجاهٍ واحدٍ، يتوق شوقاً لكل الأصوات من كل الاتجاهات إذا ما انفتحت أذناه على الدنيا، وحين جمعتني الأقدار بالأستاذ محمد منيب دار بيننا حوارٌ طويلٌ عن التجربة الناصرية والتجربة الإخوانية.

قلتُ لمنيب: منذ فترةٍ ليست بالقصيرة وأنا أعيش حالة مراجعةٍ فكريةٍ عن الإخوان والحركة الإسلامية وأولوياتها وفهمها، وأظن أنني وصلت من خلال هذه المراجعات والقراءات المتنوعة إلى مرحلةٍ متقدمةٍ، أجدني الآن أقفُ على أرضٍ غير أرض الإخوان.

ردَّ منيبٌ مندهشاً: مرحى يا صديقي، نحن كذلك في الكرامة، فعلنا مثلاً تفعل ولعلك تابعت تصريحات حمدين صباحي عن رؤيته للتجربة الناصرية ونقده لما يتعلق بسليبات الفترة الناصرية فيما يتعلق بالحرريات.

قلت: أنا جلستُ مع ياسر فتحي المحامي كثيراً في الفترات الماضية، أنت تعرفه طبعاً، وهو صديقٌ عزيزٌ ووالده من الأصدقاء المحبين لنفسه، وقد دارت بيننا حواراتٌ مفتوحةٌ، كانت عبارةً عن عصف ذهنيٍّ، ياسر من القيادات الناصرية كما تعرف إلا أن تفكيره أقرب إلى الليبرالية، وقد طرحنا معاً بعض الأسئلة الهامة، منها مثلاً أنني أنتمي إلى التيار الإسلامي وعلى وجه التحديد الإخوان المسلمين، المفروض أنني داعيةٌ أدعو الناس لمنهجني،

ثم قرّرتُ أن أخوضَ الانتخابات، فقلتُ للناس: انتخبوني لأنَّ الإسلام هو الحلُّ، هه، هل أنتَ معي يا محمد؟

محمد منيب: معك طبعًا.

قلتُ مُسْتَطَرِدًّا: وهناك آخرُ رشحَ نفسه وقال للناس: انتخبوني لأنني أملكُ الخبراتِ والإمكاناتِ. مُعْظَمُ الناسِ هنا بطبيعتهم المتديّنة سيتخبون صاحبَ شعار: «الإسلام هو الحلُّ» لأنّه سيكونُ في ذهنهم كأنّه هو الإسلام، ليستَ هذه هي المشكلة، هذا أمرٌ بسيطٌ، ولكن ما هو شعورُ مَنْ سيتخبُ صاحبَ شعار «الإسلام هو الحلُّ» ناحية مَنْ رشحَ نفسه ضدَّ صاحبِ هذا الشعار.

محمد منيب: المعنى واضحٌ طبعًا.

أكملتُ: الطَّبيعيُّ أن يتسلَّلَ لضميرِ الناخبِ مشاعرُ سلبيةٍ ضدَّ مَنْ رشحَ نفسه ضدَّ: «الإسلام هو الحلُّ»، سيعتبره قطعًا ضدَّ الإسلام، أليس كذلك؟! خذُ عندك أمرًا آخرًا، أنا أدعو الناسَ لمنهجِي، وأقولُ لهم: كونوا معي فأنا وَسْطِيٌّ معتدِلٌ، ثم بعد ذلك إذا جاءتِ الانتخاباتُ أُستديرُ بوجهي الناحيةَ الأخرى وأقولُ لهم: أنا صاحبُ الحقِّ وأنتم لستم على شيءٍ. الانتخاباتُ تُورثُ العداوةَ والبغضاءَ، وتشحنُ النفوسَ بالكراهية والتَّحدي، فكيف أدعوُ الناسَ ثم أقفُ مُعَادِيًّا لهم أو لبعضهم؟! الانتخاباتُ بموروثاتها وتفرعاتها ضدَّ طبيعةِ الدعوةِ والعملِ الدعويِّ، فإمّا أن أكونَ داعيةً وإمّا أن أكونَ مُنافِسًا للناسِ، فالداعيةُ لا ينافسُ أحدًا ولكنّه يضمُّهم إلى قلبه، وقد فتحتُ لنا هذه الحواراتِ يا أستاذ محمد آفاقًا جديدةً في المعرفة وبسطتُ لي طريقةً في

الاستقراء، وقد انكبت على القراءة بعد ذلك في كافة مجالات المعرفة وأضفت لمشروعي الفكري أشياء كثيرة، وأنا الآن أكتب بعض أفكار عن الأفكار التي اختلفت معها وبسببها مع الإخوان، والحقيقة أنني أدونها لنفسي.

منيب: ولماذا لا تنشرها؟ أنا أيضاً شرعت في كتابة أفكار عن التجربة الناصرية ما لها وما عليها، فهناك العديد من الأخطاء التي شابت التجربة الناصرية، وأظن أنه من المفيد للوطن أن يكتب كل منا تجربته ورؤيته لفصيله ما له وما عليه، أظنها ستكون كتابات ذات فائدة كبرى.

قلت موافقاً: والله شيء طيب، أنا مستعد للنشر، فمثل هذه الدراسات النقدية يجب أن تخرج للناس، ويكون من الأفضل أن ننشر معاً، ليتك تكتب مقالات عن نقد التجربة الناصرية، وأظن أن هناك الكثير من الصحف التي سترحب بالنشر لنا.

منيب: سأكتب، تقترح في أي مكان ننشر؟

قلت: أنا متواصل مع كثير من الصحف، وأستطيع الاتفاق مع جريدة «صوت الأمة» على هذا.

منيب: فليكن، اكتب ثم سأكتب أنا بعدك.

عكفت عدة أيام على الكتابة حتى أخرجت ثلاث مقالات، وضعت فيها خلاصة أفكاري وقتها، ووقتها كنت ما زلت قريباً من أرض الإخوان، لم أبتعد عنهم كثيراً؛ لذلك كانت المقالات عبارة عن «خواطر واحد من الإخوان الذين ينصحون الجماعة» وقد دارت أفكار المقالات حول أن الدعوة ينبغي

أن تكون هي أولى أولويات الجماعة، ثم رصدت بعض الأخطاء النفسية التي تسَلَّتْ لأفراد الجماعة لا بتعادنا عن «منهج الدعوة» وكان من هذه الأخطاء التي اعتبرتها أمراضاً، مرض الاستعلاء على الآخرين والتباهي بالكثرة وذهم كل من هو خارج الجماعة وكأنهم ليسوا مسلمين، والنظر للمسيحيين كأنهم أنصاف مواطنين، وفوق هذا فإنني شددت النكير على النظام الخاص وفكره الذي استشرى في الجماعة، وبعد أن كتبت وأفرغت خواطري ذهبت بالمقالات لصديقين إخوانيين من أحبائي المقربين من منطقة الزيتون، الأول هو أحد الإخوان الكبار واسمه «محمد البدر اوي» وهو أخ له تاريخ كبير في الجماعة إلا أنه كان يحمل في نفسه العديد من الانتقادات لتنظيم الإخوان في عهده الجديد بعد أن وقع في قبضة القطبيين، والأخ الثاني هو أحد شيوخ الإخوان من أصحاب التأثير الكبير على عامة الناس واسمه الشيخ «جابر حمدي» وكان أيضاً كثير النقد للجماعة ولكنه لم يصدع بنقده أمام الناس إذ كان يكتفي بالحديث معنا عن الهوة السحيقة التي وقعت فيها الجماعة، وأزعم أنني تعلمت الكثير من هذين الأخين وما زلت مديناً بالفضل لهما وإن كانت الأيام والأحداث قد باعدت بيني وبين الشيخ جابر حمدي، كان الأخان ولا يزالان من أصحاب الخطوة في نفسي، ولعلني أفسح لبعض الأسرار الشخصية أن تتحدث عن أحد هذين الأخين وهو الشيخ جابر حيث كتب الله لي الحج عام 2000 م وكنت في رحلة الحج هذه مع فوج لا أعرف فيه أي حاج، وفي منى دعوت الله من قلبي صادقاً أن يجمعني لحظة الدعاء بشخص أحبه، ثقت أنك في الحج مستجاب الدعوة، فقد كنت أظن أنني أطيرو ولا أمشي

ألفيه

على قدمين من فرط الحالة الوجدانية النورانية التي احتوتني، وسبحان الله،
لم أكمل الدعاء حتى رأيت أمامي الشيخ جابر، وكانت مفاجأة لي إذ لم أكن
أعرف أنه يحج هذا العام!!

شغلتكم كثيراً بالكلام عن بعض جواهر أسراري، ولكن حديثي هنا له
مغزى، وحكايتي لها دلالة، فحينما عرضت على الصديقين صاحبي الفضل
عليّ المقالات التي كتبتها عن خواطري النقدية للإخوان، رحب بها كثيراً
وناقشاني في بعض معانيها، وأضاف لي الشيخ جابر بعض أفكارها، وفي
نفس الجلسة عرض الأخ محمد البدر أوي أن يفتح لي مجالاً في قناة الجزيرة
- وقتها كانت الوحيدة - للمشاركة في برنامج عن الإخوان ورأي بعض
المنفصلين، والمفصولين فيها وفي منهجها الفكري الأخير.

والآن بعد أن مرّ على هذا اللقاء عشر سنوات كوامل، تسكن قلبي
الطمأنينة وأنا أتذكر تأثير كلامهما الطيب على نفسي وعقلي: نحن لا نبتغي
النقد للنقد، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت. كان في قلبي قبل هذا اللقاء
بعض الشذرات التي تجرح ضميري، كيف أنتقدهم؟! أليست هذه خيانة
للعيش والملح؟! من أجل «عضم التربة» الذي جمعنا لا تجعل كلماتك تفرقنا.
بلا جدال كنت أشعر بالخرج من أنني سأعرض للجماعة بالنقد العلني،
ولكن الحوار بيننا فتح لي مجالات لم أكن قد تنبّهت لها من قبل، قلنا ونحن
نحدث بعضاً كأن كل واحد منا يحدث نفسه التي بين جنبيه: جماعة الإخوان
تقدم نفسها للجماهير بحسب أنها تحمل فوق أكتافها الحل الإسلامي كما أنها
تطرح نفسها للكافة باعتبار أن أفكارها بل كيانه كلاً هو طريق الخلاص

للأمة، وفوق ذلك فإنها تُقدِّم نفسها في النقابات والأندية واتحادات الطلبة والبرلمان باعتبار أنها «رأعية الحل الإسلامي»، لذلك إذا ما قال الإخوان: إننا نحرص ونصمم ونرغب بكافة كلمات وحروف التوكيد والجزم عندما نصل إلى الحكم أن نقيم العدالة في مجتمعاتنا.. أليس من حقنا حينئذ أن ننظر إليهم وإلى حالهم لنرى هل هم يؤمنون بالعدالة فعلاً وهل يُقيمونها بين ظهرانيهم؟! ففاقد الشيء لا يعطيه.. ومن لا يملك لا يُنفق كما يقولون... فإذا ما وجدنا منهم اعوجاجاً في إقامة العدل وهم طلابه أليس من حقنا أن ننبههم علناً وعلى رؤوس الأشهاد إلى هذا الاعوجاج ونطالبهم بتطبيق ما يجاهدون من أجله؟!

وإذا قالوا: عندما سنحكم سنحترم الرأي الآخر وسيُتسع صدرنا للمخالفين... أليس من حقنا أن نشير إليهم بالعوار الذي أصاب نسيجهم الحركي بصدد عدم احترام الرأي الآخر وضيق صدرهم بالمخالفين، ونرفع أصواتنا حتى **تصلك** الأذان لكي ننبههم إلى خطورة أن يكون «صدر التنظيم» ضيقاً حرجاً تجاه الرأي المخالف؟!

من حقنا أن نعرف... ومن حقنا أن نراقب الإخوان سواء كنا منهم أو لم نكن فإذا ما وجدنا نقيصة أو اعوجاجاً أو ازدواجية قام حقنا في التنبيه.

مضى زمن التعقيم وما دام للإخوان فرصة في يوم من الأيام في الحكم فإن علينا واجب المراقبة والنقد من الآن، بل إذا ما وجدنا حال الإخوان في باطنهم يختلف عن ظاهرهم، ووجدنا خطابهم المعلن يختلف عن ممارستهم

الحقيقية فلنا الحق آنذاك في رفضهم، وفي تنبيه الناس لخطورة مسلكهم، ولتعلم يا صديقي - هكذا قال لي محمد البدر اوي - أن رفض الإخوان ليس معناه بأي حال من الأحوال رفض الإسلام، فإننا نقبل الإسلام طبعاً وقطعاً وبقيناً ولكن قبول الإخوان مسألة فيها نظر إذا كان ظاهرهم غير باطنهم.

أكمل الشيخ جابر حمدي: لذلك من هو يا صديقي الذي يستطيع مراقبة سلوك الإخوان الحركي ومعرفة مدى تمازجهم مع ما يدعوننا إليه؟ إنه أنا وأنت وغيرنا ممن انضم إلى الجماعة أو من كان فيها أو ما زال منها أو من لم يدخلها في تاريخه... ولا تظن أن هذا الواجب مشترط فقهياً لمصلحة الجماعة أي جماعة الإخوان ولكنه يا صديقي مشترط فقهياً لمصلحة الأمة... فأنا أراقب سلوك الإخوان وأنتقدهم حتى ألزمهم من ناحية إلى العودة إلى جادة الصواب... وحتى أخبر الأمة لتكون بعوم أفرادها أكبر رقيب على الجماعة أو على غيرها من الجماعات.

ومن هذا الباب قام حقنا في انتقاد الحزب الحاكم وفي مواجهته بأخطائه ومن هذا الباب أيضاً قام حقنا في انتقاد حزب الوفد وكذلك الحزب الناصري وحزب التجمع وغيرها من الأحزاب والكيانات السياسية الأخرى التي تقدم نفسها بهدف الوصول إلى الحكم، لا أفضلية لنا على غيرنا من الأحزاب والجماعات في هذا الشأن.

يَمَّمْتُ بوجهي ناحية الأخ محمد حسنين البدر اوي وأنا أستزيده، كنت أريد أن أسمع تأصيله لحق النقد: كلام أخي الشيخ جابر جيد، جيد جداً،

وأنا أحييه على هذا الفكر الرائع، ولكن البعض يقول إن النصيحة في العلن، فضيحة فما رأيك؟ ألا أكون فضحت الجماعة عندما أنتقدهم علناً؟

قال الأخ البدراوي وهو ينطلق في الكلمات وكأنني فتحت فوهة مدفع سريع الطلقات: معظم أجيالنا نحن أبناء الحركة الإسلامية في عصرها الحديث - وأقول معظمنا حتى لا أقع في تعميم يسلب الموضوعية من قولي - نعيش على الأنظمة الحاكمة استبدادها ورفضها للرأي الآخر، ثم نقع في نفس ما نعيش به أنظمتنا المستبدة... وكون الحركة الإسلامية بعمومها تنشد الإسلام ديناً ودولة، عقيدة وشريعة... وتبغى رفع رايته، فإن هذا لا يعطيها قداسة ولا يعصمها من الخطأ... فإذا سكنتنا عن أخطائها خوفاً من نقد يصد المقبلين على الحل الإسلامي «فإننا نكون قد شاركنا في استمرار الخطأ، من أجل ذلك ولتنبيه الغافلين وتوسيع مدارك الجاهلين قال سيدنا عمر رضي الله عنه: «رحم الله امرءاً أهدى إلي عيوبي» لم يصل سيدنا عمر إلى لآلئ الحكمة تلك إلا بعد أن وعى حديث الرسول ﷺ: «الدين النصيحة». قلنا لمن يا رسول الله.. قال: «لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم». ولا يحد عنك أحد يا أخ ثروت فيقول لك إن النصيحة ينبغي أن تكون في السر لأن من تصدى لأمر المسلمين وأنشغل بحالهم وهمهم ينبغي وفقاً للقواعد الأصولية الصحيحة أن ننصحه في العلن.

استرسل الأخ البدراوي بحماسة لم تقطع: يتملكني العجب يا أخ ثروت ويا أخ جابر ممن يجهلون هذا الأمر أو يرفضونه، ففي غياب النقد العلني غياب للشفافية وقد يدفع هذا التعتيم إلى استمرار البعض خطأهم، النقد في السر

يكون في الخصوصيات كأن أنتقد أخي أو أنصح في أمور حياته الشخصية، أما إذا نصحن جماعة أو حكومة أو حزباً أو حركة تتصدى لمصالح الأمة فإننا ينبغي أن نصحهم علناً وعلى رؤوس الأشهاد، وما تقدم الغرب إلا بذلك، وما تأخرنا إلا عندما جهلنا هذا الحق، لذلك أصبح الحكام لدينا مقدسين مبرئين من الخطأ وأصبحت كلمة الحاكم أو الرئيس، أو الزعيم، أو أمير الجماعة حكمة، وإشارته عبقرية، وبما أن الحركة الإسلامية بعومها تقف على رأس هذه الأمة ناصحة لها تدعوها دعوة الحق فإنها ينبغي أن تضرب لنا المثل بحث أفرادها على النقد والترحيب بنقد الآخرين حتى ولو كان شديداً القسوة دون أن تعتبر هذا النقد سباً أو شتماً.

الأخوين

أدخلت كلمات الأخين جابر والبدر اوي على فؤادي سكينه فهدهدت شكوكي، تأصيلهما الفقهى للنقد العلني للجماعة سكن في ضميري وأراح فؤادي، قلت لهما قبل أن أنصرف: أنا لا أملك إلا كلمتي سأقولها، والأجر والثواب على الله.



كان صديقي الصحفي الكبير أسامة سلامة رئيس تحرير مجلة روز اليوسف حالياً قد قدمني للأستاذ عادل حمودة أثناء قضية النقابيين، والحق أن الأستاذ عادل حمودة رغم خصومته الفكرية للإخوان فإنه فتح صحيفة «صوت الأمة» للدفاع عن الدكتور محمد بديع ومختار نوح وإخوانهما المحبوسين، كنت أنا بطبيعة الحال مصدر كل الأخبار التي تم نشرها في الصحيفة دفاعاً

عن الإخوان، بل إنه في أحد الأعداد نشر الأستاذ حمودة رسالة من الإخوان المحبوسين موجهة للأستاذ رجائي عطية وجعلها العنوان الرئيسي للصفحة الأولى للجريدة، وكانت الرسالة مقصودة في ذاتها لكي يصل صوت المحبوسين للرأي العام، قال لي الأستاذ عادل: أنا اختلف مع الإخوان جداً ولكنني مع حقهم في الحرية.

عندما أخبرت الأستاذ حمودة بأن لدي سلسلة مقالات عن الإخوان وهي بمثابة دراسة نقدية لهم رحب بنشرها جميعاً، كانت افتتاحية المقالة الأولى مشكلة، إذ انتقدت فيها المستشار مأمون الهضيبي وقلت إنه قال في مناظرته بمعرض الكتاب في أوائل التسعينيات في مواجهة فرج فودة: «إن الإخوان يتعبدون لله بأعمال النظام الخاص قبل الثورة» وإن كلماته هذه كانت جارحة لمدينتي وسلميتي، أنتعبد لله بالاغتيالات والتفجيرات؟! أي إسلام هذا؟! وما الذي دعا المستشار الذي يحترم القانون إلى أن يقول قولاً لا يحترم القانون؟!!

نشرت المقالة في جريدة «صوت الأمة»، وكانت بمثابة مفاجأة لكثيرين، أذكر أن المقالة الأولى أثارت حالة من الجدل، ولو عدنا إلى هذه المقالات لوجدتني أستشرف فيها مستقبل الجماعة وأكتب أدواءها.

رَنَّ هاتفي المحمول مساء اليوم التالي لنشر المقال وكان الذي يهاتفني هو الصديق الصحفي عبد الحفيظ سعد الذي كان يعمل وقتها في «صوت الأمة».

قال لي عبد الحفيظ: المقال عامل ردود فعل كبيرة يا أبو يحيى، وهناك من أرسل لنا ردًا على مقالك.

استفسرت قائلًا: مَنْ الَّذِي أُرْسِلَ؟

عبد الحفيظ: الأستاذ محمد البدر اوي والشيخ جابر حمدي.

قلت: تقصد أنهما أرسلتا يؤيدان نقدي أو يختلفان مع بعضه؟

عبد الحفيظ: لا، يردان عليك، يقولان كلامًا سيئًا في حقك، سأحضر لك ردهما؛ لأن الأستاذ عادل يريد أن ترد أنت عليهما، ستصاب «بالإستبحس» والذهول يا صديقي عندما تقرأ ردهما.

لم يتلقَّ عبد الحفيظ ردًا مني، فقد كان الصمت حينئذٍ أبلغ من الكلام.

الفصل الرابع

مدينة النسيان

آه من هؤلاء الذين لا يرون إلا أنفسهم فلا يشعرون بآلام الآخرين، يصرون ذواتهم فيجزعون من همسة تمسهم فيبطشون بأحبابهم، آه منهم وهم يشعرون أنهم الشمس، وأن أحبابهم هم الكواكب التي ينبغي أن تدور في فلكهم، تحكي الأسطورة القديمة أنه كان هناك شاب اسمه نرسيس كان مفتوناً بنفسه، رأى هذا الشاب بحيرة صافية فلم ينتبه لجمالها، ولكن أسعده فقط أنه كان يرى وجهه من خلال صفحة ماء البحيرة الصافي التي كانت في جلاء المرأة، فكان يذهب للبحيرة كل يوم ليتأمل جمال وجهه، كان مفتوناً بصورته ذاهلاً عما حوله لدرجة أنه لم ينتبه لموضع قدميه فسقط في البحيرة وغرق، وفي المكان الذي سقط فيه نبتت زهرة سُميت نرسيس (نرجس) وعندما مرت الملائكة على البحيرة وجدتها تحولت إلى دموع، لم يدهشهم هذا فلابد أن البحيرة حزنّت كثيراً على نرسيس الجميل الذي كان يأتي إليها كل يوم، ولكن البحيرة قالت للملائكة إنها لم تلاحظ أبداً أن نرسيس جميل لأنها كانت دائماً مشغولة عندما ينحني على ضفافها بتأمل جمال صفحتها في عينيه.

لعلها آفة أصابت تنظيم الإخوان، ثم انتقلت لأفراد التنظيم، أظنكم تعرفونها، نعم هي بعينها ورسمها آفة «الشيفونية» والشوفيني هو الذي يرى أن قوميته أو جماعته وتنظيمه وحزبه هي «النقاء» المطلق والحق الذي لا شك فيه والجمال السرمدي، ولأنهم يرون هذا فإنهم يتعصبون لجماعتهم أو قوميتهم تعصباً مقيتاً غيبياً لا عقل فيه، ولأن التعصب هو الآخر آفة؛ فقد أصبح من باب اللزوم أن تتحول الشيفونية من مشاعر حب إلى مشاعر كراهية، قطعاً مشاعر كراهية، فلأنك ترى أن الحق معك وحدك، فغيرك هو الباطل، ولأنك ترى أنك وحدك الصواب فغيرك هو الخطأ، ولأنك ترى نفسك وحدك الجمال فغيرك هو القبح، الشوفيني باختصار هو من ينظر للعالم من خلال مرآة فلا يرى إلا نفسه وما عداه باطل، تماماً كما فعل نرسيس وفعلت البحيرة، فلا هو رآها ولكن رأى نفسه جميلاً بهياً على صفحتها، ولا هي رآته فقد رأت نفسها صافية نقية في جلاء عينيه، ولعلك من خلال أسطورة نرسيس تعرف كيف يفكر الإخوان، هم لا يفكرون إلا في أنفسهم وأولوياتهم ومصالحهم فقط، كل العالم باطل إلا أنت يا «إخوان» ولأن هذه الطريقة تحكمت في طريقة التفكير الإخوانية لذلك انتقلت «نفسياً» إلى كثير من أفراد الإخوان، أنا لا أستطيع أن أقول هنا إنها انتقلت إلى كل الإخوان فالتعميم يفقد التحليل منطقيته، ولكنها أصبحت طريقة تفكير معظم الإخوان، فالشيفونية كما قلت آفة تتحكم في النفسيات والمشاعر، لذلك لا بد أن يكون لها إسقاطاتها، ولا بد «إنسانياً» أن تتسلل إلى النفوس برفق، خطوة خطوة، ويحك أيها الأخ الذي فقدت طريق الحب فأصبحت لا ترى

الناس، لا ترى مَنْ يُحِبُّونَكَ، ترى نَفْسَكَ فَقَطْ، ترى أَحِبَابَكَ لَا شَيْءَ، هُمْ
مَجْرَدُ أَدَوَاتٍ تُرْضِي بِهِمْ ذَاتَكَ.

وَقَعْتُ عَلَى كَلِمَاتِ الصُّحْفِيِّ عَبْدِ الحَفِيزِ سَعْدٍ وَقَعَ الصَّاعِقَةُ ثُمَّ سُرَّ عَانَ
مَا تَمَالَكْتُ نَفْسِي، هَلْ يَسْتَطِيعُ قَلْبِي أَنْ يَتَصَوَّرَ هَذَا؟! هَلْ مِنْ الْإِنْسَانِيَةِ أَنْ
يَقُومَ مَنْ جَلَسُوا مَعِي وَنَحْنُ نُنْفِكُرُ فِي شَرَعِيَةِ النِّقْدِ الْعَلَنِيِّ بِالرَّدِّ عَلَى الْأَفْكَارِ
الَّتِي يَتَّفِقُونَ مَعِي فِيهَا؟! جَنُونَ هَذَا، عَقْلِي يَسْتَدِيرُ رَغْمًا عَنْ أَنْفِي، أَأُضْحِكُ
سَاخِرًا؟ أَمْ أَبْكِي نَاقِمًا؟ حَدَّثْتَنِي نَفْسِي أَنَّ أُمْسِكَ وَرَقَةً وَقَلَمًا لِأَكْتُبَ، انْتَوَيْتُ
أَنْ أَكْتُبَ لِمُحَمَّدِ الْبَدْرَاوِيِّ، أَوْ لَجَابِرِ حَمْدِي خُطَابًا شَخْصِيًّا أَعَاتِبُهَا فِيهِ،
وَلَكِنِّي وَجَدْتَنِي لَا أَكْتُبُ بَلْ أَرْسُمُ!! رَسَمْتُ شَخْصًا بِلَحْيَةٍ طَوِيلَةٍ ثُمَّ
أَخَذْتُ أَطِيلُ لَحْيَتَهُ إِلَى أَنْ أَوْصَلْتُهَا لَصَدْرِهِ ثُمَّ رَسَمْتُ قَلْبَهُ خَارِجَ صَدْرِهِ
وَكَأَنِّي أَنْزَعْتُهُ مِنْ مَكَانِهِ، ثُمَّ قُمْتُ بِتَكْثِيفِ اللَّحْيَةِ حَتَّى جَعَلْتُهَا تَغْطِي عَلَى
الْقَلْبِ وَأَخَذْتُ أَمْلَأُ اللَّحْيَةَ سَوَادًا بِالْقَلَمِ الرِّصَاصِ فَأَخْتَفَى الْقَلْبُ خَلْفَ
اللَّحْيَةِ، وَبَعْدَ أَنْ اسْتَكْمَلْتُ الرَّسْمَ شَعُرْتُ بِرَاحَةٍ وَسَكِينَةٍ تَغْشَى قَلْبِي
فَطَوَيْتُ الْوَرَقَةَ وَوَضَعْتُهَا فِي قَلْبِ أَحَدِ كُتُبِي الْأَثِيرَةِ إِلَى نَفْسِي، وَمَا زِلْتُ
مُحْتَفِظًا بِهَذِهِ الرَّسْمَةِ حَتَّى الْآنَ.

وَمَعَ ذَلِكَ وَقَدْ لَا يَصْدَقُنِي بَعْضُهُمْ لَمْ أَنْقِمْ عَلَيْهِمَا وَلَكِنِّي التَّمَسْتُ لِهَما
الْعَذْرَ، لَيْسَ مِنَ السَّهْلِ عَلَى الْقُلُوبِ الَّتِي تُحِبُّ أَنْ تُكْرَهَ وَتَنْقِمَ وَتُبْغِضَ، وَقَدْ
أَحْبَبْتُ أَصْدِقَائِي فَلَا مَكَانَ فِي قَلْبِي إِلَّا لِلْحُبِّ، أَحْبَبْتُهُمْ حَتَّى وَهُمْ يُؤْذُونَ
مَشَاعِرِي وَيَقْسُونَ عَلَى قَلْبِي، وَلَكِنَّ الْحُبَّ وَإِنْ كَانَ يَرُوي الْقُلُوبَ فَإِنَّهُ
لَا يَنْفِي الْأَلَمَ.

لم أتحَدَّثْ من قَبْلُ عَنِ الشَّيْخِ جَابِرِ حَمْدِي وَمَنْزَلَتِهِ فِي قَلْبِي، وَأَظَنُّهُ يَجْهَلُ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ لِأَنَّهُ لَمْ يَنْظُرْ إِلَى قَلْبِي قَطُّ، يَنْتَمِي جَابِرٌ إِلَى نَوْعِيَةٍ مِنَ الدَّعَاةِ تُبَشِّرُ النَّاسَ وَلَا تُنْفِرُهُمْ، شَخْصِيَّتُهُ وَدَوْدُ تَأَلَّفُ النَّاسَ سَرِيعًا وَيَأْلَفُهَا النَّاسُ، وَحِينَ تَعَرَّفْتُ عَلَيْهِ أَصْبَحْتُ لَهُ مَكَانَةً كَبِيرَةً فِي قَلْبِي وَأَعْتَبَرْتُهُ أَخِي الَّذِي لَمْ تَلِدْهُ أُمِّي، وَقَدْ يَكُونُ الصَّدِيقُ أَحَبَّ إِلَى قَلْبِكَ مِنَ الْأَخِ الَّذِي يَرْتَبِطُ مَعَكَ بِصِلَةِ الدَّمِّ، كَمَا أَنَّنِي لَمْ أَتَحَدَّثْ مِنْ قَبْلُ عَنِ الْأَخِ مُحَمَّدِ الْبَدْرَاوِيِّ وَمَنْزَلَتِهِ الْعَالِيَةِ فِي فُؤَادِي، وَإِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَتَحَدَّثَ عَنِ الْبَدْرَاوِيِّ فَسَأَقُولُ إِنَّهُ الرَّجُلُ الَّذِي يَسْتَطِيعُ مِنْ فِرَاطِ قُوَّةِ شَكِيمَتِهِ وَاسْتِقَامَةِ أَفْكَارِهِ أَنْ يَعْقِدَ صَدَاقَةً مَعَ الشَّيْطَانِ فَلَا يَتَّبِعُ الشَّيْطَانُ وَلَا يَتَأَثَّرُ بِهِ، وَلَكِنَّ الشَّيْطَانُ سَيَتَّبِعُهُ، لَنْ يَتَّبِعَهُ الشَّيْطَانُ مُرْغَمًا وَلَكِنَّهُ سَيَتَّبِعُهُ مَحَبَّةً وَتَأَثُّرًا مِنْ قُدْرَتِهِ عَلَى شَرْحِ أَفْكَارِهِ، الْمَهْمُ أَنَّنِي أَحْبَبْتُ هَذَيْنِ الصَّدِيقَيْنِ وَجَعَلْتُهُمَا صَاحِبِي الْأُولَوِيَّةِ فِي مِشَاعِرِي، وَعَلَى قَدْرِ حُبِّكَ لِصَدِيقِكَ يَكُونُ مِقْدَارُ الْمَلِكِ، فَمَا بِأَلْكَ عِنْدَمَا تَكُونُ الضَّرْبَةُ الْمَوْجَعَةُ مِنْ صَدِيقَيْنِ هُمَا الْأَقْرَبُ إِلَى قَلْبِي! قَالَ لِي عَاطِفُ عَوَادٍ عِنْدَمَا أَخْبَرْتُهُ هَاتِفِيًّا بِمَا نَقَلَهُ لِي عَبْدُ الْحَفِيزِ سَعْدٌ تَعَجُّبًا مِنَ الْأَلْغَازِ الَّتِي نَعِجْزُ عَنْ فَهْمِهَا: النَّفْسُ الْبَشَرِيَّةُ مَلْغُزَةٌ وَسَنْظَلُ نَحَارُ فِي فَهْمِ النَّاسِ وَنَوَازِعِ تَفْكِيرِهِمْ. ثُمَّ اسْتَطْرَدَ: لَقَدْ قَدِّمْتُ لَهَا الْكَثِيرَ. فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّمَا قَدِّمَّا هُمَا لِي، يَكْفِي أَنَّنِي أَحْبَبْتُهُمَا، وَالْحُبُّ مَنَحَةٌ.

فَقَالَ عَاطِفُ: وَلَكِنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي مَنَحَكَ هَذِهِ الْمَنَحَةَ لَا هُمَا، فَالْقُلُوبُ بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ، لِذَلِكَ فَالْفَضْلُ لِلَّهِ.

قُلْتُ لَهُ: وَلَئِنَّ الْفَضْلَ لِلَّهِ فَإِنَّمَا كُنْتُ أَقْدِمُ لِنَفْسِي عِنْدَ اللَّهِ.

وفي ذات اليوم زارني صديقي الصَّحْفِيُّ عَبْدُ الحَفِيزِ سَعْدٌ وَأَعْطَانِي صُورَةً
مِنْ رَدِّ جَابِرِ حَمْدِي وَمُحَمَّدِ الْبَدْرَاوِيِّ عَلَى مَقَالِي الْأَوَّلِ، طَوَيْتُهُ وَلَمْ أَرْغَبْ فِي
قِرَاءَتِهِ أَمَامَهُ.

سَأَلَنِي: أَفَلَا تَقْرُؤُهُ؟

قُلْتُ بِاِقْتِضَابٍ: لَيْسَ الْآنَ.

عَبْدُ الحَفِيزِ: الْأَسْتَاذُ عَادِلٌ مُنْتَظَرٌ تَعْقِيكَ عَلَى رَدِّهِمَا.

مُسْتَمِرًّا فِي اقْتِضَائِي: لَنْ أَرُدَّ.

عَبْدُ الحَفِيزِ مُنْدهِشًا: لِمَاذَا يَا أَبَا يَحْيَى؟ رَدُّهُمَا فِيهِ إِسَاءَةٌ لَكَ!!

قُلْتُ بِلَا مَبَالَاةٍ مُصْطَنَعَةٍ: فَلْيَكُنْ، أَحِبُّ أَنْ أَحْصِلَ عَلَى حَقِّي فِي يَوْمٍ
أَعْظَمَ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا، لِيَتَّكُمَ تَنْشُرُونَ رَدَّهُمَا كَامِلًا، وَسَيُظَلُّ الْعَمُودُ الْمُوَاخِجُ
لِرَدِّهِمَا شَاغِرًا لَا يَحِيرُ جَوَابًا.

ظَلَّ الرَّدُّ مَطْوِيًّا عِنْدِي لِلْيَوْمِ لَمْ أَفُضِّهِ أَوْ أَلْسِنَهُ، وَكَأَنَّ الزَّمْنَ تَوَقَّفَ عِنْدِي
وَلَمْ يَتَحَرَّكْ، أَوْ كَانَ الدُّنْيَا تَجَمَّدَتْ عِنْدَ هَذِهِ الْوَرَقَةِ، أَلَا يَتَحَرَّكُ الزَّمْنَ؟! إِلَى
مَتَى سَيُظَلُّ الْحَزَنُ يَعْتَصِرُ قَلْبِي؟! أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الذَّاكِرَةِ، قَدْ تَنَسَى الْإِسَاءَةَ
وَتَغْفِرُ لِأَحْبَابِكَ وَلَكِنَّكَ لَنْ تَنَسِيَ الْأَلَمَ أَبَدًا.

قَرَأْتُ الرَّدَّ، انْغَرَسَتْ كَلِمَاتُهُ فِي ذَاكِرَتِي، كَانَتْ الْكَلِمَاتُ حَادَةً قَاسِيَةً غَاضِبَةً
لَا مَشَاعِرَ فِيهَا وَلَا حُبَّ وَكَأَنَّهَا حِجَارَةٌ تَدْحَرَجَتْ عَلَى رَأْسِي مِنْ فَوْقِ جَبَلٍ
صَخْرِيٍّ، ابْتَسَمْتُ فِي نَفْسِي وَوَقَعَ فِي خَاطِرِي أَنَّهُمَا يَرُدُّانِ لِيَذْرَءَا عَنْ أَنْفُسِهِمَا

تُهمّة أنّها يوافقان على نقدي، أصبحت تهمّة عند أحبابك يا ثروت، وأصبح نقدك جريمة يتبرأ منها المقرّبون منك، وقد يأتي اليوم الذي يصادفانك في الطريق فينظران للجهة الأخرى، ثروت جريمة، ثروت جريمة، هل تذكر يوم أن حاكموك لأنك على صلة بالدكتور سليم العوا؟! كان الدكتور العوا هو جريمتك التي ارتكبتها!! ولأنك تجلس مع أبو العلا ماضي في جمعيته وتشترك معه في أنشطته، كان أبو العلا هو الجريمة التي لصقت بك ولم ترد أن تدفعها عنك، كذلك سيفعلون مع كل من له صلة بك، فأنت مطرود من رحمة الإخوان، أنت الشجرة المحرّمة التي لا يجوز لأحد من الإخوان أن يقترب منها.

أمعنت النظر في أسلوب عبارات الردّ المؤلم، أسلوب الكتابة كان للشيخ جابر حمدي، هكذا هي لغته عندما يكون غاضباً، أمّا محمد البدر اوي فلا يغلق الأبواب أبداً في وجه أحد، قد يفتحها على مصراعها، وقد يواربها.

«..... ما هي الجهة التي دفعتك لكتابة هذا المقال؟ ما سرّ دته في مقالك يصبّ في مصلحة أعداء الإسلام.. أفكارك هي أفكار من ظلوا يحاربون الإخوان لحاجة في أنفسهم.. نقدك غير صحيح وقد حرّكه الهوى والغل، وأنت تتجنّى على إخوانك أصحاب الفضل عليك، ما نسبته لأخيّنالكبير المستشار محمد المأمون الهضيبي محض كذب..... توقيع محمد حسنين البدر اوي، جابر محمد حمدي».

غالبت دموعي وأنا أقرأ الردّ، أقنعت نفسي أنّه لا يهّم أن يكون هذا هو

سلوك الأصدقاء، المهم هو أن يكون سلوكك مُعبّرًا عن قيمتك، أنت تمارس قناعاتك أنت، فدعهم يمارسون طموحاتهم.

ولكن يبدو أن هناك أشياء لا أعرفها حدثت فألزمتهم بهذا الرد المؤلم!!
مأساة أن تكون مكبلاً لا تستطيع أن تعبر عن رأيك، مأساة أن يكون قرارك وفكرك مرهوناً عند آخرين يملكون إرغامك على الصمت وإرغامك على الكلام... بشئ العبودية التي جعلت بعضنا مسوخاً مشوهة.

كانت إرهاصات هذا الرد مفصحة عن نفسها قبل ساعات من نشر مقالي في «صوت الأمة»، فقد كنت أحضر عزاء والد زوجة الشيخ جابر حمدي، وعندما سلمت عليه معزيًا همس في أذني: لا تنشر المقالات، اسحبها فوراً.
قلت له: قضي الأمر الذي فيه تستفيان، الجريدة خرجت من المطبعة وبعد ساعتين ستكون عند الباعة، ولكن لماذا أسحب المقال؟!

زم جابر شفتيه ثم قال: غيرت رأيي، لا أوافقك على النقد العلني.
قلت مندهشاً: ولكنني لم أغير رأيي، هذا مقالي وليس مقالك، هذه أفكار استقيتها من تجربتي ومن تجارب الآخرين وأنت واحد من هؤلاء الذين كوّنت جزءاً من رأيي من خلاهم.

أوما جابر برأسه مبدياً امتعاضه، فأوجست خيفة، يبدو أن التاريخ ما فتى يعيد عبارة قيصر: حتى أنت يا بروتس!

بعد أن قرأت الرد غمرتني حالة من السكينة وكأنني أسبح في بحر اليقين، كل الدنيا تنهاوى أمام اليقين، وما رحلتي في جماعة الإخوان إلا خطوات

مشيتها للبحث عن الحقيقة، ما الإخوان؟ ما الدنيا؟ ما الزمن؟ ما الحق؟ دار في ضميري أننا في حياتنا الدنيا نسير في رحلة اليقين، نصعد في مدارجه، من علم اليقين، إلى عين اليقين، إلى حق اليقين، وإذا بنا في نور اليقين، وأين نحن من نور اليقين؟! ومع حالة الراحة الروحية التي غشيتني لم يغمض لي جفن طوال الليل، ما الراحة؟ ما السعادة؟ ما الحزن؟ ما الفرح؟ ما الألم؟ ما هي إلا منازعات بين الروح والنفس.



سمعت مفكراً كبيراً يقول: إن الحاضر لا زمن له. تأملت هذه الكلمة وأنا أسترجع الأحداث الرهيبة التي مرت بي وأنا في جماعة الإخوان أو تلك التي مرت بي بعد أن تركتها، الحاضر لا زمن له، كلمة تستحق التأمل، هل يستطيع أحداً أن يضبط الوقت الحاضر ويحبسه حتى لا يمر؟! نعم نحن نشاهده ونشعر به ولكنه في عمر اللحظة لا شيء، ولكن وحده القلم هو الذي يستطيع أن يستدعي الماضي ويجعله حاضراً، تظل الكلمة مكتوبة فيظل الحاضر قائماً.

ولكن ما جدوى أن يظل الحاضر قائماً؟! أليس هذا مدعاة لأن يتكرر الألم، لأن يتكرر الألم أفضل من أن تضيع التجربة، فالتجربة هي إضافة ثرية تستفيد منها البشرية، والألم هو نغزة في قلب واحد من البشر، والبشرية أبقى من البشري، وفي لحظات الألم يستدعي الإنسان من يخفف عنه ألمه، يبت لهم شجونه، خفت أن أحكي ما حدث من «الصديقين» لصديقي أحمد ربيع

الذي كان رفيقاً لي في رحلة «التّصحيح الإخوانية» فالله أعلم بما يدور في كواليس الإخوان الخفية، وسبحان الله مُقلِّب القلوب، ولكنني جلستُ مع صديقين آخرين لا علاقة لهما بالإخوان أحكي لهما وأنزف لهما ألمي.

الصديق الأول هو «السيد علي حامد» وهو من الشخصيات النادرة التي قلما تقابلها في حياتك، فهو شخصية مسالمة راضية قنوع هادئة متصالحة مع ذاتها، لا يحبّ المعارك ولا الخصومة، وقد كان رفيق رحلة عمر، قضينا في مكتب المرحوم محمد علوان سنوات، ووقّعنا معاً على استمارة عضوية بحزب الوفد عندما طلب منا فؤاد باشا سراج الدين ذلك، جمعتنا الأيام والأحداث فلم نفرّق منذ أن تعارفنا، وهو مع قناعته وصل إلى أعلى المناصب في قطاع البنوك.

طيّب «سيد حامد» خاطري وهدّده ألمي وأخذ يضاحكني ويذكّرني بمرافعة مضحكة ترفعها أحد الزملاء المحامين في قضية إعلام وراثية وكأنها جناية قتل، قال لي سيد: هل تذكر هذه المرافعة؟ صديقك محمد البدر اوي يعرفها، وأظن جابر حمدي يعرفها هو الآخر.

قلت له وأنا أغتصب ابتسامة: أحكي لك عما فعلاه معي، تحدّثني عن مرافعة يعرفانها!! استكمل كلامه وكأنه لم يسمعني: وقف المحامي أمام القاضي وهو يقول: «لقد ما ات الرجل، نعم ما ات، وكلنا سنموت، وهل الموت إلا حالة تحدّث لنا فتأخذ منّا الحياة، وقد أحضرت معي يا سيادة القاضي».. وهنا يا ثروت قاطعه القاضي قائلاً: إيه؟ أحضرت معك الميت.

أخذت أضحك وسيد يستكمل مرافعة إعلام الوراثة الذي لا يترافع فيه

أحدٌ أصلاً، ثم قال بعد أن أنهى المرافعة المسرحية: يا عم ثروت كلنا نموتُ والوقتُ يموتُ، والعمرُ ينتهي، اعتبرْ ما فاتَ مات، اعتبرْ رُدَّهما شيئاً مُنقِضياً مِيتاً والتَّمسِ العُذرَ لأصدقائك فلعلَّهم أرغموا على ذلك، ولا شكَّ أن كلامَ سيد حامد أعاد لي ثقتي في نفسي وجعلني أرثي لهؤلاء الأصدقاء الذين لا يملكون التعبير عن آرائهم لدرجة أنهم يخشون أن يلصق بهم رأي أحد إخوانهم.

الصديق الثاني الذي رويتُ له ما حدث هو عاطف عواد الذي تعرفونهُ والذي ترك الإخوان قبلي، وقد أبدى عاطف أسفه مما حدث وقال لي: لا تألم من هذا التصرف فقد واجهت في الشهور الأخيرة دسائس ومكائد، رأينا ناساً صيغت قلوبهم من الحقد، ولكننا كنَّا دائماً أعلى من الآخرين، يكفي أننا أعلى بفكرنا وأخلاقنا ودفع قلوبنا، لقد رفعنا بعضهم يا صديقي فوق أكتافنا فلم نشم منهم إلا رائحة أحذيتهم الكريهة، لا عليك من هذه التصرفات واحتسبها عند الله (إحنا محتاجين أن تثقل كفة حسناتنا يوم القيامة) ثم دعاني عاطف إلى حضور اجتماع سياسي مهم في مكتب المحامي عصام سلطان بشارع قصر العيني يحضره بعض الشخصيات السياسية والإعلامية.

حين حضرت الاجتماع كنتُ مشتت الذهن، لم أنتبه لتفاصيل الحوار وإن كنت قد عرفتُ مضمونه، كان الموضوع هو البحث عن صيغة تجمع حولها قوى المعارضة لمواجهة مبارك ومسلسل التوريث، وقت هذا الاجتماع لم تكن «حركة كفاية» قد نشأت بعد، ويبدو أن هذا الاجتماع كان من إرهابيات «كفاية». كان الحاضرون هم الكاتب الصحفي إبراهيم عيسى، والكاتب الصحفي جمال فهمي عضو مجلس نقابة الصحفيين وعاطف عواد

وعصام سلطان والمحامي الناصري ياسر فتحي، وكان الحوار كله يدور حول الآليات التي نستطيع من خلالها أن نجمع قوى المعارضة في كيان واحد على اختلاف توجهاتهم، فأخذنا نكتب أسماء المعارضين الذين كنا نحسن الظن فيهم ونرى أنهم من أصحاب التوجهات الوطنية المخلصة، وكان رأي إبراهيم عيسى وجمال فهمي أن نقترح أسماء بعض أفراد من جماعة الإخوان، وقال عيسى: إننا يجب أن نضع في اعتبارنا أن جماعة الإخوان جماعة وطنية ينبغي أن تكون شريكة في العمل الوطني.

في نهاية الاجتماع قال لي إبراهيم عيسى قبل أن ينصرف من اللقاء: أنا عرفت من عاطف وعصام أن بعض أصحابك أرسلوا ردًا على مقالك «لصوت الأمة»، ماذا ستفعل؟ هل سترد عليهما؟

قلت وأنا أصطنع ابتسامة: لا لكن أرد.

إبراهيم عيسى ضاحكًا: طول عمري وأنا أقول إن هذه الجماعة هي عبارة عن جسد ديناصور وعقل عصفور، إذا حدث جديد أخبرني فهذه الجماعة تمارس الأكشن والإثارة.

وفي نفس اليوم هاتفني عبد الحفيظ سعد: (أنا مش قادر أفهم الناس دي).

أنا: (خير، حصل إيه تاني؟)

عبد الحفيظ: ألغازهم باتت غير مفهومة.

قلت له مستفهمًا: هل من جديد؟

عبد الحفيظ: أرسل صاحبك محمد البدر اوي محامياً إخوانياً مفوضاً منه ومن الجماعة يطلب سحب رده هو وجابر حمدي وعدم نشره، وأعطانا بدلاً منه ردًا من المستشار مأمون الهضيبي، وسأتي إليك برد الهضيبي لعلك ترد عليه.



أمامي ساعاتٌ ويجب أن أعقب فيها على رد المستشار مأمون الهضيبي، ولكن رد الهضيبي أثار علامة استفهامٍ كبرى في خاطري، الرجل يكذب، نعم مأمون الهضيبي كذابٌ كذاب، يبدو أن مقدمة مقالي هي التي أوجعته فاضطر إلى الكذب وكأنه يداري سواته فطفق يخصف عليها من ورق بعض الكتب. كنت قد كتبت في مقدمة مقالي: صدمتني عبارة قائلها المستشار مأمون الهضيبي في مناظرته بمعرض الكتاب عام 1992م في مواجهة فرج فودة: «نحن نتعبد لله بأعمال النظام الخاص للإخوان المسلمين قبل الثورة». كانت هذه العبارة في مقالي هي موضع رد المستشار الهضيبي حيث قال: إن الكاتب لم يكن صادقاً حين نسب هذه العبارة لي.

استشهد الهضيبي في رده بتفريغ المناظرة الذي قامت به هيئة الكتاب حيث وضعت المناظرة كلها في كتاب نشرته وطرحته في الأسواق، وقال إن تفريغ هيئة الكتاب لم يرد به هذه العبارة مما يدل على أن الكاتب غير صادق، دار رأسي من هذا الرد، فأنا أثق في ذاكرتي خاصة أن هذه العبارة تركت أثراً عميقاً في نفسي بل كانت بدايةً لبحثي عن «الحقيقة». هذه العبارة بالذات هي التي فتحت لي حواراً مع أسامة الغزاوي وهو أحد الإخوان من منطقة

ألفي نسخة
واشبهه ونسبه

الزيتون الذي قصص علي لماذا تزلّف الهُضيبي للنظام الخاصّ ورجاله. كانت قصّته معهم مثل قصة «تاييس» التي كتبها الروائي الفرنسي «أناتول فرانس» عن تاييس والراهب بافنوس.. ذهب بافنوس إلى تاييس كي يسحبها إلى دائرة الإيمان فخرج هو من دائرة الإيمان، فهل يعقل أن تكون هذه العبارة قد اختفت عند تفريغ المناظرة في كتاب؟ هل كانت سقطة لسان من الهُضيبي فخاف أن يمسكها الناس عليه؟ ولكن من الذي حذفها؟! هل الإخوان سيطرون على الهيئة المصرية للكتاب دون أن يدري أحد؟! كان لابد أن يكون ردّي موثقاً فقضيت يومي أبحث عن أحد يكون قد سجّل المناظرة، سألت صديقي الصحفي أسامة سلامة الذي سأل بدوره الكاتب الصحفي حلمي النمنم الذي يهتم بالتأريخ إلا أن الردّ جاء محمّولاً على خيبة الأمل، تذكر حلمي النمنم أن الهُضيبي قال هذه العبارة إلا أنه لم يجد تسجيلاً للمناظرة!!

هداني تفكيري أن أذهب للعميد حسنين فقد يكون خبر هذه المناظرة قد وقع تحت يديه، وكنت قبلها قد قمت بقيده في نقابة المحامين بعد خروجه على المعاش، وفي بيته حكيت له القصة فقال لي إنه يذكر شيئاً مثل هذا ولكنه لا يتذكر على وجه الدقة تفصيلات هذه المناظرة، ثم قال إنه سيسعى من خلال صديق له في فرع القضاء العسكري للحصول على شريط المناظرة، لم يتوان العميد حسنين عن المساعدة بل قام على الفور بالحديث مع صديقه هاتفياً فاستمهله الرجل، وفي غضون دقيقة ردّ عليه بأنه عثر على الشريط وسيرسله له مع «مخصوص» فوراً.

انتظرنا إلى أن حضر الشريط، وكأنني أسبق الزمن قمت بتشغيله وضبطناه على المقطع الذي تحدث فيه المستشار مأمون الهضيبي إلا أن العبارة المنشودة لم تكن موجودة!! كانت مفقودة، هل كنت أعيش في دُنْيا أخرى، أصابني مس من الجن أو مرض نفسي خلط عندي بين الحقيقة والخيال!! تركت بيت العميد وأنا في قمة الحيرة، ثم عاد لي الأمل من جديد عندما عثرتُ عند عاطف عواد على تسجيل كاسيت، وشريط فيديو للمناظرة، ولكنني عدتُ كما يقولون «بخفي حنين» ويا لبؤس حنين الذي ما فتئت البشرية تحمل عند فشلها خفيه، فقد اختفت العبارة السحرية المنكودة من الشريطين، لا هي في الكاسيت ولا هي في الفيديو، هل تبخرت؟! هل أنا أحد أفراد فيلم «المنسي» لجوليان مور FORGOTTEN حيث قامت كائنات فضائية بمحو ذاكرة البشر ولكنها فشلت في أن تمحو طفلاً صغيراً قامت باختطافه من ذاكرة أمه، قامت الكائنات الفضائية بمحو كل شيء يدل على وجود هذا الطفل إلا أن قلب الأم ظل حافظاً له حتى إن الناس اتهموها بالجنون، فيلم «المنسي» الإخواني لا يبتعد كثيراً عن فيلم جوليان مور، فقد قامت كائنات إخوانية بمحو كل شيء يدل على أن الهضيبي قال في معرض الكتاب عام 1992 م: إن الإخوان يتعبدون لله بأعمال النظام الخاص قبل الثورة!! ولكن قلبي ظل متذكراً هذه العبارة التي كانت صادمة لي كما وصفتها في مقالي.

ألفه وسمعه
داشنيه وسمعه

لا يمكن أن يستسيغ عقلي أنني توهمت أو خيل لي، ما زلت أذكر اليوم الذي قال فيه الهضيبي هذه العبارة، وما زلت أذكر أثرها في نفسي، فإذا ارتبطت

ألف وسعته
واشبهه

كلمات الهضيبي بوقائع وأحداث تعقيباً عليها ونقدًا لها وثورة عليها فلا يمكن أن تكون خلطًا وتخليطًا، كنت أقف في معرض الكتاب في شتاء 1992م مشاهدًا للمناظرة بين الدولة الدينية والدولة المدنية، وحين قال مأمون الهضيبي عبارته تلك ضجت القاعة بالتهليل والتكبير والتصفيق، نظرت لحظتئذ إلى الوجوه التي تجاورني والتفت بوجهي للخلف فوجدت الفرحة قد استولت على مجامع القلوب وسيطرت على مشاعر الحاضرين، ورغم أنني هتفت مكبرًا بلا وعي مني مع آلاف الإخوان الذين اكتظت بهم القاعة، وكأن الحالة الشعورية الجمعية التي خيمت على الجميع احتوتني وامتدت إلى نفسيّتي وسحبني بداخلها، فإني استغربت نفسي بعد ذاك وتعجبت من هتافي وكان الذي هتف وكبر ليس أنا بل شخص غيري، وبعد المناظرة رأيت المهندس أسامة الغزاوي الذي كان يشغل في منتصف الثمانينات من القرن الماضي موقعًا قياديًا للإخوان المسلمين بمنطقة شرق القاهرة، وكان يراملني في أسرتي الإخوانية بمنطقة الزيتون، إلا أنه لسبب أو لآخر انقطع عن الإخوان، وبسبب عبارة الهضيبي هذه دخلت مع أسامة في مناقشات طويلة مستفيضة فتحت لي آفاقًا معرفية عن تاريخ جماعة الإخوان لم أكن على علم بها من قبل، فكيف يرسل الهضيبي ردًا لجريدة «صوت الأمة» على هذه العبارة منكراً إياها ويقول إنها من خيالي!! ولكن قد يكون إنكار الهضيبي لتلك العبارة مبررًا ومفهوماً ولكن كيف وبأي طريقة تم محو هذه العبارة من كل التسجيلات والفيديوهات والكتب فأصبحت نسيًا منسيًا؟!

نسي الكل هذه العبارة إلا صديقي المهندس أحمد حامد، لم تكن لأحمد حامد علاقة تنظيمية بالإخوان؛ إذ كان أحد نشطاء حزب الوسط، وكان

من المتفاعلين مع أنشطة الحزب، بل كان مسؤلاً في فترة من الفترات عن تنظيم بعض فاعليات الحزب، وفي الوقت ذاته كان من النشطاء في جمعية مصر للثقافة والحوار وهو أحد التلاميذ المقربين للدكتور محمد سليم العوا حيث كان يحضر كل محاضراته وندواته، وبحكم صداقته لي ولمجموعة من الأصدقاء المقربين مني، وفي نفس اليوم الذي كنت أبحث فيه عن تسجيل كامل للمناظرة جلست مع أصدقائنا في مقهى قريب من جمعية مصر للثقافة والحوار، استمع أحمد حامد لكلماتي الساخطة المندھشة، ثم غاب عنا برهة، وكانت مفاجأة بمعنى الكلمة حين عاد وهو يحمل معه شريط فيديو للمناظرة، كان أحمد قد غافلنا وذهب إلى قريب له يسكن بالجوار وحصل من أحد أقاربه من كبار الإخوان على نسخة من الشريط الأصلي للمناظرة. أمسكت بالشريط وأنا لا أكاد أصدق، هل هذا شريط حقيقي يا أحمد؟ هل يحتوي على كل الحقيقة؟!

- نعم يا أستاذ هذا شريط أصلي سجله أحد أقاربي من الإخوان الكبار وكنت قد شاهدته من قبل وأعرف أنه يحتوي على تلك العبارة المنسية.

- وكيف أفلت هذا الشريط من مدينة التزييف وقلب الحقائق؟!

- الحق لا يضيع يا أستاذ، ما دمت صاحب حق سيسخر الله لك كل الوسائل ليظهر حَقُّك.

بعد نصف ساعة كنا نجلس؛ عاطف عواد وأحمد حامد وأنا، في بيتي نُشاهد الشريط، وحين وصلنا للجزء الذي تحدث فيه الهضيبي كانت المفاجأة.

الفصل الخامس

صندوق الأسرار

لا أخفيكم سرّاً أنني كنتُ في قِمةِ الشكِّ، خِفْتُ مِنْ أَنْ تكونَ ذاكِرتي قد خدعتني وسوّلتُ لي أنّ الرجلَ قال وهو لم يقل، فعل وهو لم يفعل، ألا يحدثُ للعقلِ البشريِّ في أحيانٍ كثيرةٍ نوعٌ من الخلطِ؟! ورغمَ أنني في ذاتِ الوقتِ كنتُ في قِمةِ اليقينِ من أنّ مأمونَ الهُصبيّ قال هذه العبارة التي يُنكرها الآن، فإنّني كنتُ في حالةٍ فريدةٍ، شكُّ أقربُ إلى اليقينِ ويَقينُ أقربُ إلى الشكِّ، لذلكِ كنتُ في قِمةِ التّركيزِ والانتباهِ وأنا أشاهدُ شريطَ الفيديو معَ أصدقائي، ها هو المقطعُ محلُّ الخلافِ، مادَتِ الأرضُ تحتَ قدميَّ حينما نطقَ المستشارُ مأمونُ الهُصبيّ بالكلماتِ التي أنكرها: «نحنُ نتعبُدُ اللهَ بأعمالِ النظامِ الخاصِّ قبلَ الثورة». قُمتُ بإيقافِ الشريطِ وأعدتُ المقطعَ مِنْ أولِهِ ونَحَيْلتُ أنني أستمعُ إلى «بينوكيو» وكلّما نطقَ بهذه العبارة كَبُرَ أنفه قليلاً حتّى كادَ أنفه يخرجُ مِنْ شاشةِ التلفزيون!! استطردَ الهُصبيّ وهو يضعُ تبريراً للكلماتِ فقال: كُنّا نجاهدُ، والمجاهدُ يُباحُ له ما لا يباحُ للآخرين. وضربَ مثلاً بالاغتيالاتِ التي أرتكبها الحزبُ الشيوعيُّ اليونانيُّ في أربعينياتِ القرنِ العشرين، قال:

لماذا لا تعيبون على الحزب الشيوعي اليوناني ارتكاب جرائم اغتيلاتٍ لمدينين من بني وطنهم؟! أياح لهم هذا ولا يياح لنا؟! أحرأ على بلابله الدوح حلالٌ للطير من كل جنس؟! تخيلته ساعتها وهو يخرج لسانه لمصر كلها وكأن لسان حاله يقول: موتوا بغيطكم يا أهل مصر، قتلناكم لأننا أهل الحق وأنتم أهل الباطل، نحن أمة الإسلام، وأنتم أمة الكفر والطغيان.

سبحانك ربّي، لقد وجد الهضيبي للاغتيالات التي قام بها الإخوان قبل الثورة غطاءً سياسيًا شيعيًا، هل نستطيع أن نطلق على منطق الهضيبي عبارة «الفقه التبريري»؟ إذن ما هو الفقه الذي استند إليه وهو يكذب على مصر كلها حين ادعى أنه لم يقل هذه العبارة؟ الغاية تبرر الوسيلة بطبعها الإخوانية! التطبيق المتعسف لقاعدة (الضرورات تبيح المحظورات! الحرب خدعة) على اعتبار أن الإخوان يحاربون أمة الضلال لينشروا الإسلام! استمعت إلى الشريط كاملاً ثم أخذت نفسي دور الواعظ التقليدي، وكأنني كنت أعظم المستبد الذي يتدثر بالدين ليحيط استبداده بقداسة ما: من هو الذي سيربح حينما يكشف الناس أنك كذاب؟ الكذاب يخسر دائماً، والصادق حتماً يربح نفسه وضميره ودينه حتى ولو لم يصدقّه الناس، لا يهم أن ترضي الناس فرضاؤهم غاية لا تدرك، ولكن كيفيك أن ترضي ربك، فإذا رضى عنك سيرضى عنك الناس.

غريبة هي أن يكذب الإخوان! مسألة معقدة تحتاج إلى فهم وفحص وبحث، هل يكذب الإخوان علينا لأننا أعداء الإسلام؟! هل غير الهضيبي الحقيقة لأن الضرورات تبيح المحظورات؟ أيّا كان الأمر وأيّا كانت الأسباب

فلا يوجد أيُّ مبررٍ يُعطي الحقَّ للدَّاعية أنْ يكذبَ، الذي يقولُ الصِّدقُ هو الذي يربحُ، الإسلامُ يقولُ ذلكَ، ليس الإسلامُ فحسبُ بل كلُّ الأديانِ تقولُ ذلكَ، حتَّى عقائدُ أهلِ الهندِ، حتَّى الأساطيرُ التي نَحْكِيهَا لأبنائنا ونحنُ نَعَلِّمُهُمْ فضيلةَ الصِّدقِ، تخيلتُني وأنا أُرَبِّتُ على كَتِفِ أيِّ إخواني يَكْذِبُ مُتَصَوِّراً أَنَّهُ يُقِيمُ بِكَذِبِهِ شَرْعَ اللَّهِ، ورأيتُ كأنَّني جَلَسْتُ أَحْكِي لِقَادَتِهِمْ لَا لِأَطْفَالِهِمْ قِصَّةً مِنْ أساطيرِ الهندِ، شاشَةُ الحَيَاةِ العَرِيضَةُ أَمَامِي، وَهَآنَذَا أَحْكِي لَهُمْ: تَرَوِي الأسطورةَ الهنديةَ القديمةَ أَنَّهُ كَانَ هُنَاكَ مَلِكٌ ثَرِيٌّ لَا تَفْدُ أَمْوَالُهُ، وَفِي يَوْمٍ أَعْلَنَ هَذَا الْمَلِكُ لَشُعْبِهِ: مَنْ يَرَوِي لِي حِكَايَةً تُجْبِرُنِي عَلَى أَنْ أَقُولَ لَهُ أَنْتَ كُذَّابٌ، سَوْفَ أَهْبُهُ نِصْفَ مُلْكِي، وَسَأَجْعَلُ مِنْ حَكِيمِ الْمَمْلَكَةِ حَكَمًا لِيَقْضِيَ بَيْنَنَا.

وفي اليومِ الأولِ زَارَ الْقَصْرَ تَاجِرٌ مِنَ الشَّعْبِ وَقَالَ لِلْمَلِكِ: دَامَ عَزُّكَ يَا مَوْلَايَ، أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّنِي مِنْ عَائِلَةِ «الصَّادِقِينَ» نَقُولُ الصِّدْقَ وَلَا نَكْذِبُ أَبَدًا، وَقَدْ تَرَكَ لِي وَالِدِي عَصَا غَرِيبَةً جَدًّا، هَذِهِ الْعَصَا هِيَ أَطْوَلُ عَصَا عَرَفَهَا الْبَشَرُ لِدَرَجَةِ أَنْ وَالِدِي عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللَّهِ كَانَ يَرْفَعُهَا فِي السَّمَاءِ فَيُحَرِّكُ بِهَا النُّجُومَ، فَقَالَ الْمَلِكُ: لَا أَيْهَا التَّاجِرُ الصَّادِقُ هَذِهِ لَيْسَتْ الْعَصَا الْأَطْوَلُ، فَإِنَّ أَبِي كَانَتْ لَدَيْهِ عَصَا يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ فَيُشْعِلُ طَرَفَهَا الثَّانِي مِنَ الشَّمْسِ!! سَمِعَ حَكِيمُ الْمَمْلَكَةِ الْخَوَارِ فَقَالَ لِلرَّجُلِ: لَقَدْ عَجَزْتَ عَنْ أَنْ تَجْعَلَ الْمَلِكُ يَقُولُ لَكَ أَنْتَ كُذَّابٌ؟ لَذَلِكَ أَنْتَ مِنَ الْخَاسِرِينَ، فَخَرَجَ الْكُذَّابُ مُخْلَفًا وَرَاءَهُ خِيبةُ أَمَلٍ، وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ زَارَ الْقَصْرَ خِيَاطٌ وَقَالَ لِلْمَلِكِ: الْمَعْدِرَةُ يَا مَوْلَايَ كَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّ الْبَارِحَةَ هَطَلَتِ الْأَمْطَارُ غَزِيرَةً وَاشْتَدَّتْ لِدَرَجَةِ أَنَّ السَّمَاءَ تَشَقَّقَتْ فَقُمْتُ

بخطايتها، فقال له الملك: خير ما فعلت، ولكنك لم تحسن الخياطة فصباح اليوم هطلت زخات خفيفة من المطر، سمع الحكيم الحوار فقال للخياط نفس قوله للكذاب الأول، فخرج الخياط مخلفاً وراءه خيبة الأمل.

وحده الذي كان يملك الحقيقة قروي عجوز صادق، ظل عمره يبحث عن حق له سلبه منه الملك، فقد كان يحفر في أرض له منذ زمن بعيد فعثر على جرة ذهب، فأخذها إلى كوخه سعيداً، وعندما عرف الملك خبر جرة الذهب، سلبها من القروي الفقير!! لم يتوان الفقير الصادق عن البحث عن حقه المسلوب ولكن قضية المملكة كانوا يرفضون قضيته، حتى مرت سنوات وحق الرجل مسلوب، فقرر أن يذهب إلى الملك في قصره كي يطالبه بحقه، فقال له الملك حين دخل عليه: وأنت يا رجل ماذا تريد؟ فقال القروي الصادق أنت مدين لي بجرة من الذهب جئت لأخذها؟ استغرب الملك وقال: أنت كاذب لست مديناً لك بشيء، فقال حكيم المملكة للملك: بما أنك قلت إنه كاذب فقد صارت نصف المملكة من حقه، فتذكر الملك وعده فعدل عن قوله وقال: لا إنه صادق، فقال الحكيم: إذن فأعطه جرة الذهب، فخرج القروي وهو يحمل جرة الذهب وقد أصيب الملك بخيبة الأمل!

انتهت الأسطورة وتلاشت الصورة وما زال الإخوان يكذبون، دقات تطرق باب عقلي، في المسألة سر، ليس الأمر مجرد هروب من موقف محرج، كما أنهم لا يكذبون لضعف الإيمان مثلاً أو لهشاشة الأخلاق، صوت ينبعث من داخلي: خذ حذرَكَ فيدو أنك ولجت أبواباً ما كان لك أن تدخلها.



حَضَر لي في نفس اليوم في وقت متأخر من الليل الصديق الصحفي عبد الحفيظ سعد، أخبرته بمحتوى الشريط وما فيه، فقال وهو يستحني بلكنته الصعيدية المحببة: (هتاز يا بو يحيى) .. ثم استرسل ضاحكاً: ((دي ضربة جامدة في الدماغ، يا فضيحتك يا هُضيبي! أنا عاوز اعرف هما الناس دي بتعمل كده ليه، والله انت ربنا نجاك من الناس دول، عاوزين بأه رد تكتبه تعقيباً على الهضيبي مدعماً بالشريط.))

أَمَعْتُ التفكير، الآن وأنا بين يدي دليل قطعي لا شك فيه، يجب أن أرفع عن الرد على الهُضيبي، سأجعله يرد على نفسه، الهُضيبي يُكذِّب الهضيبي، عزمْتُ أمري على ألا أكتب ردًا ولكنني أعطيتُ شريط الفيديو لعبد الحفيظ سعد وطلبتُ منه أن تردَّ الجريدة على الهضيبي واقترحتُ عنوانًا هو «الهضيبي يردُّ على الهضيبي» وبالفعل خرجتُ صحيفة «صوت الأمة» وهي تحملُ تكذيب الهُضيبي الذي قال فيه: إنَّ الكاتب لم يكن صادقًا حين نسب هذه العبارة لي، استشهد الهضيبي في رده بتفريغ المناظرة الذي قامت به هيئة الكتاب، أقسم جهْدَ أيمانه أنَّه صادق، أمَّا الكاتب الذي هو أنا فكاذب!! نشرت الجريدة ردَّ الهضيبي كاملاً، وفي العمود المقابل لردَّ الهضيبي نشرت تعقيباً منها على هذا الرد، قالت فيه إنَّ الجريدة تحت يدها شريط الفيديو الذي يدلُّ على أنَّ الهضيبي قال هذه العبارة، وقامت الجريدة بتفريغ الجزء المتعلق بهذا المقطع من المناظرة وأبدتُ أسفها على أنَّ المستشار مأمون الهضيبي كذاب!! كان الأمرُ مؤسفاً مؤلماً ولكنَّ القصة كلها أكدت أنَّ الراهب بافنوش حينما ذهب ليستدعي الغانية تاييس إلى أرض الفضيلة، ظلَّ مقيماً في أرض الرذيلة، ولكن هل كانت أرض الإخوان هي أرض الفضيلة؟ هل هي أرض الشريعة فعلاً؟

جماعة دُعوية ضَلَّتْ طَرِيقَهَا إِلَى السِّيَاسَةِ، زَعَمَتْ أَنَّهَا تُرِيدُ أَنْ تُصْلِحَ السِّيَاسَةَ بِالَّذِينَ فَافَسَدَتْ دِينَهَا بِالسِّيَاسَةِ!! وَلَكِنْ هَلْ هِيَ جَمَاعَةٌ دُعَوِيَّةٌ بِالْفِعْلِ؟ أَيْنَ هِيَ مِنَ الدَّعْوَةِ؟ بَعْدَ سَنَوَاتٍ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ وَأَثْنَاءَ بَحْثِي عَنْ الْحَقِيقَةِ أَهْدَانِي اللَّهُ طَرْفَ الْخَيْطِ، عُمَرُ التَّلْمَسَانِي أَوَّلُ مَنْ أَكْتَشَفَ تَسَلُّلَ السَّرْطَانِ إِلَى جَسَدِ الْإِخْوَانِ، سَرْطَانٌ لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ خَبْرَهُ حَتَّى هَذِهِ اللَّحْظَةُ الَّتِي أَكْتُبُ فِيهَا هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، مَاتَ التَّلْمَسَانِي عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَكَانَ مِنَ الْمَفْتَرِضِ أَنْ يَمُوتَ مَعَهُ السَّرُّ الرَّهِيْبُ، ظَنَّ كَهَنَةُ الْمَعْبَدِ أَنَّ سِرَّهُمْ تَمَّ دَفْنُهُ فِي مَقْبَرَةِ التَّلْمَسَانِي، أَرَادُوا أَنْ يَمْحُوا وَجُودَ الرَّجُلِ حَتَّى بَعْدَ مَوْتِهِ، فَأَزَالُوا اسْمَهُ مِنْ عَلَى مَقْبَرَتِهِ وَوَضَعُوا اسْمَ كَاهِنِهِمُ الْأَكْبَرِ «مُصْطَفَى مَشْهُور» وَرَغْمَ ذَلِكَ وَقَعْتُ عَلَى طَرْفٍ مِنَ السَّرِّ فَتَعَقَّبْتُهُ إِلَى أَنْ وَصَلْتُ إِلَى صُنْدُوقِ الْأَسْرَارِ.



«أَنْتُمْ تَقُولُونَ حَدَّثَنَا فُلَانٌ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ نَقُولُ حَدَّثَنِي قَلْبِي عَنْ رَبِّي». قَالَهَا الْعَمِيدُ حَسَنِينَ وَهُوَ يَنْظُرُ لِي وَكَأَنَّهَا فِي مَبَارَاةٍ تَحَدُّ، كُنَّا فِي طَرِيقِنَا إِلَى الْمَحْكَمَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ بِالْحَيِّ الْعَاشِرِ، وَكَانَ الْعَمِيدُ حَسَنِينَ قَدْ خَرَجَ عَلَى الْمَعَاشِ مِنْذُ أَسَابِيعَ قَلِيلَةٍ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَقِفُ لَهُ وَهُوَ يَسِيرُ فِي أَرْوَقَةِ الْمَحْكَمَةِ أَصْبَحَ «عَمِيدٌ سَابِقٌ بِالْقَضَاءِ الْعَسْكَرِيِّ» يُحَاوِلُ أَنْ يُثَبِّتَ أَنَّهُ لَا يَزَالُ عَلَى عَهْدِ الْقُوَّةِ وَالسُّلْطَةِ، وَلَكِنَّ الْأَيَّامَ دَوَّلٌ، وَحِينَ سُئِلَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ عَنْ مَعْنَى الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ» قَالَ: يَرْفَعُ أَقْوَامًا وَيَخْفِضُ أَقْوَامًا!! وَسُبْحَانَ مَنْ لَهُ الدَّوَامُ يُغَيِّرُ وَلَا يَتَغَيَّرُ.

كان الصديق المهندس أبو العلا ماضي رئيس حزب الوسط قد اتهم في قضية عسكرية عام 1996م من ضمن القضايا التي واجهها الإخوان في هذه الحقبة، وكانت أجهزة الأمن حين ألقت القبض عليه في بيته قد صادرت جهاز كمبيوتر وبعض مئات قليلة من عمولات أجنبية، ورغم أن أبو العلا حصل على حكم بالبراءة؛ فإنه لم يستطع استرداد الأشياء المصادرة المملوكة له، وعبثاً حاول إلا أنه كان كمن يستخرج اللؤلؤ من ماء النهر، وأصبح حاله كذلك «المُنَبَّت» الذي قال عنه الرسول ﷺ: «لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى» مرت سبعة أعوام وأصبحنا في عام 2003م ولم يحصل أبو العلا على حقه، وعندما علم أن لي صلة بأحد الكبار السابقين في فرع القضاء العسكري أعطاني الطلب الذي كان قد قدّمه في هذا الشأن وطلب مني أن أنجزه له إن كان لذلك سبيل.

دخل العميد حسنين إلى مكتب المدعي العسكري ومكث فيه بعض الوقت ثم خرج لينبئني أن الطلب سيتم البت فيه سريعاً إلا أن العقبة الوحيدة في هذا الشأن أن الأشياء المصادرة من المهندس أبو العلا لم تأت في الأصل من نيابة أمن الدولة، ويبدو أنها لم تخرج من «مباحث أمن الدولة» وظلت لديهم دون أن يعتني أحد بالسؤال عنها رغم أن هذه الأشياء المصادرة من المفترض أن تكون من أدلة الدعوى وما دام المتهم حصل على البراءة فيجب أن يستردها ما دامت المحكمة لم تصادرها.

وأثناء عودتنا من المحكمة العسكرية حدثني العميد حسنين عن «الحاجة زكية عبد المطلب البدوي» وقال إنها العارفة بالله سليلة العترة النبوية المطهرة.

حفيدة سيدنا الحسين، وقال لي إنه كان يحضر مجلسها الذي ينعقد بساحتها في حيّ الجمالية إلى أن توفّاها الله، وكان مما قاله أنها تنبأت بوفاتها قبل عدة أشهر من حدوثها وأنها ذهبت إلى مقام جدّها الحسن الشاذلي بالحميرة قبل وفاتها حيث كانت لها استراحة هناك لتدفن في مقام بجواره، وقد قرّني ذكر الحاجة زكية من العميد حسنين إذ كنت أعرفها منذ سنوات بعيدة، فقد كان الأستاذ محمد علوان المحامي عليه رحمة الله الذي تربّيت في مكتبه أحد مريديها هو وزوجته الحاجة «وداد الديب».

ضحك العميد حسنين وهو يقول: عندنا في الطريقة الشاذلية «مرشد» كما عندكم في الإخوان.

- يا سيادة العميد أنا تركت الإخوان كما تعلم، ولكن من هو مرشدكم؟
- هذه أشياء ستعرفها عندما تجمع بين التوبة والنية والإخلاص والزهد والمحبة.
- أأبو الحسن الشاذلي هو صاحب الطريقة التي سلكتها؟
- سيدي عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه هو إمام أئمة الطريقة الشاذلية ومن بعده أبو الحسن الشاذلي، وقد كانت له أحوال عجيبة مع الله، وكان من المنقطعين للعبادة وقد اعتزل الناس نهائياً حتى أننا لم نعرف لسيدي عبد السلام تلميذاً ولا مريداً إلا سيدي أبو الحسن الشاذلي من فرط انقطاعه عن أهل الدنيا، ولو لا سيدي أبو الحسن الشاذلي ما عرفنا شيئاً عن سيدي عبد السلام بن مشيش فهو الذي روى عنه.
- ولكن الطريقة الشاذلية كما قرأت لها تفسيرات باطنية للقرآن.

- ادْخُلْ بقلبك ولا تَدْخُلْ بقدمك، واخْلَعْ عَقْلَكَ وَقِفْ عَلَى بَسَاطِ النُّورِ، أَتَدْرِي
كَيْفَ دَخَلَ سَيِّدِي أَبُو الْحَسَنِ الشَّاذِلِي عَلَى سَيِّدِكَ وَسَيِّدِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟

- دَخَلَ عَلَيْهِ أَيْنَ وَكَيْفَ؟

- عِنْدَمَا ذَهَبَ سَيِّدِي لِسَيِّدِي، قَدِمَ الْمَدِينَةَ زَادَهَا اللَّهُ تَشْرِيفًا، وَلَكِنَّ سَيِّدِي
وَقَفَ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ عُرْيَانِ الرَّأْسِ حَافِي الْقَدَمَيْنِ يَسْتَأْذِنُ
عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ مَنْ مَعَهُ: أَلَا تَدْخُلُ عَلَى قَبْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
وَسَيِّدِي؟ فَاسْتَنْكَرَ مَا قَالُوهُ، وَقَالَ لَهُمْ: الْقُبُورُ لِلْأَمْوَاتِ وَسَيِّدِي الرَّسُولُ ﷺ
لَمْ يَمُتْ، أَلَا يَرُدُّ اللَّهُ لَهُ رُوحَهُ لِيَرُدَّ عَلَى السَّلَامِ؟! فَسَأَلُوهُ: وَلِمَ لَا تَدْخُلُ فَتُسَلِّمَ
عَلَيْهِ؟ فَقَالَ: أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ
إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ وَظِلٌّ وَاقِفًا حَتَّى سَمِعَ نِدَاءً مِنْ دَاخِلِ الرِّوَضَةِ
الشَّرِيفَةِ يَا عَلِيُّ أَنْ ادْخُلْ.

ثُمَّ أَرْدَفَ الْعَمِيدُ قَائِلًا: تَعْرِفُ يَا أَسْتَاذِ ثُرُوتٍ، لَوْ تَرَكَ الْإِخْوَانَ الدُّنْيَا
وَمَكَاسِبَهَا وَغَنَائِمَهَا وَعَاشُوا فِي خَلْوَةٍ رُوحِيَّةٍ لَا نَصْلَحَ حَالَهُمْ، لَا أَظْنُهُمْ وَقَعُوا فِي
خِلَافٍ مَعَكَ إِلَّا أَنْ قُلُوبَهُمْ كَالصَّحَرَاءِ وَمَنْ كَانَ قَلْبُهُ هَكَذَا شَرَدَ فِي الْمَتَاهَاتِ.

(رَبَّنَا يَصْلَحْ أَحْوَالُ قُلُوبِنَا يَا مَوْلَانَا) أُرِيدُ أَنْ أَذْهَبَ مَعَكَ فِي جَلَسَاتِكُمْ
وَأَحْضَرَ أَذْكَارَكُمْ لَوْ كَانَ ذَلِكَ مَسْمُوحًا.

- ادْخُلْ إِلَى الْخَلْوَةِ أَوَّلًا، وَضَعْ قَلْبَكَ فِي مِصْفَاةِ الذِّكْرِ.

نَاوَلَنِي الْعَمِيدُ حَسَنِينَ كُتُبًا وَقَالَ: هَذِهِ بَعْضُ أَوْرَادِ اقْرَأْهَا بِقَلْبِكَ، ثُمَّ
نَتَحَدَّثُ بَعْدَ ذَلِكَ.

نَدَّتْ عَنِّي ضِحْكَةً خَفِيفَةً وَأَنَا أَقُولُ: لَوْ رَأَى الْإِخْوَانُ الْآنَ لَقَالُوا إِنِّي صَبَأْتُ، فَكَثِيرٌ مِنْهُمْ لَا يُجِبُونَ الصُّوفِيَّةَ.

قال العميد حسنين: لو عَرَفَ الْإِخْوَانُ الْحَقِيقَةَ لَأَذْرَكُوا أَنَّ صَلَاحَ حَالِهِمْ لَنْ يَكُونَ إِلَّا بِالصُّوفِيَّةِ.



في سجون عبد الناصر كان هناك شابٌ صغيرٌ، أبيضُ الوجه أسودُ الشعرِ له نظرةٌ عميقةٌ مُتَفَرِّسَةٌ، وَوَجْهُ غَاضِبٌ جَادٌ، تَعَوَّدَ هَذَا الشَّابُّ عَلَى أَنْ يَفْرِقَ شَعْرَ رَأْسِهِ مِنَ الْمُتَصَفِّفِ اقْتِدَاءً مِنْهُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كَانَ هَذَا الشَّابُّ الصَّغِيرُ قَدْ سِيقَ بِهِ إِلَى السَّجْنِ فِي قَضِيَّةِ تَنْظِيمِ سَيِّدِ قُطْبِ عَامَ 1965م، إِذْ كَانَ مِنَ الْمُحِبِّينَ لَهُ وَالْمُتَلَقِّينَ مِنْهُ، دَخَلَ هَذَا الشَّابُّ إِلَى جَمَاعَةِ الْإِخْوَانِ وَهُوَ فِي بَلَدِهِ أَسْيُوطَ، فَقَدْ كَانَ دَائِمَ التَّرَدُّدِ عَلَى إِحْدَى الْمَكْتَبَاتِ الْعَامَةِ، وَأَثْنَاءَ تَرَدُّدِهِ عَلَيْهَا لِيَقْرَأَ الْكُتُبَ الَّتِي تُشَبِّعُ نَهْمَهُ تَعَرَّفَ عَلَى أَمِينِ الْمَكْتَبَةِ وَيَدْعَى مُحَمَّدَ مَنِيبَ، وَتَصَادَفَ أَنَّ كَانَ مُحَمَّدَ مَنِيبَ هَذَا مِنْ شَبَابِ الْإِخْوَانِ فَأَخَذَ يَدْعُوهُ بِرَفْقٍ إِلَى فِكْرِ جَمَاعَةِ الْإِخْوَانِ إِلَى أَنْ أَفْلَحَ فِي تَجْنِيدِهِ وَإِدْخَالِهِ التَّنْظِيمَ الَّذِي كَانَ قَدْ تَعَرَّضَ لِضَرْبَاتِ أَمْنِيَّةٍ مِنَ النِّظَامِ النَّاصِرِيِّ، كَانَتْ حَيَاةُ هَذَا الشَّابِّ الْوَافِدِ حَدِيثًا عَلَى الْإِخْوَانِ شَدِيدَةً الْقَسْوَةِ عَانِي فِيهَا مِنْ شُظْفِ الْعَيْشِ وَقَسْوَةِ الْوَالِدِ الَّذِي كَانَ قَدْ طَلَّقَ زَوْجَتَهُ أُمَّ الشَّابِّ فَعَاشَ فِي كَنْفِ زَوْجَةِ الْأَبِ وَلَمْ يَلْقَ إِلَّا كَلَّ إِهْمَالٍ وَتَوْبِيخٍ وَضَرْبٍ وَرَكْلٍ إِنْ صَدَرَتْ مِنْهُ هَفْوَةٌ، فَهَرَبَ هَذَا الشَّابُّ مِنْ ضَيْقِ الْحَيَاةِ وَعَنْتَهَا مَعَ وَالِدِهِ فِي أَسْيُوطَ وَجَاءَ إِلَى الْقَاهِرَةِ كَاسِفَ الْبَالِ مَهْدُودَ الْوَجْدَانِ، يَحْمِلُ «بِقِجَّةً» مَلَابِسَهُ وَبَعْضَ كَرَاسَاتِ دَوْنِ فِيهَا أَفْكَارُهُ وَأَشْعَارُهُ، وَكَانَ مِنْ

أُفٍّ بِسَمْنَةٍ
وَحَمَّةٍ دَرَسِيَّةٍ

التَّصَارِيفِ أَنْ كَانَتْ الْفَتْرَةُ الَّتِي جَاءَ فِيهَا لِلْقَاهِرَةِ هِيَ تِلْكَ الْفَتْرَةُ الَّتِي أَعْقَبَتْ
الْإِفْرَاجَ عَنْ سَيِّدِ قُطْبٍ مِنْ سِجْنِهِ قَبْلَ مُتَنَصِّفِ السِّتِينِيَّاتِ فَأَتِيَتْ لَهُ الْفُرْصَةُ
أَنْ يَتَرَدَّدَ بَضْعَ مَرَّاتٍ عَلَى الرَّجُلِ الَّذِي اعْتَبَرَهُ قَبْلَتَهُ بَلْ قِبْلَةَ الْإِسْلَامِ كُلِّهَا، كَانَ
زَوَّارُ سَيِّدِ قُطْبٍ فِي فِيلْتِهِ بَضَاحِيَّةٍ حُلْوَانٍ فِي هَذِهِ الْآوَنَةِ يَجِدُونَ هَذَا الشَّابَّ
جَالِسًا تَحْتَ قَدَمِ سَيِّدِ قُطْبٍ مِثْلَ طَلَبَةِ الْعِلْمِ فِي الْقُرُونِ الْأُولَى، يَحْمِلُ وَرَقَةً
وَقَلَمًا، يُدَوِّنُ فِيهَا كُلَّ شَارِدَةٍ وَوَارِدَةٍ مِنْ أَقْوَالِ قُطْبٍ وَلَفَاتِهِ.

وَفِي شَقَّةٍ صَغِيرَةٍ بِمَنْطَقَةِ زَرَاعِيَّةٍ فِي عَزْبَةِ النَّخْلِ اسْتَقَرَّ الْمَقَامُ بِصَاحِبِنَا
«طَالِبِ الدِّينِ» وَكَانَ قَدْ تَعَرَّفَ عَلَى الشَّيْخِ الْأَزْهَرِيِّ عَلِيِّ إِسْمَاعِيلِ شَقِيقِ
الشَّيْخِ عَبْدِ الْفَتَّاحِ إِسْمَاعِيلِ (وَقَدْ أَعْدِمَ هَذَا الْأَخِيرُ مَعَ سَيِّدِ قُطْبٍ) وَمِنْ خِلَالِ
عَلِيِّ إِسْمَاعِيلِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْإِخْوَانِ تَعَرَّفَ صَاحِبُنَا طَالِبُ الدِّينِ عَلَى شَابِّينَ مِنَ
الشَّيْبَابِ الَّذِينَ أَقْبَلُوا مُؤَخَّرًا عَلَى «مَدْرَسَةِ سَيِّدِ قُطْبِ الْفِكْرِيَّةِ» وَلَمْ يَكُنْ عَوْدُهُمَا
قَدْ اسْتَقَامَ بَعْدُ، فَكَانَ صَاحِبُنَا طَالِبُ الدِّينِ يَجْلِسُ مَعَ رَفِيقَيْهِ الْقُطْبِيِّينَ يَشْرَحُ
لَهُمَا كِتَابَ «مَعَالِمِ فِي الطَّرِيقِ» وَيَفْتَحُ لَهُمَا الْمَغَالِيقَ الَّتِي وَقَفَتْ أَمَامَهُمَا مِنْ فِكْرِ
أَبُو الْأَعْلَى الْمَوْدُودِيِّ، كَانَتْ فِكْرَةُ الْمَعْصِيَةِ هِيَ الَّتِي تَسْتَحِذُ عَلَى تَفْكِيرِ هَذَا
الشَّابِّ، الْمَعْصِيَةُ هِيَ الَّتِي أَخْرَجَتْ آدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ، أَيْتَرَّبُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ خُرُوجُ
الْمُسْلِمِ مِنَ الدِّينِ؟ لِمَاذَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ النَّسَاءِ ﴿وَمَنْ يَعْصِ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ
مُهِينٌ﴾ هَذَا هُوَ قَوْلُ اللَّهِ، يَتَرَّبُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ الْخُلُودُ فِي النَّارِ، وَلَا يَخْلُدُ
فِي النَّارِ إِلَّا الْكَافِرُونَ، إِذَنْ الْمَعْصِيَةُ تُخْرِجُ الْمُسْلِمَ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَلَكِنْ هَلْ مِنْ
نُظْلِقُ عَلَيْهِمُ (الْمُسْلِمُونَ) هُمْ فِعْلًا يُؤْمِنُونَ بِالْإِسْلَامِ؟ إِذَا كَانُوا كَذَلِكَ فَلِمَاذَا

يتحاكمون إلى الطاغوت ولا يتحاكمون لله رب العالمين؟ ألا يعرفون قوله: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ كانت هذه هي الأفكار التي يعيش بها وفيها صاحبنا، وكانت هذه هي الأسئلة التي ظل يبحث عن إجاباتها عند سيد قطب، ثم أخذ يبيثها على مهل لصاحبيه وآخرين من شباب الإخوان، ومع ذلك فإن فكر سيد قطب وحده لم يشف غليل صاحبنا فأخذ يتردد على الكاتب محمد قطب شقيق سيد قطب، ومن خلاله استوت الأفكار واتضحت الرؤية، مَرَّتْ كَبُ الكُبيرة الذي لم يتب كافر وسيكون مخلدًا في النار، ولكن ما حال القرون الأولى التي جاءت بعد فترة الخلافة؟ وما مصير تلك الأمم التي ضلت السبيل بعد رسول الله ﷺ؟ لا شك أن من خطل الرأي أن نعتبرهم مسلمين، فالإسلام ليس كلمة تقال، ولكنه قول باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان، والعمل لا يجب أن تكون فيه معصية وإلا لكانت هذه المعصية قد هدمت «تصديق الجنان». ظلت هذه الأسئلة تلح على صاحبنا وتقض مضجعه، ومن أجلها استطاع التسلل إلى فيلا سيد قطب عدة مرات يسأله ويأخذ منه.

وفي هذا الجو المشحون بالرؤية والترقب وثق سيد قطب في هذا الشاب وفي ذات الوقت نشأت صلة طيبة بين «طالب العلم هذا» والحاجة زينب الغزالي التي كانت تلقب بـ «سفيرة سيد قطب» وحين تم كشف تنظيم قطب سنة 1965م الذي كان يستهدف اغتيال جمال عبدالناصر باعتباره رأس الجاهلية في القرن العشرين وفقًا لفقه سيد قطب، بدأت عمليات القبض على أفراد التنظيم، فكان أن فر هذا الشاب هاربًا حيث اختبأ في ضاحية من ضواحي القاهرة عند بعض معارفه من الإخوان المسلمين، وفي هذه الفترة كتب صاحبنا بعض أشعار عبّر فيها عن مشاعره وهو بعيد عن أهله تتنازع

ألف دسيسة
ومحس دسسين

الأهواء، فتارةً يَحْتَوِيهِ شُعُورُ الغُربةِ والضعفِ والهوانِ، وتارةً أُخْرَى يَقْبِضُ الإيمانُ على قلبه فيشعرُ وكأنَّه يَمْتَلِكُ الدُّنْيَا وما فيها.

ظَلَّ هذا الشابُّ مُحْتَبَبًا عِنْدَ رِفاقٍ لَهُ مِنَ الإِخوانِ حَتَّى إِذَا ضَيَّقَ عَلَيْهِ الخِناقُ اسْتَقَرَّ بِهِ المَقَامُ فِي مَسْجِدٍ مُنْعَزَلٍ حَيْثُ حَلَقَ لِحِيَّتَهُ وَقَصَّ شَعْرَهُ وَأَقَامَ فِي المَسْجِدِ كَمَقِيمٍ لِلشَّعَائِرِ وَمُؤَذِّنٍ لِلصَّلَاةِ، إِلَّا أَنَّ أَحَدَهُمْ شَكَّ فِيهِ فَأَبْلَغَ عَنْهُ فَتَمَّ القَبْضُ عَلَيْهِ وَأُودِعَ السِّجْنَ الحَرِيَّ مَعَ المَجمُوعَةِ الَّتِي تَمَّ القَبْضُ عَلَيْهَا، ثُمَّ انْتَقَلَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى عِدَّةٍ سُجُونٍ مِنْهَا أَبُو زَعْبَلٍ وَطُرَّة، وَلَا أَظُنُّ أَنَّ أَحَدًا كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الشَّابَّ سَيُغَيِّرُ تَارِيخَ الحَرَكَةِ الإِسْلامِيَّةِ وَسَيُظَلُّ أَثَرُهُ مُتَدًّا لِأَجْيَالٍ وَأَجْيَالٍ.



ألف رِسْمِيَّةٌ وخَمْسَةٌ رَسْمِيَّينِ

هَلْ هُنَاكَ مِنْ صِلَةٍ بَيْنَ عَامِ 1965 م وَأَعْوَامِ الرِّخَاءِ الإِخوانِيِّ فِي الفَتْرَةِ مِنْ ثَمَانِيَّاتِ القَرْنِ المَاضِي وَحَتَّى عَامِ 1992 م؟ ثُمَّ هَلْ هُنَاكَ مِنْ رَابِطَةٍ أَخَوِيَّةٍ بَيْنَ عَامِ 1965 م وَعَامِ 1986 م؟ كَانَتْ هُنَاكَ شَذَرَاتٌ صَغِيرَةٌ لَا تَدُلُّ بِذَاتِهَا عَلَى شَيْءٍ، فَوُجِئَتْ بِهَا وَلَكِنِّي لَمْ أُعْرِها اهْتِمَامًا، قُلْتُ إِنَّ الْأُمُورَ تَوُخَذُ بِقَدَرِهَا، وَكُنْتُ غَافِلًا عَنِ مَعَانِيهَا وَدَلَالَتِهَا، لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّ هُنَاكَ أَيَّ عِلَاقَاتِ نَسَبٍ أَوْ أَخَوَةٍ بَيْنَ السَّنَوَاتِ، هَذِهِ أَيَّامُ اللَّهِ، فَمَا صِلَةُ هَذَا العَامِ بِذَلِكَ العَامِ؟! وَلَكِنِّي إِذْ وَضَعْتُ يَدِي عَلَى أَوَّلِ الخِيْطِ بَدَأْتُ أُسْتَرِجِعُ تِلْكَ الشَّذَرَاتِ لِأَضَعَهَا فِي سِيَاقِهَا الطَّبِيعِيِّ، وَإِذَا كَانَ مُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرِّ فَإِنَّ مُعْظَمَ الْأَسْرَارِ يَكْشِفُهَا مُسْتَصْغَرُ الصَّدْفِ، هَكَذَا حَدَّثَنَا التَّارِيخُ.

فِي الثَّانِي والعَشْرِينَ مِنْ مَايُو 1986 م تُوُفِّيَ الْأُسْتَاذُ عَمْرُ التِّلْمَسَانِي مُرْشِدُ جَمَاعَةِ الإِخوانِ المُسْلِمِينَ، كَانَ عَمْرُ التِّلْمَسَانِي صَهَّامَ أَمَانٍ لِمَجْمَعَةٍ وَشُعْبَةٍ

ألف رِسْمِيَّةٌ وَثَلَاثِينَ رَسْمِيَّةً
ألف رِسْمِيَّةٌ وَخَمْسَةٌ رَسْمِيَّينِ
عَلَى أَلْفٍ رِسْمِيَّةٍ وَخَمْسَةٍ رَسْمِيَّينِ

ألف رِسْمِيَّةٌ وَثَلَاثِينَ رَسْمِيَّةً
وَعَمَّا نِسَبَةٍ

ووطن، هكذا قال عنه الصحفي الكبير إبراهيم سعدة يوم وفاته، وبقينا لم يكن إبراهيم سعدة يعلم الأمور المخفية في جماعة الإخوان، ولكنه مع ذلك قال كلمة حقيقية، فقبل وفاة المرشد عمر التلمساني أخذت بعض الأشباح تتسلل إلى جماعة الإخوان لتأخذ مكانا ومكانة، كانت هذه الأشباح تسيير في ركاب الحاج مصطفى مشهور الذي كان قد عاد إلى البلاد عام 1985 م بعد رحلة هروب استمرت عدة سنوات، وكان أخطر من حط رحاله في مصر قبيل وفاة عمر التلمساني هم « محمد مرسى، خيرت الشاطر، محمود عزت، محمد بديع » كانت وجوه هؤلاء غريبة على مجتمع الإخوان، إلا أن الحاج مصطفى مشهور أعطاهم منديل الأمان فجعل من محمود عزت مسئولا عن قسم أساتذة الجامعة بدلا من السيد عبدالستار المليجي، وتولى محمد بديع مسؤولية قطاع كبير من الصعيد بدلا من الحاج حسن جودة رغم أنه من المحلة الكبرى، وأسند لخيرت الشاطر ملفات مهمة إلى أن ولّاه مسؤولية القاهرة، وجعل من محمد مرسى أحد المسؤولين الكبار في الشرقية إلى أن تولّاها بدلا من الحاج سعد لاشين، وبهذا قفز عام 1965 م برجاله إلى عام 1986 م ليستبدل أفرادا ورؤى وتوجهات، والحق أن عام 1965 م لم يستول كلية على عام 1986 م فقد أتبع سياسة «خطوة خطوة» ولكنه أصبح يحكم الإخوان بعد ذلك.

أما سنة 1992 م فقد كانت من السنوات المؤثرة في تاريخ مصر، فهي سنة الزلزال، وهي عام نجاح الإخوان في انتخابات النقابة العامة للمحامين، كان نجاح الإخوان بمثابة صدمة لمؤسسات المجتمع المدني في مصر، فقد كانت نقابة المحامين عصية على الخضوع لهيمنة الإخوان بحسب أنها نقابة سياسية ليبرالية، ولذلك قالت صحيفة «الواشنطن بوست» الأمريكية في تحليل لها لنجاح

ألف دسمة دسمة
وثمانية

ألف دسمة دسمة
دسمة... ألف دسمة
دسمة وثمانية

ألف دسمة
دسمة دسمة

الإخوان: إنَّ هذا النَّجَاحَ هو الزَّلْزَالُ الحَقِيقِيُّ الَّذِي أَصَابَ مِصْرَ، وما حَدَثَ بعدَ ذلكَ مِنْ اهْتِزَازٍ فِي القِشْرَةِ الأَرْضِيَّةِ لِمِصْرَ هو بِمِثَابَةِ «تَوَابِعِ الزَّلْزَالِ الأوَّلِ».

بعدَ هذا النَّجَاحِ الزَّلْزَالِيِّ كُنَّا قَدْ عَقَدْنَا العِزْمَ عَلَى أَنْ نَخُوضَ انْتِخَابَاتِ النِّقَابَاتِ الفرعيةِ لِلْمُحَامِلِينَ كُلِّهَا، بِمَا يَشْبَهُ الزَّحْفَ المُقَدَّسَ، وَطَلَبْنَا مِنْ كُلِّ مُحَافِظَةٍ إِخْوَانِيَّةٍ أَنْ تُجَرِّيَ انْتِخَابَاتٍ دَاخِلِيَّةً لِاخْتِيَارِ مرشَّحِيهَا، وَفِي مُحَافِظَةِ القَاهِرَةِ كَانَ مِنْ المُقْتَرَضِ أَنْ نُشَكِّلَ قَائِمَةً مِنْ خَمْسَةِ أَفْرَادٍ، وَأُجْرِيَتْ الانْتِخَابَاتُ الدَّاخِلِيَّةُ، عَقَدْنَا هَذِهِ الانْتِخَابَاتِ فِي مَكْتَبِ جِمَالِ تَاجِ الدِّينِ بِمِنْطَقَةِ حِلْمِيَّةِ الزَيْتُونِ، وَأَسْفَرَتْ النَتِيجَةُ عَنْ نَجَاحِ خَمْسَةِ أَفْرَادٍ، وَلَمْ أَكُنْ مِنْ ضِمْنِ النَّاَجِحِينَ، لَمْ يَكُنِ التَّرْشِيحُ فِي هَذِهِ الانْتِخَابَاتِ مِنْ اهْتِمَامَاتِي، فَالْعَمَلُ الفِكْرِيُّ هُوَ الَّذِي يُحَرِّكُنِي دَائِمًا فِيمَا لَا يَسْتَهْوِينِي الْعَمَلُ الْحَرَكِيُّ، وَلَكِنْ حَدَثَ مَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحُسْبَانِ.

بعدَ انْتِهَاءِ عَمَلِيَةِ الْفَرْزِ وإِعْلَانِ مَنْ هُمُ الَّذِينَ سَيُمَثِّلُونَ الْإِخْوَانَ فِي هَذِهِ الانْتِخَابَاتِ، هَمَسَ عَاطِفُ عَوَادٍ فِي أذُنِي: أُرِيدُ أَنْ أَجْلِسَ مَعَكَ.

لَمْ أَعْرِفْ سَبَبَ الْعَصِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تُغَلِّفُ عِبَارَاتِ عَاطِفٍ إِلَّا أَنَّنَا جَلَسْنَا فِي سَيَّارَتِي أَسْفَلَ مَكْتَبِ جِمَالِ تَاجٍ... أَخْرَجَ عَاطِفٌ وَرَقَةً مَطْوِيَةً مِنْ جَيْبِهِ وَقَالَ: حَدَثَ الْيَوْمَ شَيْءٌ مُؤَسِفٌ.

قُلْتُ لَهُ مُسْتَفْسِرًا: خَيْرٌ، مَا الَّذِي حَدَثَ؟

فَتَحَّ عَاطِفُ الْوَرَقَةَ الَّتِي كَانَتْ مَعَهُ وَقَالَ: شَيْءٌ مُذْهَلٌّ لَمْ أَكُنْ أَتَوَقَّعُهُ.

قُلْتُ: هَاتِ مَا عِنْدَكَ.

عَاطِفٌ: وَفَقًا لِلنَتِيجَةِ الرَّسْمِيَّةِ نَجَحَ مَأْمُونٌ مَيْسَرٌ وَجِمَالُ تَاجٍ وَصَلَاحُ سَالِمٌ وَمُصْطَفَى زَهْرَانُ وَسَيِّدُ عَبْدِ الْعَزِيزِ.

أنا: أعرف! ثم ماذا؟

عاطف: اسمع هذه القصة... كنا في شرق القاهرة قد أجمعنا أمرنا على انتخابك عن الكبار، وسيد عبد العزيز عن الشباب، وبالفعل معظمنا صوّت لك. قلت: هذا الأمر لا يهمني.

عاطف: (اسمعني الله يخليك، الأمر على درجة كبيرة من الخطورة. أنا مستغرباً: أكمل إذن ما تريد قوله.

عاطف: عندما أعلنوا النتيجة لم نجد اسمك من ضمن الناجحين، فأنار هذا الأمر استغرابي وفضولي، فدلّفت أنا وممدوح أحمد إلى الغرفة التي قاموا فيها بتجميع الأصوات، وكان من حسن الحظ أن عثرنا على الورقة التي تم تدوين النتيجة فيها.

أنا مستفهماً: وماذا وجدتما؟

عاطف: النتيجة المعلنة مزورة يا صديقي!! جماعة الإخوان ارتكبت جريمة تزوير لتمرير شخص تريده بالذات!!

أنا متشككاً: مزورة! إخواننا يزورون الانتخابات! من هذا الشخص الذي تريد الجماعة أن تفرضه علينا؟

عاطف: واحد من الذين تربّوا في حضن الحاج مصطفى مشهور وهو أحد التابعين الأوفياء لمحمود عزت، وستجده ليل نهار جالساً عند خيرت الشاطر، (حاجة تقرف).

ثم قدّم لي عاطف الورقة التي كانت معه وقال: انظر في هذه الورقة. أمسكت الورقة التي قدّمها لي عاطف بيدٍ مرتعشة وأنا لا أكاد أصدق عيني.

الفصل السادس

الأخطبوط

شورزار قباني

لماذا أكتب؟ أكتب كما قال نزار قباني: كي أفجّر الأشياء، فالكتابة انفجار، كي ينتصر الضوء على العتمة فالكتابة انتصار، حتى أنقذ العالم من أضرار هولاء، ومن حكم الميليشيات، ومن جنون قائد العصاة، حتى أنقذ الكلمة من محاكم التفتيش، من شمشمة الكلاب، من مشانق الرقابة. أكتب كما قال الأديب التركي «أورهان باموك» أحد أشهر من فازوا بجائزة نوبل في الآداب: أكتب لأنني لا أستطيع أن أحمّل الحقيقة وحدي، ولأنني عزمت على مقاومة هذه الحقيقة.



غامت الدنيا أمام نظري وأنا أرى النتيجة الحقيقية، كنت حاصلاً على أعلى الأصوات، ولم يكن أحد الذين أعلن الإخوان نجاحهم ناجحاً، ورغم ذلك تبدلت النتيجة، ما أقسى أن يكون الواعظ لصاً، وأن يكون الكذاب داعية، كان التزوير الذي اكتشفه عاطف عواد مذهلاً لي، كنا نجلس في السيارة أسفل مكتب جمال تاج الدين إلا أنني شعرت وكأنني انفصلت

عن الدنيا وما فيها وجلستُ فوق سحابةٍ من الأفكار، لا أشعرُ بمنْ يجلسُ بجواري، ولا أسمعُ ما يقولُ، تزامحتُ الأفكارُ في رأسي وعادتُ ذاكرتي إلى الوراءِ خطوةً، تذكّرتُ واقعةً فجّةً حدثتْ قبلَ أن تُجرى عمليةُ الانتخاباتِ الداخليةِ التي اكتشفَ عاطفُ عوادِ تزويرها، كنتُ قد اصْطَحَبْتُ صديقاً لي يُدعى «عبدالهادي الأنصاري» إلى النقابةِ العامةِ للمحاميين قبلَ شهرينِ، وحينَ صعدنا إلى الدَّورِ العلويِّ للنقابةِ وجدتُ اشتباكاً لفظيّاً قائماً بين مختارِ نوحٍ وأحدِ المحامينِ من الإخوانِ المسلمين، كانَ هذا المحاميُّ مَسْئولاً عن منطقةٍ من مناطق القاهرة، وكانَ من المقرَّبينِ مِنَ الحاجِّ مصطفى مشهور، كانتِ العصبيةُ والخشونةُ تُحيطُ بكلماتِ هذا الأخ.

- الأخ المنفعل: (شُفَّ يا مختار) اعتبرْ أنني خارجُ أيِّ تصويتٍ داخلِ الجماعة، سأكونُ في قائمةِ المرشَّحين لفرعيةِ القاهرةِ سواءٌ انتخبني قسمُ المحامينِ أم لم ينتخبني.
- مختار: يا أخي، الذي سيحكمنا هو اللائحةُ، أهلاً بك في القائمةِ إذا انتخبك القسمُ، أمّا إذا لم ينتخبك فلا وجودَ لك، (المسألةُ مُشْ عافية).
- الأخ المنفعل: (المسألةُ عافية)، وأنا قادرٌ على إيقافِ أيِّ تصويتٍ يستبعدني، (بالبلدي أنا فيها أو أخفيها)

رَبَّتْ عَلَى كَتِفِ عَبْدِالْهَادِي الْأَنْصَارِيِّ وَأَخَذَتْهُ بَعِيداً عَنِ الْمَعْرَكَةِ الْكَلَامِيَّةِ، فَسَأَلَنِي:

إيه الحكاية؟! ما سببُ هذِهِ الْمَشَادَّةِ؟

قلتُ بامتِّعاضٍ: المسألةُ كما ترى، أنتَ تَعْرِفُ هَذَا الْأَخَ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ، هُوَ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ مَرَشَّحاً لِلْإِخْوَانِ فِي انْتِخَابَاتِ نِقَابَةِ الْقَاهِرَةِ الْفِرْعَوِيَّةِ.

الأنصاري: وما المشكلة في ذلك؟

أنا: المشكلة أن هناك لائحة داخلية تحكمنا، واللائحة توجب أن تتم انتخابات داخلية أولاً نختار فيها من سيكون مرشحاً عن الإخوان، وهذا الأخ يريد أن نتجاوز بخصوصه اللائحة، يريد أن يكون أعلى من أي اختيارات داخلية، يريد أن يكون مرشحاً سواء صوّتت له أم لم نصوّت.

تلاشت صورة عبد الهادي الأنصاري من خيالي حين هز عاطف عواد كتفي قائلاً: (انت فين؟ بكلمك وانت ولا كأنك هنا!).

قلت له وأنا أضع على وجهي ابتسامة ساخرة: كنت في دنيا أخرى، ماذا كنت تقول؟

عاطف: كنت أقول إن هذه ليست أول مرة في التزوير، وما خفي كان أعظم.

أنا: تقصد أحمد سيف الإسلام حسن البناء؟

عاطف: هو بعينه.

أنا: ولكن واقعة سيف الإسلام لا تعتبر تزويراً أنا أضعها في خانة خوض الانتخابات بالإكراه رغم أنف الجميع.

عاطف: التزوير له صور متعددة يا صديقي، سيف الإسلام خاض انتخابات نقابة المحامين دون إرادة محامي الإخوان، في التصويت الداخلي لم يحصل إلا على صوته هو فقط، صوت واحد! رسب رسوباً كبيراً! ولعلك تذكر أن أحداً لم يكن يريد، بل كنا نجهل أنه يعمل بالمحاماة أصلاً.

أنا: بل لم يمارس المحاماة حقيقة، نعم هو مقيد في جدول المحامين ولكنه لم يعمل بالمحاماة.

عاطف عواد: ومع ذلك فرضه الحاج مصطفى مشهور علينا بالإكراه مع سبق الإصرار والترصد.

قلتُ ساخراً: نعم قال لنا رأيكم لا قيمة له، ولوائحكم تلزمكم ولا تلزم الجماعة، وسيف الإسلام هو ابن حسن البنا وسيكون مرشحاً في النقابة العامة وافقتم أو رفضتم.

عاطف عواد: هل تذكر كيف اعترضنا عليه؟ وكيف غضبنا على إلغاء إرادتنا، حتى أنني ومعي خالد بدوي كنا في قمة الثورة من فرضه بالقوة. أنا: يا عم عاطف، ثوروا، انفعلوا، لكن الرأي لم يكن رأينا، والقرار لم يكن قرارنا.

عاطف: نعم صدقت، فهذا هو يجلس في نقابة المحامين، يرتكب فيها جرائم سياسية، ويبرم اتفاقات سرية مع خصوم الإخوان، ويستخدم موقعه كأمين عام للنقابة في تعويق كل المشاريع التي تقدمها لخدمة المحامين!! أنا: لعنة الله على الانتخابات وتبعاتها، إنهم يقودون الجماعة بعيداً عن دورها الحقيقي في الدعوة، والله يا عاطف إن النفس تمج هذه الألاعيب التي لا تتناسب مع وقار الجماعة.

عاطف عواد: أنا لن أسكت، سأقلبها على رؤوسهم، هؤلاء ليسوا الإخوان المسلمين، ولكنهم «الإخوان المزورون».

أنا: إبعذني يا عاطف عما ستفعل، أنا أصلاً لم يرد في بالي أن أكون مرشحاً، تعرف أنني أحب إدارة الانتخابات لا خوضها.

بعد أيامٍ من هذه الواقعة كانت الدنيا قد تغيّرت قليلاً، فأثناء سفر مختار نوح ومعه مجموعةٌ من قِسم المحامين إلى الإسكندرية في القطار، ثار عاطف عواد على مختار، وتحدّث عن التزوير الذي حدّث، وحينما عادوا من الإسكندرية اجتمعوا ولم أكن معهم، وحللاً منهم للمشكلة التي حدثت والتزوير الذي افتضح أمره؛ قرّروا تعديل النتيجة وإعلان سقوط «الأخ التابع للحاج مصطفى مشهور» ونجّاحي بدلاً منه.

وفي اليوم التالي لهذا القرار مباشرة صدر قرارٌ من مكتب الإرشاد بزيادة عدد المرشّحين للنقابة الفرعية بالقاهرة إلى ستة أفراد بدلاً من خمسة، على أن يكون الأخ السّاقط «التابع للحاج مصطفى مشهور» من ضمن أفراد قائمة المرشّحين!! لم أفهم إصرار مكتب الإرشاد على هذا الأخ رغم قلة إمكانيّاته، ووقع في ذهني أن الولاء عندهم مقدّم على الكفاءة، وفيما بعد عرفت أن عام 1993 هو العام الذي شهد عودة «النظام الخاص» للجماعة.

ألفه وسمّيه
ولمّا نية وسمّيه

تبّاً لهذا النظام الخاص وأيامه، ليتك لم تنشئه يا بنتاً، أسسته عام 1939 بعيداً عن أعين الجماعة المدنيّة وجعلته سرّياً ووضعت على قيادته رجالاً لا يفقهون فوضعوا السيف في موضع النّدى، قتلوا وفجّروا واغتالوا، كلّ باسم الإسلام، حتّى إنهم قتلوا أحد أفراد الجماعة دون أن يكون لديهم ذرّة من دين أو خلق، قتلوا سيد فايز وابنته، إذا فرض وكان سيد فايز أجرم في حقهم جدلاً، وإذا فرض وكان جرمه يوجب قتله، فما ذنب تلك الطفلة الصغيرة التي غلّفوا لها الموت ووضعوه في علبة حلوى وأعطوها الهدية المفخّخة، وما إن فتح فايز الهدية حتّى انفجرت فيه وفي ابنته فماتا وهما يشتيكيان تلك القلوب

ألفه وسمّيه
ولمّا نية وسمّيه

الفاجرة، ولكن هل فعل النظام الخاص شيئاً غريباً عليه عندما اغتال تلك الطفلة؟ لقد كان يُعبرُّ عن نفسه، الموت المغلف داخل علبه حلوى، مظهر العلب من الخارج جميل ومبهر، سيحبُّ الشعب هذه الهدية، سيقولون: إنها «فاقع لوئها تسرُّ الناظرين» سيأخذون الهدية في أحضانهم ولكنهم لا يدرون أنهم يحتضنون الموت، هدية النظام الخاص لمصر مثل العلب القاتلة، هدية مغلفة بالدين وآيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ، ولكن الموت يسكن داخلها.

كلنا يظنُّ أن أيام النظام الخاص ولَّت ولن تعود ثانية، ستذكرُ ندَم الإمام الشهيد حسن البنا على إنشاء النظام الخاص، سنسمع ذكريات الأستاذ فريد عبد الخالق وهو يحكي لنا أن حسن البنا قال له وهما يتمشيان ليلاً على كوبري قصر النيل بعد اغتيال النقراشي: لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ ما أنشأتُ النظام الخاص، ذلك النظام الذي مازال معظم الإخوان يجهلون وجوده وتحكمه في مصير الجماعة حتى الآن، نعم توقف بضع سنوات ولكن بعد وفاة الأستاذ عمر التلمساني بدأت جيوش النظام الخاص تعود إلى سيرتها الأولى، ألم أقل: إن إبراهيم سعدة كان محققاً عندما قال: إن عمر التلمساني كان صمام أمان جماعة وشعب ووطن!

ومن أجل عيون الحاج مصطفى مشهور ورجاله من أفراد النظام الخاص يتم تزوير الانتخابات الداخلية في الإخوان، فقد كان هذا الأخ التابع للحاج مصطفى مشهور أحد أفراد النظام الخاص الجديد، في ثوبه المخيف، ثوب الأخطبوط.



١٩٩٣ يُعْلِنُ عَنْ نَفْسِهِ، يَقُولُ: أَنَا عَامٌ مَا بَعْدَ الزَّلْزَالِ، أَنَا عَامٌ تَوَابِعِ الزَّلْزَالِ، أَنَا الْعَامُ الَّذِي سَيَتَسَرَّبُ مِنْهُ بَصِيصٌ ضَوْءٌ خَافَتِ، وَلَكِنْ مَنْ سَيَصِلُ إِلَيْهِ هَذَا الْبَصِيصُ لَنْ يَنْتَبِهَ لَهُ، سَيَظُنُّ أَنَّهُ لَا شَيْءَ، وَلَكِنْ بَعْدَ سَنَوَاتٍ سَيَدْرِكُ أَنَّ جُزْءًا مِنَ السَّرِّ الْغَامِضِ كَانَ تَحْتَ يَدَيْهِ، الْآنَ بَعْدَ هَذِهِ السَّنَوَاتِ أَرَانِي كِيُوشَعَ بْنِ نُونٍ فَتَى مُوسَى عليه السلام، لَمْ يَدْرِكِ الْحَقِيقَةَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَجَاوَزَ مَكَانَ «كَشْفِ الْحَقِيقَةِ»، خَرَجَ سَيِّدُنَا مُوسَى مَعَ الْفَتَى «يُوشَعَ» قَاصِدَيْنِ مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ فِي رِحْلَةٍ بَحْثُهُمَا عَنِ الْعَبْدِ الصَّالِحِ رَجُلِ الْحَقِيقَةِ، يَحْمِلَانِ سَمَكَةً فِي سَلَّةٍ، انْطَلَقَا بَحْثًا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ، وَاتَّجَّهَا إِلَى الْمَكَانِ الْمَحْدَدِ حَتَّى إِذَا وَصَلَا إِلَيْهِ وَجَدَا صَخْرَةً كَبِيرَةً مُسْتَوِيَةً، وَكَانَا قَدْ أَحْسَا بِالْتَّعَبِ، فَوَضَعَا رَأْسَيْهِمَا، وَغَرَقَا فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ. وَهَنَاكَ أَنْسَلَ الْخَوْتُ (السَّمَكَةُ) مِنَ السَّلَّةِ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا.. حَدَّثَ هَذَا الْأَمْرَ الْمَعْجِزَةَ وَهُمَا نَائِمَانِ، فَكَانَ أَمْرًا عَجَبًا إِذْ كَانَتِ السَّمَكَةُ مَشْوِيَةً، ثُمَّ انْطَلَقَا بَعْدَ ذَلِكَ سَائِرَيْنِ بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِمَا وَيَوْمَئِذٍ فَلَمَّا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ، وَأَسْفَرَ وَجْهُ النَّهَارِ قَالَ مُوسَى عليه السلام لِفَتَاهُ: «أَتَنَا غَدَاءَنَا، لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا» نَظَرَ فَتَاهُ فِي السَّلَّةِ فَلَمْ يَجِدِ الْخَوْتَ - فَقَالَ لَهُ: «أَرَأَيْتَ إِذَا أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْخَوْتَ» قَالَ لَهُ مُوسَى عليه السلام: فَذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِيهِ إِذْ إِنَّا سَنَلْتَقِيَ الرَّجُلَ الَّذِي وَعَدْنَا بِهِ فِي الْمَكَانِ الَّذِي نَفَقْدُ فِيهِ الْخَوْتَ، سَنَلْتَقِيَ بِالْحَقِيقَةِ.... وَشَتَّانَ بَيْنَ الْعَبْدِ الصَّالِحِ رَجُلِ الْحَقِيقَةِ، وَالْعَبْدِ الْإِخْوَانِيِّ رَجُلِ الْأَسْرَارِ، وَمَا كَانَ فِي ظَنِّي وَقْتُهَا أَبَدًا أَنْ يَكُونَ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ عَزْتَ عَضْوُ مَكْتَبِ الْإِرْشَادِ هُوَ الْمُؤْتَمِنُ عَلَى خَزِينَةِ أَسْرَارِ الْإِخْوَانِ الْبَاطِنِيَّةِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ هُوَ. كَانَتْ مِصْرُ تَعِيشُ شُهُورًا مَا بَعْدَ الزَّلْزَالِ، وَيَبْدُو أَنَّ الزَّلْزَالَ تَرَكَ بَصْمَتَهُ

على كل شيء في مصر، عندما توالَّت الخلافات في النقابة العامة للمحامين بين أحمد سيف الإسلام حسن البنا ومختار نوح حتى وصلت الأمور إلى حدٍّ لا يطاق، قرَّرتُ أن أفعل شيئاً، اتَّفقتُ مع عاطف عواد على زيارة الدكتور محمود عزت عضو مكتب الإرشاد كي يساعِدنا بما له من حُظوة في الجماعة على وضع حدٍّ للخلافات التي كادت أن تُوقِفَ العمل في نقابة المحامين، وفي معمل التحاليل الطَّبيَّة الذي يملكه محمود عزت في «عمارة الميريلاند» بمصر الجديدة جلسنا نتحدَّث، وبعد أن سرَدنا له طرفاً من المشاكل والمعوقات التي تُسبِّبُ فيها أحمد سيف الإسلام حسن البنا في أنشطة الإخوان المسلمين بالنقابة، طلبَ مِنَّا الرَّجُلُ أن نخرُجَ معاً لتحدَّث بحريَّة خارجَ معمله، في الطريق العام!! ونزلنا بالفعل من مقرِّ معمله إلى حديقة الميريلاند، وأخذنا نتجوَّل حولها ونحن نتحدَّث.

قال محمود عزت بعد فترة صمتٍ صاحِبتهُ مذُخرُنا مِن معمله: كُلُّنا طبعاً يَعْلَمُ طَبِيعَةَ شَخْصِيَّةِ سيف الإسلام، ونَعْرِفُ أَنَّهُ سَيِّئُ المشاكل، ولكن سيف لن يبقَى في النقابة كثيراً، نحنُ أردنا مِن نَزولِهِ في الانتخابات استثمارَ شَعْبِيَّتِهِ ليسَ إلَّا، والدَّه حسنُ البنا صَنَعَ لِنَفْسِهِ شَعْبِيَّةً غَيْرَ مَسْبُوقَةٍ في التاريخ الحديث، فَاقَتْ شَعْبِيَّةَ جمالِ عبد الناصر وغاندي، لا يَوجَدُ أَحَدٌ في العالم إلَّا وهو يَعْرِفُ مَنْ هُوَ حَسَنُ البنا، ولَعَلَّكَ يا أَخ ثروت قرأتَ مذكَّراتَ الشهيد سيد قطب رحمه الله، تِلْكَ المذكَّراتُ التي قالَ فيها: إِنَّهُ حينما كانَ في أمريكا وعَرَفَ بخبرِ مقتلِ حسن البنا وَجَدَ أَنَّ كُلَّ مَنْ كانُوا في المستشفى التي دَخَلَهَا للاستشفاء من مرضِ صُدْرِهِ أَبَدُوا سَعَادَتَهُم لمقتله.

- أنا: قرأتُ هذا في كتاب الأستاذ محمود عبد الحليم «الإخوان المسلمون أحداثٌ صنعت التاريخ».

إسترسل محمود عزت قائلاً: اسمُ حسنِ البنا كان كفيلاً بفوز قائمة الإخوان، يكفي أنه والدُ الشخص الذي وضعناه على رأس القائمة.

: نحنُ نستثمر اسمَ حسنِ البنا.

:- إعادة طُرح اسمِ حسنِ البنا بقوة هي الوسيلة التي ستضمن لنا «التمكين» دون أن نكون غُصةً في حلق المجتمع.

:- لا يهمننا النقابة عندكم أو أي نقابة أخرى فكلها وسائل، والوسائل تُقدَّر بقدرها.

:- فلتفشل نقابة المحامين أو تذهب في داهية، ولكن المهم أن ننجح في

تنفيذ فكرتنا.

وقبل أن يسترسل مرة أخرى قاطعه عاطف عواد بحماسة المعهودة: نحنُ أبناءُ حسنِ البنا نؤمنُ بأفكاره ولكننا لسنا أبناء سيف الإسلام حسنِ البنا، والأخ سيفٌ تعددت أخطاؤه، وسيكون عبئاً على الجماعة.

محمود عزت: نحنُ شعبٌ لا ينظرُ إلى الأخطاء ولكنه يهتمُّ بالأسماء، أنسوا هذه الخلافات وينبغي أن يكون اهتمامكم بمنطقتكم أعلى من اهتمامكم بقسم المهنيين، فالمناطق الإخوانية هي الأصل، وطريقنا إلى التمكين ما زال طويلاً.

ثم أضاف: (يا أخ عاطف)، لا تقل أبداً إننا أبناء حسن البنا أو إننا نؤمن بأفكاره، ولكن قل: إننا أبناء جماعة الإخوان، نؤمن بأفكارها، (يا أخ عاطف) لكل زمن رجال، والرجال يتغيرون ويموتون، ولكن الجماعة لن تموت أبداً. كانت بداية الجماعة مع حسن البنا ثم مات، واستمرت الجماعة حية، ثم دخلها سيد قطب، ومات، واستمرت الجماعة حية، ثم دخل إلى الجماعة رجال عظماء سبّسأهم التاريخ، وسيعتبرهم العلمانيون خارجيين عن الإسلام، ولكن خلايا الجماعة لم تتجدد إلا بهم.

ثقوا أننا أهل الحقيقة وما نأخذه من قرارات إنما يكون أبعد نظراً مما تتخيلون.

لم استطع عقلي ولا عقل عاطف عواد وقتها أن يستكشف بواطن كلمات محمود عزت، أُلقيت أمامنا كلمة سر الجماعة ولكن استغرقنا في مشكلة نقابة المحامين حجب عنا بصيص الضوء، وبعد سنوات من هذا الحوار، وحينما خرجت من الجماعة، أخذت أبحث عن كنز الإخوان المخبوء، ما هو سرها الذي تخفيه عن الدنيا؟ وحين عُدت إلى كثير من الأحداث التي رافقت رحلتي، تذكرت كلمات محمود عزت، فوضعتها في ترتيبها المنطقي، فكادت كلمة السر أن تقفز أمام عيني.



الكلمة بجوار الكلمة جملة، والجملة بجوار الجملة حكاية، والحكاية لها بداية، والبداية لا بد وأن يكون لها نهاية، ولكننا مازلنا في البداية، ولذلك

سَأَضَعُ الْجُمْلَةَ تَحْتَضِنُ الْجُمْلَةَ بَحْنَوٍّ وَدَعَةٍ، وَمَعَ ذَلِكَ لَنْ تَكُونَ النِّهَايَةُ مُتْرَعَةً
بِالْعُدُوبَةِ، فَحَيْثُ الْوُجُوهُ الْعَابِسَةُ وَالْأَفْكَارُ الْعَابِثَةُ لَا يَكُونُ إِلَّا الْأَلَمُ.

أَسْعَى لِلْكَلِمَةِ الْأُولَى مِنَ الْجُمْلَةِ الْأُولَى فَأَجْرِي وَرَاءَ عَامِ 1996 قَبْلَ أَنْ
يُغَادِرَ الدُّنْيَا وَيَتْرَكَ مَحْطَّتَهُ لِيَحُلَّ مَحَلَّهُ عَامَ 1997 وَحِينَ أَنْظَرُ إِلَيْهِ أَجْدَهُ يَقُولُ
هُوَ الْآخِرُ: هَا أَتَذَا، فَفِي هَذَا الْعَامِ تَمَّ فَرَضُ الْحِرَاسَةِ عَلَى نَقَابَةِ الْمُحَامِينِ وَتَمَّ
إِحَالَةُ عَدَدٍ مِنَ الْإِخْوَانِ لِلْمَحَاكِمِ الْعَسْكَرِيَّةِ، ثُمَّ أَخَذَتِ الْخُطُوبُ تَتَوَالَى عَلَى
جَمَاعَةِ الْإِخْوَانِ، وَمَا تَوَالَتْ الْخُطُوبُ إِلَّا بِسَبَبِ التَّيْسِ الَّذِي أَصَابَ شَرَايِنَ
التَّنْظِيمِ، وَلَكِنْ هَلْ كَانَ تَيْسًا، أَمْ عُبُوسًا، أَمْ فِكْرًا غَرِيبًا مَجْهُولًا لَا نَعْرِفُ كَيْفَ
تَسَلَّلَ إِلَى قَلْبِ الْجَمَاعَةِ؟! تُخْفِي الْجَمَاعَةُ الْإِجَابَةَ فِي كَهْفِهَا السَّرِّيِّ، وَأَبْوَابُ
الْكَهْفِ مَغْلُقَةٌ فِي وَجْهِ الدُّنْيَا، تَنْتَظِرُ مَنْ يَمْلِكُ الْقُدْرَةَ عَلَى «تَحْلِيلِ الرُّمُوزِ».

أَخَذَتِ الْأَيَّامُ تَمُورُ بِالْأَحْدَاثِ وَالْحَاجُّ مُصْطَفَى مَشْهُورٌ يَنْطَلِقُ كَحِصَانِ
السَّبْقِ يُطْلِقُ التَّصْرِيحَاتِ الَّتِي لَا تُعْبَرُ عَنْ حَقِيقَةِ الْفِكْرِ الَّذِي اسْتَقَرَّ فِي
ضَمِيرِي وَالَّذِي أَخَذَتْ مُعْظَمَهُ مِنْ بَعْضِ كِبَارِ دُعَاةِ الْإِخْوَانِ، قَالَ فِي حِوَارٍ
لَهُ فِي إِحْدَى الصُّحُفِ: «مَنْ يُعَادُونَ الْإِخْوَانَ إِنَّمَا يُعَادُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ». ثَارَ
الْمُفَكَّرُونَ وَالسِّيَاسِيُّونَ وَاعْتَبَرُوا هَذِهِ التَّصْرِيحَاتِ تَكْفِيرًا لِمَنْ يُخَالِفُ الْإِخْوَانَ
فِي الرَّأْيِ، وَالْإِخْوَانُ وَكَأَنَّهُمْ يَعِيشُونَ فِي وَادِي الصَّمِّ وَالْبُكْمِ، لَا أَرَى
لَا أَسْمَعُ لَا أَتَكَلَّمُ، وَلَكَّأَنَّمَا كَانَتْ الْقَضَايَا الْعَسْكَرِيَّةُ الَّتِي حَوَّكَمُ الْإِخْوَانُ
بِشَأْنِهَا لَمْ تَطُورْ «قَدْرًا مِنَ الْغُلُوفِ فِي بَاطِنِهَا».

تَنْتَهِي الْجُمْلَةُ الْأُولَى فَأَسْعَى لِلْكَلِمَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ، فَفِي الثَّالِثِ
مِنْ إِبْرَيْلِ عَامِ 1997 خَرَجْتُ إِلَى الْحَيَاةِ إِحْدَى عَجَائِبِ الْحَاجِّ مُصْطَفَى، فَقَدْ

صَرَخَ فِي جَرِيدَةٍ «أهرام ويكلي» للصحفي خالد داوود أنه لا يجوز دخول الأقباط إلى الجيش لأنه سيكون مشكوكاً في ولائهم وأنه بدلاً من ذلك يجب أن نلزمهم بسداد الجزية!!

جملةٌ بجوار جملةٍ، يخرج منها معنى.. أصابنا الدهول في قسم المحامين، ولكننا أراد الحاج مصطفى إعلان الحرب على الجميع، جزية!! جزية يا حاج مصطفى!! ما هذا الكلام الذي قلته، وبعد أيام من انتشار خبر هذا التصريح أقام أحد المحامين من زملائنا الأقباط اسمه نجيب نصيف جُنحة قذف في حق الحاج مصطفى أمام محكمة جنح النزهة، وأنضم إليه عدد من المحامين الأقباط.

ذهبنا إلى المحكمة ندافع عن الحاج مصطفى بظهور محنية حذباء، فتصر يحاته قائلها بالفعل ولا سبيل إلى إنكارها، خاصة وأن الصحفي قام بتسجيل الحوار، وفي الجلسة الأولى قمنا بتأجيل الجُنحة للبحث عن سبيل للصلح، واستطعنا من خلال صداقتنا بالعديد من المحامين الأقباط تخفيف حدة التوتر التي غيمنت على الأجواء، ونجح مختار نوح في ضم عدد من المحامين الأقباط إلى صف المحامين المؤكدين عن الحاج مصطفى، قلنا: لعل هذا يحدث قدراً من التوازن، ولكن ظل نجيب نصيف عنيداً صعب المراس لا يقبل الصلح أبداً، اقترحنا على الحاج مصطفى توكيل الأستاذ رجائي عطية المحامي الكبير للمرافعة عنه، وكنا نعرف أن الأستاذ رجائي له حضوره وتأثيره، كما قدرنا أن نجيب نصيف سيكون لينا مع الأستاذ رجائي في أمر الصلح لما للأستاذ رجائي من مكانة لدى عموم المحامين.

وفي سبيل إعداد الصِّلح ذهبتُ مع مختار نوح وعددٍ من قيادات «قسم المحامين» لمقابلة الحاج مصطفى، لم أترك في الحوار الذي دار، فقد كان مختار نوح هو الذي يناقش ويعقب ويقترح، وكنت أهدق في المشهد الذي يجري أمامي وكأنني أشهد لوحةً سرّاليةً غير مفهومة، إلا أنني لم أستطع أن أغض الطرف عن عبارات غريبة مَوْغلة في التطرف نطق بها الحاج مصطفى، كانت عباراته هي الكلمة الثالثة في الجملة الثالثة، ومنها اجتمعت الحكاية وتضافرت:

- أفوضك يا مختار أن تفعل ما تراه مناسباً وأن تقول على لساني ما تشاء، قولوا في الصِّلح ما تريدون، ولكن هذا لا يغيّر من الأمر شيئاً ف «النصارى» يجب أن يدفعوا الجزية، ولا يجوز إدخالهم الجيش، فكيف يدخلون الجيش ويدافعون عن مشروعي الإسلام؟ وهم لا يؤمنون بالإسلام، الجزية رحمة بهم، وهذا هو تشريع الله، هل نغيّر من تشريع الله!!.

لا يجوز أن نقول عنهم إنهم «مسيحيون» فالله لم يقل عنهم هذا، هم نصارى، أو أقباط أو صليبيون.

هؤلاء الأقباط ليسوا من أهل الكتاب بل هم من المشركين، ولا يجوز الزواج منهم ولا أكل طعامهم.

لا يجوز أن نلقي عليهم السلام ونقول لهم تحية الإسلام: «السلام عليكم».

كأن أحداً لطمني على وجهي، ما هذا الكلام!! أنا في الإخوان أم في جماعة من جماعات التكفير!! هل ضللت قدمي الطريق فأوردتني موارد التكفير،

شعرتُ في الحاجِّ مصطفى في هذا اليوم قسوةً ولا مبالاةً وكأنَّه يعيشُ في دُنْيا أُخرى، قلتُ لمختار نوح ونحنُ في طريقِ عودتنا من هذا اللقاء:

- ما خطُّكَ؟

- سنتركُ أمرَ إدارةِ الدفاعِ والصِّلحِ للأستاذِ رجائي وسنقترحُ أن يكتبَ الحاجُّ مصطفى بيانًا يقولُ فيه: إنَّه لم يقصدْ هذا الكلامَ.

- وهل سيقبلُ الزميلُ؟

- في الغالبِ سيقبلُ إن شاء الله.

- هل أنت مع الحاجِّ مصطفى في أفكاره التي قالها لنا؟

- لا لستُ مع هذا الكلامِ أبدًا، ولكنَّ هذا الرَّأيَ له وجودٌ قويٌّ داخلُ الجماعةِ، الجزيةُ تكادُ تكونُ هي الرَّأيُ الراجحُ لدى الإخوانِ، وستجدُ أشياءَ أُخرى كثيرةً خاصَّةً عدمَ جوازِ الزَّواجِ من المسيحيَّاتِ باعتبارِهِنَّ مُشْرِكَاتٍ لا كتابياتِ.

- مَنْ يقولُ هذا من الإخوانِ؟

- كثيرونَ، حتَّى الأستاذُ عبد المتعالِ الجابري.

- هل هذا معقولُ؟

- هذه الأفكارُ متشيرةٌ في الحركةِ الإسلامية، الحركةُ الإسلاميةُ تحتاجُ يا ثروت إلى إعادةِ اجتِهَادٍ، مُعْظَمُ مَا يَقَالُ في هذا الشَّأنِ ليس من الشريعةِ ولكنَّه من الفقه، العالمُ الإسلاميُّ يحتاجُ إلى ثورةٍ فقهيةٍ تنسفُ القديمَ نسفًا.

- وَمَا رَأَيْكَ فِيما قَالَه بِشَأْنِ عَدَمِ جَوَازِ إلقاءِ السَّلامِ على المَسيحِيِّينَ.
- مُعْظَمُ الفِقهَةِ يَقولُ ذَلكَ وَلَكنْ هُنَاكَ آراءُ أُخرى لَهَا قِيميَّتُها تَقولُ عَكْسُ هَذا، اِقْرَأْ لِفِصْلِ مَولَوي في هَذا سَتَجِدُ لَهُ كَلاماً قِياً.
- وَلَكنْ كَيفَ نَسَكْتُ على مِثْلِ هَذهِ الآراءِ؟!!
- هِيَ مُجَرَّدُ آراءٍ، لا تَعْدُو إِلَّا أَنْ تَكونَ كَذلكَ حَتَّى ولو كَانَتْ لَهَا الغَلَبَةُ بَينَ المُتَدِينِ، وَقد تَكونُ أَفكارُ سَيدِ قُطبِ وَأبي الأَعلَى المودودي هِيَ الَّتِي تَسبَبَتْ في انْتِشارِ هَذهِ الأفكارِ.
- وَالوَهَابِيَّةُ؟
- الوَهَابِيَّةُ سَاعَدَتْ أَيضاً، هَذهِ الأفكارُ لَمْ تَكُنْ مَوْجُودَةً في مُجْتَمَعاتِ مِصرَ في نِهايَاتِ القَرْنِ التَّاسِعِ عَشرَ وَبِدايَاتِ القَرْنِ العَشرِينَ، وَلَكنَّها ظَهَرَتْ في السَّتينِياتِ ثُمَّ انْتَشَرَتْ بِقُوَّةٍ في السَّبِعينِياتِ وَالثَّمانِينِياتِ.
- لَكَ اللهُ يا مِصرَ، أَفتُكُ في المُتَدِينِ مِن رِجالِكَ، أَخَذْتُ أَبْحَثُ بَعْدَ ذَلكَ عَن بَحْثِ الشَّيخِ «فِصْلِ مَولَوي» الَّذِي أَخْبَرَنِي عَنْهُ مُختارُ نوحَ، فَوَجَدْتُهُ، قَرَأْتُهُ بِعَنايَةٍ وَجَمَعْتُ أدِلَّتَهُ ثُمَّ قَرَرْتُ أَنْ أَتَحدَّثَ بِشَأْنِهِ في إِحدى الكُتائِبِ الشَّهرِيَّةِ لِلإِخوانِ، إِلَّا أَنَّ عَاطِفَ عَوادِ أوقَفَنِي.
- القَضِيَّةُ الَّتِي سَتُثيرُها حَسَّاسَةٌ لَدَى الإِخوانِ وَيجِبُ أَنْ تَتَخَيَّرَ الوَقتَ المُناسِبَ لِطَرَحِ فِكرَتِكَ.
- وَلَكنَّها لَيسَتْ فِكرَتِي، لَاحِظْ أَنَّ فِصْلَ مَولَوي مِن كِبارِ الإِخوانِ في لَبْنانِ.

- أنا نفسيًا أسترِيحُ لرأيه ولكن ما سَنَدُهُ.

- (يا عم عاطف) الأصل في الأشياء الإباحة.

- ضحك عاطف: وفي الإخوان الأصل في الأشياء الإباحة، ولكنني أريدُ أن أعرف تفصيلات رأيه

- الحقيقة يا عاطف أن هناك مَنْ يُحرِّمُ السَّلامَ على أهل الكتاب مُستندِينَ إلى حديثٍ للرسول عليه الصلاة والسلام دُونَ فَهْمٍ أو إدراكٍ لفقهِ الحديث وهو الأمر الذي حَذَّرَ منه الشيخُ الغزالي في كتابه (السُّنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث) فأجاز مولوي السَّلامُ مُستنداً في ذلك إلى أسانيدٍ عديدةٍ في القرآن والسُّنة ومنها قولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِبَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ ولفظُ بيوتٍ وأهلها هنا جاءَ على العموم، وقد لا أستطيعُ يا عاطفُ استعراضَ كلِّ بحثِ الشيخ فيصل مولوي الآن في جلستنا هذه بحججه وأسانيده، ولكنني سأعطيك نسخةً من هذا البحث.

- كلامه منطقيٌّ جدًّا، ولكنني أنصحك بعدم إثارة هذا الموضوع الآن في الإخوان لأن أصحاب العقول «المقفولة» أصبحوا جُمهرةً.

- جُمهرة (ويمكن جُمهورية) ولكنني سأثيرُ هذا الكلام في أولِ كتيبة، وقد أثيره في لقاء الأسرة أولاً.

- (ربنا يسترُ عليك)، سيضعون تحت اسمك عدة خطوطٍ حمراء.
والآن وبعد كل هذه السنوات وبعد أن فتحت أبواباً من المناقشات داخل
منطقتي الإخوانية حول هذا الموضوع بتفصيلاته بما فيها الآراء التي سمعتها
من الحاج مصطفى مشهور أستعيد القصة مرة أخرى، وأضع الكلمة بجوار
الكلمة والجملة في حُضْن الجملة، وأبحث عن الحكاية الحقيقية.



ألف بسم الله الرحمن الرحيم

داخل عنابر سجن طرة عام 1966 جلس صاحبنا الشاب الغريب
الغامض أبيض الوجه غائر العينين صاحب الشعر الأسود المفروق من
المنتصف يستمع إلى الشيخ الأزهرى علي إسماعيل وهو يشرح الآية الكريمة
من سورة الجن: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا
أَبَدًا﴾ كان درس الشيخ علي إسماعيل مؤثراً بليغاً، بعدها انكب الشاب
على دراسة فقه المعصية، استهوته أفكار الخوارج، فقد كانت الآيات التي
قرأ تفسير الخوارج لها تدل على أن مرتكب المعصية الذي لا يتوب سيخلد
في النار أبداً، وهما هي إحدى الآيات التي تتحدث عن الربا، أخذ الشاب
يقرأ الآية على مهل ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي
يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ﴾ أخذ الشاب يسترسل في القراءة إلى أن وصل إلى قوله:
﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الفكرة الآن في
طريقها للاستواء في ذهن الشاب الغامض، المسلم إذا أقرض مسلماً بالربا
فإنه سيخلد في النار، إذن المعصية تؤدي إلى الخلود في النار!! وليس الكفر

فقط، ذهل الشاب وهو يقرأ لأحد الخوارج تفسيره لآيات الميراث، نهاية الآية واضحة أيضاً، يقرأ الشاب قول الله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ حسنٌ حسنٌ، مَنْ يلتزم بحدود الله سيدخل جنات الله، إذن ما هو موقف مَنْ يعص الله ورسوله؟ الآية تقول: ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ وحتى يستقيم الأمر في ذهن الشاب الغامض أخذ يقرأ التفسير المشهورة فلم يقتنع بها ورد فيها مَنْ أَنَّ الخلود في النار هنا إنما يكون لمن عصى الله معصية كفر، أي إنما يكون لمن أنكر آيات الله كفرًا بها وكفرًا بالله، فالمسلم لا يخلد في النار من معصية.

عاد الشاب الغامض إلى «كراسات» تسربت إليه في السجن تحتوي على تفسير أستاذه سيد قطب لكثير من سور وآيات القرآن الكريم، اقتطعها بعضهم من كتاب «في ظلال القرآن» ومن كتب أخرى متفرقة، نظر صاحبنا على وجه الخصوص إلى تفسير قطب في شأن آيات المواريث، فوجد أنه يكفر المسلم الذي يرتكب إحدى الكبائر، انتقل الشاب بعدها إلى تفسير آية ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ فقرأ قول سيد قطب: «ويدخل في إطار المجتمع الجاهلي» (الكافر) تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها مسلمة لا لأنها تعتقد بالوهمية أحد غير الله ولا لأنها تقدم الشعائر التعبدية لغير الله، ولكنها تدخل في هذا الإطار لأنها لا تدين بالعبودية لله وحده في نظام حياتها» ابتسم صاحبنا وهو يقول لأحد أصحابه في الزنزانة: ها هو المعنى واضح، كلمات سيد قطب لا

تحتاج إلى تأويل أو تفسير أو إبحار في علوم اللغة العربية، يكفيك أن تعلم أن المسلم لا يكون مسلماً أبداً لمجرد أنه يعتقد بالوهمية الله ولا لمجرد أنه يقيم الشعائر التعبديّة لله، هذا المسلم هو في الحقيقة كافر إذا لم يدين بالعبودية لله في نظام حياته.

يدين

يعود صاحبنا إلى قراءة كلمات سيد قطب فوجده يقول: «لا نجاة للعصبة المسلمة في كل أرض من أن يقع عليها العذاب إلا بأن تفصل عقدياً وشعورياً ومنهج حياة عن أهل الجاهلية من قومها حتى يأذن الله لها بقيام دار إسلام تعتصم بها، وإلا أن تشعر شعوراً كاملاً بأنها هي الأمة المسلمة وأن ما حولها ومن حولها ممن لم يدخلوا فيما دخلت فيه جاهلية وأهل جاهلية» وعلى مهل يكرر صاحبنا لنفسه هذه الكلمات، نفصل عقدياً وشعورياً عن أهل الجاهلية... حتى يأذن الله بقيام دار إسلام... نعتصم بها، هذه إذن دار حرب تلك التي نعيش فيها، دار كفر، متى يأذن الله بقيام دار إسلام في ذلك العالم الذي يتلاطمه الكفر؟

يعود صاحبنا لكراسته فوجد أستاذه وشيخه سيد قطب يقول: «إن هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه ليس هو المجتمع المسلم» تتكرر الكلمات في ذهن صاحبنا... ليس هو المجتمع المسلم... ليس هو المجتمع المسلم». يعود للقراءة من كراسة سيد قطب: «إن المسلمين الآن لا يجاهدون، ذلك أن المسلمين اليوم لا يوجدون، إن قضية وجود الإسلام ووجود المسلمين هي التي تحتاج اليوم إلى علاج». يصرخ ضميره: نعم المسلمون الآن لا يجاهدون، لا لأنهم نكصوا على أعقابهم، ولكن لأنه لا يوجد مسلمون من الأصل،

انتهى عصر المسلمين منذ آحاد بعيدة، وهما هو الأستاذ سيد قطب يقول لنا: «إن قضية وجود الإسلام هي التي تحتاج إلى علاج» عنده حق، هل الإسلام موجود!! إذا كان هناك إسلام فأين هو؟ أين الحكم بما أنزل الله؟ بل أين المسلمون؟ كل الذين يعيشون على البسيطة الآن ويقولون: إنهم مسلمون إنما يتحاكمون إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به، يعود صاحبنا إلى كرأسه فيقرأ فيها عبارة اعتبرها جامعة مانعة يقول قطب فيها: «لقد استدأر الزمان كهيته يوم جاء هذا الدين إلى البشرية بـ (لا إله إلا الله) فقد ارتدت البشرية إلى عبادة العباد وإلى جور الأديان، ونكصت عن (لا إله إلا الله)، وإن ظل فريق منه يردد على المآذن: لا إله إلا الله، ونحن ندعو إلى استئناف حياة إسلامية في مجتمع إسلامي تحكمه العقيدة الإسلامية والتصور الإسلامي كما تحكم الشريعة الإسلامية والنظام الإسلامي، ونحن نعلم أن الحياة الإسلامية - على هذا النحو - قد توقفت منذ فترة طويلة في جميع أنحاء الأرض، وأن وجود الإسلام ذاته من ثم قد توقف كذلك».

طوى صاحبنا الكراسة وقد بلغ تأثره بكلمات سيد قطب مبلغاً كبيراً، الإسلام توقف، لا يوجد إسلام، يجب أن نعيد الإسلام إلى الوجود مرة أخرى، وكان صاحبنا الغامض قال وقتها: «وجدتها وجدتها» وأظنه قفز فرحاً من مكانه، وبعد أن حفظ ما قاله سيد قطب عن ظهر قلب أغمض عينيه في هدوء فقد أخذ الكرى يداعب أجفانه ولم تقو الفرحة على مقاومة النوم، فنام، ولكن مضر في يوم ما لن تعرف للنوم طريقاً، فقد بدأ صاحبنا الشاب الغامض في طريق لن يكون له منتهى.

الفصل السابع

الخطاب المجهول

وكأنني أركب آلة الزمن، أخلق في سماء لا نهاية لها، أعيش في بُعد كوني وزماني آخر، أو أعيش في «لا زمن» أنظر من مكان مرتفع للأحداث التي مرّت بي وأنا في الإخوان، لا، ليس وأنا في الإخوان فقط، ولكنني أنظر لحياتي كلّها منذ تلك اللحظة التي خرجت فيها من «عالم الدرر» إلى الحياة الدنيا، لا، بل إنّ نظرتي في لحظات صوفية فريدة قلما تمرّ على قلبي تكون أوسع مدى من ذلك، أرى الحياة منذ أن خلقها الله سبحانه، أرى آدم وحواء عليهما السلام وهما يعيشان في جنة فريدة لا تتصوّرها الأخيصة ولكن تستشرفها القلوب والأفئدة، يمرحان بحرية لا قيد عليها، يجريان بين الأشجار، يصعدان فوق المرتفعات التي اكتست بخضرة لا مثيل لها في حياتنا الدنيا، يسبحان الله في جنة لا زمن فيها، ولا شمس تؤذيها فيها، وإنما نور في نور حوله نور، تسبيحهما نور وهما نور وثيابهما نور والطعام الذي يأكلانه نور فيخرج منهما نور، لا يشعان فيها بنصب ولا جوع ولا عطش، سبحان الله الذي خلق أبانا آدم بيده فجعله كاملاً واضطفاه على الخلائق، ليس له أن يجوع

ولا يعرى، فجنة الله التي خلقها لآدم وزوجه هيئت لمن خلقه الله بلا نقص في الجبل والطبائع البشرية، ونهاه أن يأكل من الشجرة المحرمة، لم تكن هذه الشجرة من أصل الأشجار التي في جنة آدم ولكنها كانت من أشجار الحياة الدنيا، وحين أغراه الشيطان ووسوس له أن يأكل من هذه الشجرة مطمئناً إياه بالخلد وهو خالد في الجنة وبالمملك الذي لا يبلى وهو ملك على جنته مال آدم إلى تلك الثمرة التي على الشجرة المحرمة وكان أن أكل منها هو وأمه حواء، فردّهما الله إلى نقص الطبائع، فسقطت عنهما نورانية الجنة، ودخلت عليهما الدنيا فأنخلع عنهما رداء النور فبدت لهما سوءاتهما، وطفقا يخصيفان عليهما من ورق الجنة، وأنسحب منهما نور طعام الجنة الذي كانا لا يشبعان منه مهما أكلا، ولا يجوعان أبداً إذا لم يأكلا، وبعد أن عصى آدم ربه، تلقى من ربه كلمات فتاب عليه، ولكنه فقد الهيئة النورانية التي كان عليها، فكان لا بد أن يهبط هو وزوجه إلى الدنيا، ومن بعد ظل لكل ولد من بني آدم شجرة محرمة، عليه ألا يأكل من ثمرها، هي شجرة المحرمات التي فيها اعتداء على النورانية وأنغمس في الطينية، كشجرة السرقة والزنى والخمر والقتل، وكذلك جعل الله للحكومات والأنظمة شجرة عليهم ألا يأكلوا من ثمرها، هي شجرة الظلم والطغيان والاستبداد، وما كان على الحكومات والأنظمة أن تكون على الجماعات والتجمعات الإنسانية، وكان كذلك على الأفراد.



بعد أن أعلنت خروجي من الجماعة عام 2002 ظنّ الناس أنني تركتهم،

أفصيه واسنيه

والحقيقة أنني لم أتركهم، فالإنسان حين يخوض تجربة ويدخل في علاقات إنسانية متشابكة يرتفع فيها شأن العاطفة والروحانيات فإنه لا يبرح الموضع الذي كان فيه «مشاعرياً» وتظل روحه تخلق حول هذا الزمان الذي كان فيه في هذا المكان، ونفس الأمر كان كذلك عند بعض الإخوة لا كلهم فمنهم من كان يداوم الاتصال بي والحديث معي حديث الأخ لأخيه، هؤلاء كانوا يدركون أن العلاقة التي تربط الأخ بأخيه هي الأخوية في الله لا في التنظيم، أما الذين وقفوا عند حد التنظيم فقد انقطعت صِلتي بهم فور أن خرجت، فقد أصبحت عندهم مثل الشجرة المحرمة التي لا يجوز أن يأخذوا من ثمرها.

كان الأخ مختار نوح من الإخوة الذين استمرت صِلتي بهم قائمة، وقد يكون قد تعرض في مستقبل الأيام لما تعرض له من إقصاء وإبعاد بسبب صِلته بي، وإن كان البعض يقول: إن العكس هو الصحيح وأنني تعرضت لما تعرضت له داخل الإخوان بسبب صِلتي به، أينا كان هو المغضوب عليه؟ الذي وصلت إليه مؤخراً أنهم لم يكرهوا مختار إلا لأنه يحمل فكراً مستقلاً، يكره أحياناً بعيداً عنهم، وكذلك أنا، لم أكن أقف معهم على قضيب القطار الذي رسموه في مدينة الإخوان وطلبوا من الكل أن يسير عليه، فأنا أحب الأرض الرخبة، وأرض الإسلام رحبة متسعة لا ضيق فيها ولا كهنوت، ولكن الإخوان لا يحبون ذلك، الإخوان يرغبون في «رص» الإخوة في أرفف الجماعة بحيث لا يتحركون ولا يفكرون إلا بالأمر وبنفس الطريقة التي حددوها لهم في «الكتالوج»، الإخوان يكرهون الأحرار ويحبون العبيد، لذلك لم يرتفع شأن أحد في الإخوان بعد وفاة الأستاذ عمر التلمساني إلا إذا كان عبداً.

ولكنَّ الغريبَ في قِصَّتِي مع نوح هو أنَّني لم أكنْ صديقًا له ولم أكنْ من رفاقه المُفضَّلين، بل إنَّ حَجْمَ الخِلافاتِ التنظيمية التي بيننا كانت كبيرة، حتَّى أنَّني قاطعتُه أكثرَ من مرةٍ على فتراتٍ طويلةٍ، حتَّى قبلَ القبضِ عليه في قضيةِ النقابيين كانتْ صِلَتِي بهِ فاترةً، ورغم ذلك فإنَّني تَنَبَّهْتُ مُبَكَّرًا إلى أنَّ مختارَ يتعرَّضُ لحربٍ غريبةٍ داخلَ الإخوانِ لم أدْرِ وقتها سببها، ما زِلْتُ أذكرُ ذلكَ اليومَ الذي مرَّ عليَّ فيه جمال تاج وأسامه محمود، الأولُ شخصيةٌ إخوانيةٌ معروفةٌ حاليًّا وقد كانَ أحدُ الأفرادِ الأوائلِ الذين بدءوا مع نوح في إنشاءِ لجنةِ الشريعةِ الإسلامية، والثاني كانَ مُحامِيًا إخوانيًّا يعملُ في مكتبِ الأستاذِ إسماعيل الهُضَيْي ثُمَّ في طرفه عينٍ وانتباهتها وبتركيةٍ من مختار أصبحَ عضوًا بمجلسِ نقابةِ المحامين، وفي مكنتي أخذَ جمال وأسامه يُحكِيانِ لي قِصَصًا عن أنَّ مختارَ نوح شخصيةٌ راسبوتينيةٌ وأنَّنا يجبُ أنْ نَقْضِيَ على وجوده داخلَ الإخوان، وأخذَا يَكِيلانِ له الاتِّهاماتِ يَمِينًا ويسارًا، حتَّى إنَّهما لم يتركا كبيرةً ولا صغيرةً إلَّا وألصقاها بهِ ووضعاهما على أمِّ رأسه، سايرتُ هاتينِ الشخصيتينِ في كلامهما حتَّى أعرفَ ما في «بطنِ الزير» وكانتْ نهايةُ كلامهما تدورُ حولَ أنَّهما يُشكِّلانِ فريقًا برعايةِ أحدِ الإخوةِ الكبارِ لم يذكُرا لي اسمَه، هَدَفُ هذا الفريقِ هو طَرْدُ مختارِ نوح من جماعةِ الإخوان، على أنَّه يُصبحُ بعدها جمال تاج مَسْئولًا عن قسمِ المحامينِ وأنَّهما يرغبانِ في وقوفي معهما في هذا الشأنِ، ولكي يُوَكِّدَ لي أسامة محمود صِدْقَ اتِّهاماتِهما لمختار قالَ لي: (أحنا حاكمنا مختار يا أخ ثروت في بيتي بمدينة نصر) وكانَ أسامة في أسرةٍ إخوانيةٍ واحدةٍ معي في مدينةِ نصر وقد اعترفَ لمختار بجرائمه حتَّى أنَّه

وَصَلَ لدرجة كبيرة من الإجهاد بعد أن اعترف ففوجئنا به يتقيأ وهو يقول: «ارحموني أنا تعبت، أنا فعلاً عملت كده»!! كانت كلمات أسامة ساذجة لم آخذها بجديّة خاصة وأنّ له سوابق معي في القيل والقال، فحينما كنّا نَعْقِدُ في بيته لقاء الأسرة الإخوانية التي تضمّنا وكان جمال تاج معنا في ذات الأسرة خاض أسامة محمود في عرض أحد الدعاة وهو داعية معروف وله شرائطه وتسجيلاته وخطبه المنبرية، وقال: إنّه زارهما في مكتب إسماعيل الهضيبي في أحد الأيام لبعض شأنه وعندما لم يجد أحداً في المكتب إلا محامية شابة انتهز الفرصة وأرسل الفراش ليشتري له حاجة طلبها وبعد أن خرج الفراش من المكتب هجم الداعية على الفتاة وحاول أن يقبلها إلا أنّها ردّعتّه، وعلى حدّ قول أسامة: «كانت فضيحة وقد استطاع الأستاذ إسماعيل الهضيبي التكتيم عليها حتّى لا تصل إلى قيادات الإخوان».

لم أصدّق أسامة محمود في قصته عن الداعية المشهور خاصة وأنّي أعرف الأطراف كلّها؛ لذلك لم أتقبل الاتّهامات النقاية التي كالمها هو وصاحبه جمال لمختار، فمن يكذب في عرض أخيه الداعية ليس من الغريب عليه أن يكذب في حق أخيه النقاوي.

أذكر أنّه بعد أن انتهى اللقاء ذهبْتُ إلى مختار نوح في بيته وقبل أن أجلس قلتُ له: أنت متهمٌ عندي بكذا وكذا وكذا.

قال نوح: من الذي سرّد لك هذه الاتّهامات؟

قلتُ: جمال تاج وأسامة محمود.

رَدَّ مختار: أنا لن أردَّ عليها ولكنني سأترك شخصاً آخر يردُّ نيابةً عني،
هياً بنا.

قَدْتُ سيارتي الـ «فيورا» وركبَ بجواري مختار حيثُ ذهبنا إلى منطقة
ميدان الجامع ومنها إلى فيلاً قريبة من الميدان، وإذا بي في بيت المستشار مأمون
الهضيبي، فوجئ المستشار بالزيارة فقال مندهشاً: خير!
وجه مختار لي الكلام قائلاً: قل له ما قلته لي.

قلت للمستشار: جاء لي اليوم جمال تاج وأسامه محمود وقالوا لي عن مختار
أشياء كثيرة، ثم حكيتُ له التفاصيل.

استمع مأمون الهضيبي للكلام كله ثم قال: (هؤلاء ناسٌ فاضية) اليدُ
التي لا تعملُ يشقُّ عليها أن يعملَ الآخرون، وقد كتبوا الذي قالوه لك في
شكوى ضدَّ مختار وحصلوا لها على عدَّة توقيعاتٍ من بعض إخوانك، وقد
قام الإخوان بإجراء تحقيقٍ موسَّعٍ في هذه الاتِّهاماتِ وقد أشرفتُ بنفسِي على
التَّحقيق، وطبعاً «سي سيف» هو الذي كان يُحرِّكهم ومعه بعضُ الأخوة في
المكتب «يقصدُ مكتب الإرشاد» لكن اتَّضح أنَّ كلَّ الاتِّهاماتِ «فشك» يعني
كلامٌ فارغٌ وغيرُ حقيقيٍّ، ثم وجهَ كلامه لمختار: (شوف يا مختار دول مجموعة
عواطلية) لا تهتمَّ بما يفعلونه.

ولكنَّ هذا لم يمنعَ أنْ تقومَ خلافاتٌ بيني وبين مختار في خصوصِ كيفية
إدارة العملِ في قسم المحامين، إذ كنتُ أرى أنه قام بإقصاء المحامين الذين
ينتمون لتيارات الليبرالية وإبعادهم عن كلِّ لجان النقابة فكان هذا الأمرُ

هو السبب الحقيقي في تأمر هؤلاء مع النظام لفرض الحراسة القضائية على النقابة، وحين تم القبض على نوح وخالد بدوي ومعهما بديع وبعض الإخوان في قضية النقابات المهنية عام 1999 تبدلت الأمور عندي، فالآن ليس موضع الخلاف في الرأي، الآن إخوة لي تم حبسهم، الآن يحرم علي أن أنشغل بأي عمل في الإخوان إلا الدفاع عن إخواني، وحين سمعت البعض يسخر من حمية البعض وانشغال مشاعرهم بهذه القضية حمدت الله أن لم يجعل قلبي مثل قلوب هؤلاء، وقد فرغت أشد الفزع عندما قال لي أحدهم: لقد سجدت لله شكراً أن تم حبس مختار نوح، ربنا خلصنا منه، وحين قلت له وأنا أعاتبه: ألا تظن أن السجن سيكون بعيداً عنك، لا تفرح لأزمة أخيك لعلها لاحقة بك، ثم هل فرحت أيضاً بحبس أخيك خالد بدوي؟

قال الأخ صاحب القلب المريض: هو الجليس يشقى بصاحبه، ولكن قل لي: ألم تكن على خلاف مع مختار ما الذي حركك فجأة!!

قلت له: بعض المعاني التي لا تعرفها، أنا أقف مع إخوانك كلهم، كل إخوانك الذين أحيلوا للمحاكمة العسكرية، أقف معهم مروءة ونخوة وحباً، قد اختلف مع إخواني الذين في السجن ولكنني أحبهم فلا اختلاف لا يمنع الحب، الاختلاف لا يحض على الكراهية، الاختلاف لا يضرب على يد المروءة. وكانت هذه آخر عبارات دارت بيني وبين هذا الأخ إذ رأيت أن أبتعد عنه إلى أن يصلح الله قلبه، فصاحب مثل هذا القلب لا ينبغي أن أقرب منه، فهذه القلوب تحترق من الغل فتحرق من حولها.

ألم تكن
تسمع

قَضَى نوحٌ وأصحابه في السجنِ سنينَ عَدَدًا، وكانَ قد تعرَّفَ وهو في
محبسِهِ على الدكتورِ سعدِ الدينِ إبراهيمَ ودارَ بينهما حوارٌ طويلٌ، كانَ بعضُهُ
يتمُّ من خلفِ نافذةِ الزِنزانةِ، سألهُ نوحٌ: لماذا اهتمَّ العالمُ بقضيتك يا دكتورُ
سعد وأنتَ الذي صدرَ الحُكمُ ضدَّكَ من محكمةٍ مدنيةٍ! ولا يهتمُّ بقضايا
الإخوان الذين يُحاكَمونَ أمامَ المحاكمِ العسكريةِ!!.

ردَّ عليه الدكتورُ سعدُ الدينُ إبراهيمَ: هذا شيءٌ طَبِيعِيٌّ، ضَعُ في الاعتبارِ
الأحداثَ الساخنةَ التي حَدَثَتْ في العالمِ وأمريكا في الفترةِ الأخيرةِ وأهمُّها
الهجومُ الانتحاريُّ على مركزِ التَّجارةِ العالميِّ في نيويورك منَ إسلاميينَ
مُتطرِّفينَ.

قالَ له نوحٌ: ولكنَّ الإخوانَ ليستَ جماعةٌ مُتطرِّفةٌ!.
سعدُ الدينُ إبراهيمَ: العالمُ لا يَعْرِفُ ذلكَ لأنَّه لا يَراكمُ.
نوحٌ: كيفَ لا يَرانا؟!.

سعدُ الدينُ إبراهيمَ: لا يَراكمُ لأنَّكم تَعملُونَ في الخِفاءِ، الجزءُ الأكبرُ
منَ فِكرِكم وثِقاتِكُم مُخْتَزَنٌ في باطنِكُم، ثمَّ إنَّ العالمَ يَدافعُ عَنِّي لأنَّه
يَعتَبِرُنِي صَاحِبَ رُؤيةٍ ومُشارِكًا مَعَهُ في قِيمي إنسانيةٍ عَالميةٍ، بالإضافةِ إلى أنَّني
أَحترِمُ الآخَرَ.

نوحٌ: ولكنَّ الإخوانَ مثلكَ يُشارِكونَ في تلكَ القِيمي الإنسانيةِ، فكيفَ
نُوصِلُ وَجْهَةَ نَظَرِنا للغَربِ؟

سعدُ الدينُ إبراهيمَ: أضعُفُ الإِيمانِ هو الكلمةُ وأقوَاهُ هو الفِعلُ.

نوح: أمّا الكلمةُ فنَمَتْلِكُهَا الآنَ ولكنَّ الفِعْلَ لَنْ يَكُونَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ نَخْرُجَ
من السّجنِ.

الضّيفُ وَتِلْكَ

في ضُحَى أحدِ أيامِ عامِ 2003 حملتُنا إلى حيِّ المعادي سيارةُ الأستاذِ خالدِ بدوي المحامي والداعيةِ الإخوانيِّ الرقيقِ الذي كانَ مُحَبُّوسًا معَ نوحٍ وبديعٍ في قضيةِ النِّقاييينَ، كنّا ثلاثةً لا رابعَ لنا، مختارِ نوحٍ وخالدِ بدوي وأنا، وكانتْ وَجْهَتُنَا هي بيتُ الدكتورِ سعدِ الدينِ إبراهيمِ الذي كانَ قد خَرَجَ من السّجنِ منذُ بضعةِ أشهرٍ، وفي السيارةِ ظلَّ الكلامُ مُسْتَمِرًّا بيننا بلا توقُّفٍ وكأنّنا جوعى كلامٍ، فَمِنْ نَاحِيَةٍ تَحَدَّثْنَا عن الحِوَارَاتِ التي دَارَتْ بَيْنَهُمَ والدكتورِ سعدٍ في السّجنِ بالتّفصِيلِ، ومن نَاحِيَةٍ أُخْرَى تَحَدَّثْنَا في شُؤنِ عامَةٍ وخاصَةٍ، وكانَ من ذلكَ أنْ عَاتَبَنِي الأخُ مختارِ نوحٍ على إهمالِ مكْتَبِي لقضيةِ مدنيةٍ كُنْتُ أبْأَشِرُهَا لأحدِ الإخوةِ الكبارِ من أصحابِ الفضلِ والعِلْمِ والقيمةِ هو الدكتورُ «زكريا عبدالحكم» أستاذُ الطبِّ النَّفْسِيِّ والذي كانَ نَقِيبًا لي في فِترَةٍ من فِتراتِ وجودي في الإخوانِ، وكانتْ قضيةُ هذا الأخِ قد تَعَرَّضْتُ لإهمالٍ في مكْتَبِي في الفِترَةِ التي انْشَغَلْتُ فِيهَا بِكُلِّ قُوَّةٍ بِنصرةِ الدكتورِ بديعٍ وإخوانِهِ في قضيةِ النِّقاييينَ، وقد وَافَقْتُ نوحًا على عِتابِهِ، وتناقَشَ مَعِي الأستاذُ خالدِ بدوي مُناقشةً قانونيةً عن قضيةٍ كُنْتُ أبْأَشِرُهَا لأحدِ قياداتِ الإخوانِ التاريخيةِ هو الأستاذُ «أحمدُ عادل كمال» الذي كانَ من قادةِ النظامِ الخاصِّ للجماعةِ، وظَلَّتِ الحِوَارَاتُ مُستمرّةً إلى أنْ توقَّفتِ السَّيَّارةُ أمامَ منزلِ الدكتورِ سعدِ الدينِ إبراهيمِ.

بيت الدكتور سعد من البيوت ذات العِراقة والأصالة، صالة الاستقبال كبيرة بها مجموعة من الصالونات التي تَمَيَّزُ بِالدُّوقِ الرفيع، وعلى الحوائط مجموعة من اللوحات الفنية التي وُضِعَتْ بِعنايةٍ واختيرتُ بِدِقَّةٍ، والأرض مفروشة بمجموعة من الطنافس والسجاجيد المتنوعة والتي تُعْتَبَرُ في حدِّ ذاتها تحفاً فنيةً، فأحد الصالونات سجاجيده شيرازية، أمَّا الصالون الذي جَلَسْنَا فِيهِ فَقَدْ كَانَتْ سجاجيده حريرية هندية، وكان مما تَعَجَّبْتُ مِنْهُ أَنْ رَأَيْتُ عَلَى حائط الصالون الذي جَلَسْنَا فِيهِ صُورَةً عَلَى الحائط للسيد المسيح وأمه السيدة مريم ويبدو أنها لوحة من اللوحات الشهيرة عالمياً، وبجوارها لوحة بِالْخَطِّ الكوفي لآية الكرسي، على حائط واحد تتجاور لوحة السيد المسيح وآية الكرسي!! مِنْ أَيِّ وادٍ هَذَا الرَّجُلُ؟!

استقبلنا الرجلُ خيراً استقبالٍ وتصادفَ أَنْ كَانَ عِنْدَهُ وَقْتُهَا بَعْضُ الزملاء المحامين المنشغلين بِحقوقِ الإنسانِ أَذْكَرُ مِنْهُمْ الْأَسَاتِذَةُ أَحْمَدُ عَبْدُ الْحَفِيزِ وَنَجَادُ الْبَرَعِي وَفَاطِمَةُ ربيع، وحين أنفردنا بالدكتور هَنَّاناً بِسَلَامَةٍ الْخُرُوجِ مِنَ السَّجْنِ، وَتَذَكَّرُوا مَعاً مَا كَانَ يَدُورُ بَيْنَهُمْ مِنْ حَوَارَاتٍ أَهْمُهَا مَا يَتَعَلَّقُ بِرَغْبَةِ الْإِخْوَانِ فِي التَّقَارُبِ مِنَ الْغَرْبِ، وَمِنَ الْحَوَارِ عَرَفْتُ أَنَّ الدُّكْتُورَ عَصَامَ الْعَرِيانِ الْإِخْوَانِيَّ الشَّهِيرَ حِينَ كَانَ فِي السَّجْنِ فَتَحَ هُوَ الْآخِرُ حِوَاراً مَعَ الدُّكْتُورِ سَعْدٍ بِهَدَفِ التَّقَارُبِ مَعَ أَمْرِيكََا عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ وَأَنَّ الدُّكْتُورَ سَعْدًا وَعَدَهُ بِأَنْ يَبْذُلَ جَهْدَهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ.

ظَلَّ حِوَارُنَا مَعَ الدُّكْتُورِ سَعْدٍ فِي بَيْتِهِ ضَاغِطًا عَلَى قَلْبِي لِسَنَوَاتٍ، فَمِنْ نَاحِيَةٍ كُنْتُ أَلْتَمَسُ لِمُخْتَارِ نُوْحِ الْمُبَرَّرِ وَهُوَ يَفْتَحُ هَذَا الْبَابَ، فَقَدْ كَانَتْ الْجَمَاعَةُ

مُضْطَهَدَةٌ مَحْبُوسَةٌ دَائِمًا، وَكَانَ نُوْحٌ مِنْ ضَحَايَا الْأَحْكَامِ الْعَسْكَرِيَّةِ، وَمِنْ شَأْنِ الْمُضْطَهَدِ الْمَحْبُوسِ الَّذِي يُمَارِسُ عَلَيْهِ الْحَاكِمُ اسْتِيدَادًا وَطُغْيَانًا أَنْ يَبْحَثَ عَنْ مَنَافِذٍ يَحْصُلُ مِنْهَا عَلَى قَدَرٍ مِنْ حَرِّيَّتِهِ، وَمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى رَأَيْتُ - خَاصَّةً - مَعَ تَطَوُّرِ الْأَحْدَاثِ فِي الْمُنْطَقَةِ - أَنَّ الْإِخْوَانَ كَتَنَظِيمٍ لَهُ أَهْدَافُهُ، وَفَكَرْتُهُ، سَيَسْعُونَ إِلَى اسْتِخْدَامِ هَذِهِ الْمَنَافِذِ لَا لِيَبْحَثُوا عَنْ حَرِّيَّتِهِمْ وَلَكِنْ لِيَصِلُوا إِلَى حُكْمِ الْبِلَادِ، فَيَكُونُ التَّنْظِيمُ الْحَدِيدِيُّ الَّذِي يَطْوِي فِي دَاخِلِهِ أَسْرَارًا لَا يَعْلَمُ عَنْهَا أَحَدٌ شَيْئًا قَدْ وَصَلَ إِلَى الْحُكْمِ لَا بِالِاسْتِقْوَاءِ بِالشَّعْبِ وَلَكِنْ بِالِاسْتِقْوَاءِ بِأَمْرِيكَ، وَلَا نَتَيْ كُنْتُ أَبْحَثُ عَنْ أَسْرَارِ الْإِخْوَانِ الْمَدْفُونَةِ فِي كَهْفٍ سَرِّي فَقَدْ رَأَيْتُ أَنَّ الْحَوَارِ مِنْ الْمُمْكِنِ أَنْ يَبْدَأَهُ مِنْ حُسْنَتِ نِيَّاتِهِمْ ثُمَّ يَسْتَكْمِلُهُ أَصْحَابُ الْأَسْرَارِ الْخَفِيَّةِ.

وَكَأَنَّنِي كُنْتُ أَلْعَبُ لَعِبَةَ الْكَلِمَاتِ الْمُتَقَاطِعَةِ، أَبْحَثُ عَنْ جُمْلَةٍ مُفِيدَةٍ تَقُودُنِي إِلَى سِرٍّ أَعْلَمُ أَنََّّهُ فِي صُنْدُوقٍ مَخْفِيٍّ عَنِ الْجَمِيعِ، لَا يَحْتَكِرُهُ إِلَّا كَهْنَةُ الْمَعْبَدِ، تَعُودُ ذَاكِرْتِي إِلَى ذَلِكَ الْيَوْمِ الْبَعِيدِ الَّذِي ذَهَبْتُ فِيهِ مَعَ عَدَدٍ صَغِيرٍ مِنْ شَبَابِ الْإِخْوَانِ إِلَى مَدِينَةِ طَنْطَا، كَانَ يَصَاحِبُنَا أَخٌ فَاضِلٌ اسْمُهُ «مُحَمَّدُ السَّيِّدِ هَجْرَس» كَانَ مُقَرَّبًا مِنْ نَفْسِي إِذْ رَأَيْتُهُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُلُوبِ النَّقِيَّةِ الثَّقِيَّةِ تَوَفَّاهُ اللَّهُ بَعْدَ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ بِسَنَوَاتٍ، وَفِي الْيَوْمِ الَّذِي حَطَّتْ فِيهِ أَقْدَامُنَا مَدِينَةَ طَنْطَا ذَهَبَ بِنَا مُحَمَّدٌ - هَجْرَسٌ عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللَّهِ - إِلَى الْحَاجِّ لَاشِينَ أَبُو شَنْبِ عَضْوٍ مَكْتَبِ إِرْشَادِ الْجَمَاعَةِ وَالَّذِي كَانَ مِنَ الْقِيَادَاتِ التَّارِيخِيَّةِ لِلْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ، مَا زَالَتْ هَيْئَةُ مُحَمَّدِ هَجْرَسٍ مَائِلَةً فِي ذِهْنِي وَهُوَ يَحْمِلُ ابْنَهُ الصَّغِيرَ إِسْلَامَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ قَدْ تَجَاوَزَ الثَّلَاثَةَ مِنْ عُمُرِهِ، وَفِي جُلُوسَتِنَا مَعَ الْحَاجِّ لَاشِينَ أَفَاضَ الرَّجُلُ فِي

الحديث عن تاريخ الجماعة وعن حسن البناء، ما زلت أذكر الكلمات الأخيرة التي قالها لم أنس منها حرفاً: الجماعة قامت على فكرة، والفكرة تظل نظرية طالما أنها في الكتب، فإن أراد لها أصحابها أن تصبح واقعاً فلا بد أن تُساندها قوة.

عقبت على قوله بيت شعر للشابي هو:

لا رأي للحق الضعيف ولا صدق

الرأي رأي القاهر الغلاب

قال الحاج: (عليك نور) هذا استدلال في موضعه، لذلك فإن دعوتنا لن تنصر إلا إذا أخذنا بأسباب القوة.

قال أحد الأخوة: بهذه المناسبة، ما رأي فضيلتك في استعانة العراق في حربها مع إيران بأمريكا، وهما هي أمريكا تنقلب على العراق وتضربها بقوة بعد غزوها للكويت.

رد الشيخ: يجوز الاستعانة بكافر في سبيل الوصول للحق، فالرسول ﷺ استعان بكافر ليدله على الأثر وهو في هجرته إلى المدينة، أما غزو العراق للكويت فهو خطأ على العراق أن تتحمل تبعاته.



ظلمت أرواقي وأفكاري وأنا أغد السير إلى كهف الأسرار الذي به «صندوق سر الجماعة» الرهيب، فبعد جلستنا مع الدكتور سعد الدين إبراهيم تغيرت الدنيا وحدثت أمور، وسبحان الله الحي الذي لا يموت،

كل يوم هو في شأن، له أمورٌ يُدِيرُها ولا يَتَدِيرُها، يَغَيِّرُ ولا يَتَغَيَّرُ؛ فمن كان في قلب الجماعة أصبح خارجها ومن كان بشوشاً أصبح عبوساً، ومن كان يَحِبُّك أصبح يُبْغِضُكَ.

فمن ناحيتي ابتعدت عن جماعة الإخوان مسافة كبيرة بعد أن بدأت معالم الأسرار تخرج لي رويداً رويداً من عالم الأشباح إلى عالم المحسوسات والمريئيات، ومن ناحية أخرى ترك مختار نوح جماعة الإخوان وفضل أن يشار إليه باعتباره «تم تجميد عضويته» ومن ناحية ثالثة رأيت الفصل الثاني من علاقة الإخوان بأمريكا وكان ذلك في شتاء الأيام الأخيرة من عام 2005. ^{الفصل خمسة}

«هو» أحد أعضاء مكتب الإرشاد من الإخوة الكبار أصحاب التاريخ، وما زال عضواً بالمكتب حتى تاريخ كتابة هذه الكلمات، وكانت صلة قد نشأت بيني وبينه من خلال قضية أسندها لي لأحد أقاربه حين كنت في الجماعة، وقد وقّفتني الله في القضية فزاد ذلك من أواصر المعرفة والتواد بيننا، وكنت بحكم العشم قد تحدثت معه كثيراً عن مخاوفي من أن تنقلب الجماعة إلى وجهة أخرى لم تكن في حُساب من أنشئوا الإخوان، وكانت كلماته تطمئنني حين يقول: «إن أصحاب الفكر الدّخيل على الجماعة لن يفلحوا في مسعاهم» ولكنني كنت أجده فاتر الهمّة لا يواجه من أطلقنا عليهم «القطبيين» بقوة، وكأنه سلّم لهم واستسلم لأحلامهم، والحق أنه كان ينتقد «هؤلاء» في الغرف المغلقة إلا أنه كان حريصاً لأسباب لديه ألا يصل صوت انتقاده لأذانهم، وما زال حتى الآن صامتاً أمام ما يحدث من انفلاتات داخل الجماعة، وفي أحد الأيام الأخيرة من عام 2005 ذهبت إليه في بيته بناءً على

مَوْعِدٍ مَضْرُوبٍ بَيْنَنَا، وَفِي هَذَا الْيَوْمِ رَأَيْتُهُ مُخْتَلِفًا عَنِ السَّابِقِ، كَانَ ثَائِرًا مُهْتَاجًا
الْمُشَاعِرِ سَاخِطًا، وَبَعْدَ عِبَارَاتِ التَّرْحِيبِ ابْتَدَرَنِي قَائِلًا: الْجَمَاعَةُ بَدَأَتْ تَسِيرُ
فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ نَاحِيَةَ طَرِيقٍ خَطِيرٍ.
تَعَجَّبْتُ قَائِلًا: كَيْفَ؟

هُوَ: عِلَاقَتُنَا بِأَمْرِيكَأَخَذَتْ فِي التَّطَوُّرِ، بَيْنَنَا الْآنَ مَرَاثِلَاتٌ وَاتَّفَاقَاتٌ.
أَنَا: هَذَا شَيْءٌ طَيِّبٌ فِي رَأْيِي، فَأَنْتُمْ فِي أَمْسٍ الْحَاجَةُ إِلَى مَنْ يُخَفِّفُ عَنْكُمْ
الضُّغُوطَ الْأَمْنِيَّةَ الَّتِي تُمَارَسُ عَلَيْكُمْ.

هُوَ: وَلَكِنَّ الْإِتِّفَاقَاتِ تَتَّجِهُ نَاحِيَةَ تَيْسِيرِ طَرِيقِنَا نَحْوَ الْحُكْمِ، أَمْرِيكَأ
تَرْغَبُ فِي أَشْيَاءَ تَرْيَدُهَا مِنَّا وَنَحْنُ نُرِيدُ مِنْهَا أَشْيَاءَ، وَمَا تَرْيَدُهُ مِنَّا يُخَالِفُ
الثَّوَابِتَ الَّتِي دَافَعْنَا عَنْهَا لِسِنَوَاتٍ.
أَنَا: وَمَنْ مِنْكُمْ يَتَفَاوَضُ مَعَ أَمْرِيكَأ؟

هُوَ: خَيْرُ الشَّاطِرِ وَعَصَامُ الْعَرِيَانِ وَأَحْيَانًا يَكُونُ هُنَاكَ أَشْخَاصٌ
بَعِيْنُهُمْ يَقُومُونَ بِمِهَامٍ مُحَدَّدَةٍ.

أَنَا: وَكَيْفَ تَسْكُتُ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ؟ وَكَيْفَ يَسْكُتُ أَيْضًا الدُّكْتُورُ عَبْدُ الْمَنَعِمِ
أَبُو الْفَتْوحِ وَالدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ حَبِيبٌ؟!

هُوَ: هَذِهِ الْمَعْلُومَاتُ مُتَكَتَّمٌ عَلَيْهَا جِدًّا حَتَّى أَنَّهُ لَا تَصِلُ إِلَيْنَا وَلَا نُنَاقِشُهَا
فِي مَكْتَبِ الْإِرْشَادِ وَإِنَّمَا يَقُومُ بِهَا الشَّاطِرُ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِنَا، وَقَدْ وَصَلْتُ لِي
مِنْ خِلَالِ بَعْضِهِمْ رِسَالَةٌ كَانَتْ مَرْسَلَةً مِنْ أَحَدِ الْإِخْوَانِ الْمُسْتَوَلِينَ فِي

أمريكا إلى خيرت الشاطر بها بعض المعلومات الخطيرة، هم يطلقون على خيرت BIG أي الرئيس والكبير أو الهام، لذلك الخطاب موجه إلى B.

أنا: (تعرف يا فندم، أنا اعتبر أمريكا هي الشجرة المحرمة بالنسبة للإخوان).

هو: بمعنى؟

أنا: بمعنى أنها إمبراطورة الشر في العالم، شيطان البشر، تبحث عن الثمرات التي في العالم لتلتهمها، أما ثمرتها هي فشيذة المرارة، تجعل من يأخذها يجوع ويعرى، وتكشف سوءته، أمريكا إمبراطورية ظالمة طاغية مستبدة، أمريكا هي شجرة الظلم، وشجرة الظلم محرمة علينا جميعاً؛ لذلك إذا أراد الإخوان الاقتراب منها وقطف ثمرتها بالشكل الذي يفعلونه فسيفقدون نور دعوتهم وخيرية مقاصدهم، سيدنا آدم يا دكتور عندما أكل من الشجرة المحرمة سأل الله لماذا فعلت؟ فقال: كنت أبحث عن الخلود. فقال الله له كما جاء في الأثر: «طلبت الخلود من غيري ولم تطلبه مني». ونحن الآن نطلب الحكم لا من الله سبحانه ثم من الشعب المصري ولكن من شجرة أمريكا الظالمة.

هو: والله كلامك صح، عندك حق، خذ هذا الخطاب واقرأه، اقرأه لتنبه إلى هذا الخطر، لعل تنبيهك يحدث أثراً وينبه الغافلين.

أنا: كلامي الآن يثير نقمتهم وغضبهم، هم الآن لا يقبلون نصيحة ولا نقداً. أخذت منه الخطاب وتحدثنا في أمور شتى ثم انصرفنا إلى حال سبيلي، وفي بيتي في جوف الليل أخذت أقرأ الخطاب الذي كان كارثياً.

Dear B

السلام عليكم ورحمة الله.

تحياتي وأشواقي لجميع الإخوة، أما بعد.

كانت الجهود التي بذلها دكتور برونلي أثراً طيباً في تقريب وجهات النظر إلى حد كبير إلا أنه ما زالت بعض الاختلافات في وجهات النظر، وقد ظهر لي أن مستر إيرلي مُتَعَتِّاً إلا أنني أوضحت للأصدقاء الآتي:

1- لن نغير خريطة المنطقة السياسية.

2- نتعهد بالحفاظ على كل المعاهدات والاتفاقيات (أبدى الأصدقاء سعادتهم بتصرّحات المرشد عن إسرائيل وقالوا عنه: (He is a respectable man)).

3- نقبل وجود إسرائيل بالمنطقة (وقالوا أنه ينبغي ألا ننظر إلى إسرائيل كما ننظر الحكومة إلينا فلا هي محظورة ولا نحن محظورون).

4- أوضحت لهم إصرارنا على أن تقوم الإدارة الأمريكية بدعم التحول الديمقراطي بالمنطقة وقد ظهر لهم من نتائج المرحلة الأولى أننا أصحاب الرصيد الجماهيري.

وقد أوضح الأصدقاء؟

1- سعادتهم بجرائنا في تناول قضية الحوار مع أمريكا وأن تناول كان واقعياً إلا أنهم أبدوا استياءهم من مسألة أن الحوار ينبغي أن يتم عبر وزارة الخارجية المصرية، وقالوا: إننا ينبغي أن نتخلص من هذه النعمة.

2- أوصوا بطرح مسألة الحوار مع أمريكا على أوسع نطاق حتى تصبح أمراً

واقعيًا، وقتها لن يبحث الناس عن شرعية الحوار ولكنهم سيبحثون عن نتائج الحوار.

3- يجب أن يقدم الإخوان الحزب وأن يكون هذا في خلال عام، وسيارس الأصدقاء ضغوطًا على الحكومة للموافقة عليه.

4- تدعيم الحوار مع الحزب الوطني والتنسيق معه في القضايا الكلية ولا مانع من الاختلاف في الفرعيات.

5- ضرورة الحفاظ على الكيان الحاكم وعدم خلخلته دستوريًا أو شعبيًا وعدم المساعدة في أي تجمع يسعى إلى إحداث خلخلة للنظام.

وَيَتَظَرُّ الأصدقاء سَفَر د. العريان إلى بيروت في النصف الأول من ديسمبر لإكمال الحوار وإن لم يتم سيحضر إليكم صحفي أمريكي وسيقدم نفسه تحت اسم «جون تروتر» بوكالة «s.o.m»، مطلوب أن يجلس مع الشاطر وعزت.

حامل الخطاب الأخ حسَّان وهو من السودان.

أرجو عدم الثقة بأي شخص من catr

والسلام عليكم ورحمة الله.

أخوكم H.a

قرأت الخطاب أكثر من مرة وأخرجت ملحوظاتي عليه، فقد وجدت الصيغة التي تم كتابة الخطاب بها ركيكة تدل على فقر صاحبها في اللغة، وضعف قدرته على التعبير رغم أن كاتب الخطاب هو أحد الإخوان في أمريكا، ويدو أن

مَعِيشَةُ الإِخْوَةِ فِي ظِلِّ اللُّغَةِ الإِنْجِلِيزِيَّةِ كَانَ لَهَا أَكْبَرُ الأَثَرِ فِي تَدْنِي الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ
لَدَى إِخْوَانِ الْغَرْبِ، إِلَّا أَنَّنِي وَقَفْتُ كَثِيرًا عِنْدَ الْجُمْلِ الَّتِي تُفِيدُ أَنَّ الإِخْوَانَ
يَسْتَعِينُونَ بِأَمْرِيكَ مِنْ أَجْلِ الْوُصُولِ لِلْحَكْمِ، وَهَذَا قَفَزْتُ إِلَى ذَاكِرْتِي الْعِبَارَاتُ
الَّتِي قَالَهَا الْحَاجُّ لَاشِينَ أَبُو شَنْبٍ قَبْلَ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ مِنْ أَنَّهُ «يَجُوزُ الاسْتِعَانَةُ
بِالْكُفَّارِ مِنْ أَجْلِ الْوُصُولِ إِلَى الْحَقِّ» وَقَوْلُهُ قَبْلَهَا: إِنَّ الْحَقَّ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ لَهُ قُوَّةٌ
تَحْمِيهِ. فَهَلِ الإِخْوَانُ يَعْتَبِرُونَ أَمْرِيكَ «الْكَافِر» الَّذِي سَيَصِلُ بِهِمْ إِلَى الْحَقِّ؟

وَبَعْدَ عَامَيْنِ مِنْ قِصَّةِ هَذَا الْخُطَابِ أَدلى عَصَامُ الْعَرِيَانِ بِتَصْرِيحٍ لَجَرِيدَةِ
الْحَيَاةِ اللَّندِينِيَّةِ، قَالَ فِيهِ: إِنَّ الإِخْوَانَ إِنْ وَصَلُوا لِلْحَكْمِ سَيَعْتَرِفُونَ بِأَسْرَائِلَ
وَسَيَلْتَزِمُونَ بِاتِّفَاقِيَّاتِ السَّلَامِ مَعَهَا. قَالَ الْعَرِيَانِ نَفْسَ الْكَلَامِ الَّذِي كَانَ مَطْلُوبًا
مِنْهُ وَالَّذِي تَلَقَّى التَّعْلِيمَاتِ بِشَأْنِهِ مِنَ الْخُطَابِ الْمَجْهُولِ الَّذِي وَصَلَ لِلإِخْوَانِ
مِنْ شَخْصِيَّةٍ إِخْوَانِيَّةٍ مَجْهُولَةٍ تَعْمَلُ فِي الْخَفَاءِ مَعَ الْإِدَارَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ؛ وَلِأَنَّ هَذَا
التَّصْرِيحَ نَشَرَتْهُ الْحَيَاةُ فِي عِيدِ الْفَطْرِ الْمُبَارَكِ فَلَمْ يَنْتَبَهُ لَهُ أَحَدٌ إِلَّا أَنَّ عَصَامَ سُلْطَانَ
نَائِبَ رَئِيسِ حِزْبِ الْوَسْطِ كَشَفَ عَنْهُ وَنَشَرَهُ وَهَاجَمَ الْعَرِيَانِ بِسَبِيهِ.

الآن عَلَيَّ أَنْ أَبْحَثَ عَنْ أَمْرَيْنِ، وَسَأَعْرِفُ مَا الَّذِي يُخْفِيهِ الإِخْوَانُ فِي بَطْنِ الزَّرِيرِ.

الفصل الثامن

الشيخ الحكيم

تائهٌ بين مفازات الحياة ودروبها، أتلَمَّسُ الطريقَ إلى أرضٍ خضراءٍ نورانيةٍ
تَشَعُّ منها الحياة، فالذي كُنْتُ فيه لم يَكُنْ إِلَّا سَرَابًا كُنْتُ أَحْسَبُهُ مَاءً، حتى
إذا اقْتَرَبْتُ مِنْهُ وَأَرَدْتُ أَنْ أَتَحَسَّسَ معانيه وحروفه وأفكاره فإذا به لا شيء،
لا ماء، لا حياة، لا مشاعر إنسانية ترتقي بنا وترتقي بها، إلى أَنْ عَثَرْتُ على
«الشيخ الحكيم» الذي كان هبةً ربانيةً أعطانيها الله بعد أن سِرْتُ زمناً في
أرضٍ جَدْبَاءٍ تَقَطَّعَتْ زُرُوعُهَا، وقد كان عَثُورِي على هذا الشيخ بمثابة
العثورِ على كنزٍ أسطوريٍّ، وإذا كان الظنُّ أَنَّ الكنوزَ هي الجواهر والألماس
والذهب والفضة، فإنَّ هذا هو ظنُّ العامة، أمَّا يقينُ الخاصة فهو أنَّ جواهرَ
المعرفة ولآلئَ الحكمة ونورَ اليقين هي الكنزُ الحقيقيُّ الذي لو عَرَفَهُ الناسُ
لَتَقَاتَلُوا عليه، وما بين ظنِّ العامة ويقينِ الخاصة تدورُ الدُّنيا بنا.

كانتُ رحلتي مع جماعة الإخوان هي رحلة البحث عن الحقيقة، رحلة
البحث عن اليقين، ظَلَلْتُ أبحثُ عنها وأنا في داخل الجماعة، وظَلَلْتُ أبحثُ

عنها بعد ذلك، وما زلت، حتى أمسكت ببعض خيوطها، ولكن هل تستطيع أن تجزم أنك وصلت إلى الحقيقة؟ نعم، قد تنظر إلى الحقيقة وتراها وتدرك بعض معانيها ولكن رؤية الحقيقة غير الوصول إليها، لن نصل إليها إلا في عالم آخر، عالم الخلود، هذا هو عالم الحقيقة، ولكن أنتظر معي هنيهة فأنا لم أنته من كلامي بعد.... هناك من الخلق بما فيهم الأنبياء والملائكة من وصلوا إماماً إلى علم اليقين وإمام عين اليقين، أمّا الذي وصل إلى حق اليقين فهو الرسول ﷺ، فالذي عرف الحقيقة ونظر إليها غير الذي وصل إلى عالمها واغترف منها، الذي كان ذلك هو الرسول ﷺ، هو الذي كان عند سِدْرَةِ الْمُنتَهَى، هو الذي تقدّم فاخترق، ولو تقدّم غيره، ولو كان من نور لا خترق، لذلك كان ﷺ هو خير خلق الله كلهم.

ألقي في روعي، بعد أن تركت جماعة الإخوان أن أقرب نقطة من الممكن أن تلتقي فيها بالله هي وقت أن تلمس جبهتك الأرض ساجداً لله سبحانه وتعالى، ولكن لا يمكن أن تلتقي بالله بمجرد أن تلمس جبهتك الأرض فقط، ولكن يجب أن يخضع جسدك كله لجبهتك، القلب إن عصى الجبهة ولم يسجد فإنك لم تفعل شيئاً، أريت إن سجد وجهك للذي فطره ولم يسجد قلبك للذي دب فيه الحياة، أفكنت على شيء من السجود؟! لحظة السجود هي لحظة إعلان الخضوع لله، وأعلى درجات الحرية هي أن تخضع لرب العالمين لا لسواه من خلق الله، يخضع قلبك وتخضع حواسك وتخضع أنفاسك، فإذا خضعت لله ساجداً؛ جسداً وروحاً، فإنك تكون قد أعلنت بذلك تحرر روحك من أسر الخلائق ووصلت نفسك برب الخلائق.

بعد أن كان بصري قد خاتلني فظللْتُ في جماعة الإخوان زمناً، إلا أن روعي لم تحذعني فكان أن تركتهم، ومن بعدها بأيام أو بساعات منحني الله تجربة فريدة.. تجربة ما فتى القلب يستعيد ذكرها وما برح الجسد يتجرع ألمها كلما ألم به ريحها... وسبحان الله الذي يغير ولا يتغير... ما بين طرفة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حال... كنت أخطو خطواتي رافع الرأس وأثقا مترقعا داخل إحدى المحاكم حيث كنت أمارس مهنتي، وكان بجواري شاب نابه من شباب المحامين من أصدقائي الأعزاء، وعلى حين فجأة لم أشعر بقدمي!! وكأنها زالت من مكانها، ثم إذا بي أسمع صوت فرقة طفيفة صادرة من ركبتي اليمنى ومن بعد ذلك اعتراني ألم رهيب لم تكن له سابقة في حياتي، فكان أن فقدت الوعي من وطأة الألم، وعندما استعدت وعيي وجدت صديقي وهو يبذل جهده في إفاقتي، ثم قام بحملي هو ومجموعة من الزملاء إلى المستشفى حيث مكثت ساعة أو بعض ساعة داخل أسطوانة أشعة الرنين المغناطيسي التي أشعرتني وكأنني أدخل إلى قبر مظلم خاصة بعد أن عصبوا عيني وصموا أذني، ذلك القبر الذي سيكون حتما نهاية ذلك الإنسان الذي تشغله الدنيا بزينتها عن حقيقة هي أبعد ما تكون عن خاطره، رغم أنها أقرب إليه من حبل الوريد، وبعد أن أجريت الأشعة أبدى الطبيب عجبه مما حدث، وقال لي: (لديك قطع عجيب في عضلة اسمها العضلة الرباعية وموضع هذه العضلة فوق الركبة مباشرة وهي من أقوى - أو أقوى على حد ذاكرتي - عضلة في جسم الإنسان ومن المستحيل أن تتعرض لقطع دون سبب!! أنا لم أر مثل هذا من قبل، فهذه لا يمكن قطعها إلا في حادث

بسم الله

مرّيع!!) وفي غرفة العمليات استشعر فؤادي الموت واختلطت معانيه بحشاشات قلبي فبعد ثانية أو أقل يدخل الواحد في نوم التخدير الذي قد لا يقوم منه أبداً، وقد يذهب منه إلى عالم البرزخ، عندها تذكرت قولك يا الله يا حيّ يا قيّوم: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وأنتهت الساعات الثلاث في غرفة العمليات وعدت من جديد إلى دنيا الناس وقد أحاط الجبس بذلك الموضع الذي يقع من أخمص القدم إلى أعلى الركبة، وظللت حبيس هذا الجبس عدة أشهر حيث رافقتني عصاي أتوكأ عليها، وظللت عصاي معي لا أجدي مندوحة في غيرها حتى أذن الله لي بشفاء من عنده، كانت هذه التجربة من أعظم التجارب التي مرّت على حياتي وقد أطلقت عليها (تجربة الافتقاد) ولم يكن الافتقاد هنا افتقاد وفاء لأصدقاء وإخوة عرفتهم في الله وأمتزجت معهم عندما كنّا معاً في الإخوان ثم لم أرهم في محنة المرض، وقد كنت لهم أو لبعضهم وجاء عندما أدار لهم الزمان ظهر المجنّ، فما أكثر من طرحني من ذاكرة قلبه ولم يعذني وقتئذٍ، ولكن الذين حملوني في قلوبهم واحتملوني في مرضي أكثر، ولم يكن الافتقاد هنا افتقاد دنيا ستفنى بزخرفها إن آجلاً أو عاجلاً، فلم يهب الله لي من زينة الدنيا ورزقها كما وهب لي في هذه الأيام، وكان الله سبحانه وتعالى يضع آية نصب عيني مفادها أن الرزق يأتي إلى العبد لا محالة سواء كان في صحّة أو مرض، في قوة أو في ضعف، ولكن الافتقاد الذي أعنيه هو افتقاد السجود لله حينما عجزت عن وضع جبهتي

على الأرض أثناء الصلاة، إذ مكثت أشهرًا لا أصلي إلا قاعدًا، افتقدت حينها تعفير وجهي في الأرض لله رب العالمين في موضع لا يكون إلا لله حيث تكون العزة للعبد حين يذلُّ الله العليُّ القدير، ما أروع تلك السجدة التي افتقدتها في تلك الأيام الكالحة! وحينما حانت تلك اللحظة النورانية التي منَّ الله عليَّ فيها بالسُّجود ووضعتُ جبهتي على الأرض ارتجف جسدي رجفة لم تحدث لي من قبل وارتعشت أناملِي وهي تحاذي رأسي على الأرض وانهمرت دموعي تترى بلا حولٍ مني ولا إرادةٍ وقد احتوتني لذة روحية لم تصادفها رُوحِي قبلها قطُّ ونطق قلبي قبل أن ينطق لساني قول الله سبحانه وتعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾.

بعد أن سجدت لله الواحدِ الأحدِ وارتعش قلبي رعدة المحبِّ الواله الذي احترق شوقًا للسُّجود لله أدركت رُوحِي قيمة العبودية لله.. لله وحده.. وقيمة الدُّلِّ والتَّذلُّ لله.. لله وحده.. واستبصر فؤادي قيمة الحرية حين سجدت لله.. نطق لساني وقتها رُغمًا عني وكأن قلبي أنطقه: الآن أن لي أسجد لرب العالمين لأنال حرَّيتي الكاملة وأتذلُّ لرب العزة حتى أنال عزِّي... ومع السُّجود جاءت الفطنة.. فطنة الإيمان، وحين سكَّت اللسانُ نطقتُ خلجاتي: حين كنتُ في الإخوان كنتُ فيها لتقربني إلى الله زلفى والآن وأنا أضعُ جبهتي في التراب.. أسجد لله وحده.. سجد وجهي للذي فطرني، وقبله سجد قلبي لرب العالمين بلا وسيطٍ ولا وساطة.. هأنذا أخرجُ حقًا وصدقًا من تبعية العباد إلى تبعية ربِّ العباد.. آه ما أروع السجود لله!

بعد هذه التجربة الإيمانية كنتُ أجوب المساجد بحثًا عن راحة نفسيّة

افتقدتها لسنوات، ومن عجائب النفس البشرية أنني كنت أفتقد الراحة النفسية وأنا في قلب جماعة إسلامية، لم تكن الجماعة مسجداً نسجد فيه لرب العالمين، ولكنها كانت موطناً لأناس أحدهم ميت، والآخر كالمغسل يقلبه كيف يشاء، ولا يكون هذا إلا عندما تنعدم إرادة من وصفته بالميت، وما هو ميت، ولكنه ليس حياً، بل هو واحد من الذين قبلوا أن يعيشوا كالأموات يعبث بعقولهم من يريد، كنا لا نصلي إلا في مساجد بعينها، ولا نقيم الليل في رمضان إلا في مساجد تابعة للإخوان، ولا نصلي العيد إلا في ذات المساجد، وقبل أن أتسلك سور الجماعة الحصين لأقفز إلى العالم الحقيقي هرباً من عالم الأشباح انطلقت إلى المساجد الحقيقية التي افتقدتها سنوات طويلة، فأصبحت من رواد مسجد قاهر التار بمصر الجديدة الذي كان إمامه هو الشيخ الدكتور «سالم عبد الجليل» الذي كان في يوم من الأيام من الإخوان ثم سبقني وهرب من الجماعة، وكنت قد سافرت معه في رحلة حج وهبها الله لي قبل تركي للإخوان بعام، وكان هذا الحج هو «الحالة الشعورية والقلبية» التي أهلتني لترك الجماعة، فهناك في مساجد الله الحقيقية، في الحرمين المكي والنبوي، تخلصت من استعباد واستبداد البشر وخضعت لرب العباد وحده، لا إله إلا هو.

وبعد أن عدت من مناسك الحج وجدت أن مسجد قاهر التار ارتبط في نفسي بسياحتي في الحج، فأخذت لا أذهب إلا إليه وكأنه يعيد لي باستمرار ذكرى تلك الأيام المقدسة التي كنت أعيش فيها كالطائر الذي لا يلمس الأرض من فرط نشوتي الروحية، وفي اليوم الذي جاء عقب خروجي من

الجماعة ذهبتُ إلى مسجدِ قاهرِ التتارِ بمصرِ الجديدةِ أسجدُ لله ربَّ العالمين كما
سجدتُ السجدة التي اعتبرتها أولَ سجدةٍ لي في حياتي، ذهبتُ لهذا المسجدِ
كي أعلنَ لنفسي في كلِّ سجدةٍ أنني خرجتُ من عبودية العبادِ إلى عبودية الله
ربِّ العبادِ، وبعدَ أيامٍ من انتظامي في صلاةِ المغربِ يومياً بهذا المسجدِ رأيتُهُ
عن بُعدٍ، شيخاً كهلاً يجلسُ القُرْفُصَاءَ بعدَ صلاةِ العشاءِ، مُنكبّاً على قراءةِ
القرآنِ بصوتٍ خافتٍ، غمرتني راحةٌ نفسيةٌ حينَ وقعَ بصري عليه، ظننتُ
أنَّ قلبي هو الذي رآه لا عيني، وحينَ تبصَّرَ الناسَ بقلبك فإنَّكَ تكونُ قد
أدرَكَتَ محبتَهُم، والإنسانُ لا يجهلُ مَنْ يُحِبُّه؛ لذلك خيلَ لي أنني رأيتُهُ من
قبلُ، أهو من الإخوان؟ أم أنه من الصوفيين؟ ويا الله، حينما رأيتُهُ بعينِ
قلبي وببصرِ بصيرتي استشرفتُ فيه الصِّلاحَ والعلمَ، فاقتربتُ منه وجلستُ
بجواره، لم يستغربني، ولكنَّه ابتسمَ في وجهي ابتسامةً محبِّبةً، فألقيتُ عليه السلامَ،
فحيَّاني بعباراتٍ محبِّبةٍ وبشٍّ في وجهي، طلبتُ منه أنْ يدعولي فوضعَ يده على
رأسي وأخذَ يدعولي دعاءً فياضاً بصوتٍ رخيمٍ مُتهدِّجٍ من فرطِ الصِّدقِ،
أهكذا ودونَ سابقِ معرفةٍ تلتقي الأرواحُ؟! وبغيرِ إرادةٍ مني وكأنَّني مُسَيَّرٌ
أخبرتُهُ أنني كنتُ من الإخوانِ وتركتُهُم منذُ شهورٍ، وكأنَّني أريدُ أنْ أدرأَ عن
نفسي تهمَةً لم يوجَّهها لي!! أو كأنَّني كنتُ أعلنُ سعادتي بحصولي على صكِّ
الحرية، قال لي بعاطفةٍ وكأنَّه أبي: وأين أنت الآن؟

قلت: أنا أنتمي إلى الحركة الإسلامية، إلى التيار الإسلامي، فأنا إسلاميٌّ
النزعة.

قال والبشاشة على وجهه: لا تقل أنا إسلاميٌّ، ولكن قل أنا مُسلمٌ، الله

قال لنا ذلك، قال في كتابه الكريم: ﴿هُوَ سَمَّكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ ولم يقل هو سَمَّاكُمْ الإسلاميين، وقال: ﴿وَأَشْهَدُ بِأَنَا مُسْلِمُونَ﴾ ولم يقل وَأَشْهَدُ بِأَنَا إِسْلَامِيُونَ، لذلك فإن مصطلح الإسلاميين لم يكن معروفاً في عهد الرسول ﷺ ولا في عهود الصحابة حتى القرن التاسع عشر، بل كان كل من يجتهد فإنما كان ينسب الاجتهاد لنفسه، لا للإسلام، فهذا حنفيٌّ وذاك مالكيٌّ، وذلك شافعيٌّ وهكذا، لم يجرؤ أحدهم على أن ينسب الإسلام لنفسه أو يقول: أنا صاحب المذهب الإسلامي؛ ولذلك كانت تعبيرات «المذاهب الإسلامية» تعبيرات حديثة لم يقل بها أصحابها، وكذلك مصطلح «الفقه الإسلامي» فالصحيح أنه «فقه المسلمين» والحضارة الإسلامية هي حضارة المسلمين لا الإسلام، وتاريخ الإسلام هو تاريخ المسلمين لا الإسلام، تاريخ الإسلام لم يكن إلا في عهد الرسالة فحسب، وما بعد ذلك كان تاريخ أجيال من المسلمين.

ثم استطرد: لا ينبغي أن يختلط «الإسلام» في الأذهان بـ «المسلم» فثمة مسافة بينهما؛ لذلك كان من الخطأ أن نسمي ابن تيمية «شيخ الإسلام» إذ يجوز أن يكون شيخاً للمسلمين، ولكن لا توجد مرتبة في الإسلام اسمها «شيخ الإسلام» وكذلك من يقولون على أبي حامد الغزالي: «حجة الإسلام» فهو ليس حجة الإسلام، فالحجة هي الدليل، وحجة الإسلام هي القرآن، هي الرسول ﷺ، ولكن لا توجد مرتبة اسمها «حجة الإسلام». يجوز أن نقول عنه فقط أنه «حجة المسلمين». المرتبة الوحيدة في ديننا هي مرتبة النبوة والرسالة، هي نبي الإسلام.

رَدَدْتُ عَلَيْهِ بِرُحُونَةٍ: وَلْيَكُنْ، أَنَا مُسَلِّمٌ، وَلَكِنِّي صَاحِبُ هَذِهِ الدَّعْوَةِ،
صَاحِبُ هَذِهِ الرِّسَالَةِ، نَحْنُ نَمْلِكُ الْإِسْلَامَ.

رَدَّ بِحِكْمَةٍ: يَا بُنَيَّ الْحَبِيبُ، لَا يَنْبَغِي أَنْ يَدَّعِيَ أَيُّ إِنْسَانٍ أَنَّهُ «صَاحِبُ
الدَّعْوَةِ» وَكَأَنَّهَا مَمْلُوكَةٌ لَهُ مَلَكيةٌ حَصْرِيَّةٌ، هَذِهِ دَعْوَتُنَا جَمِيعًا، وَالْوَحِيدُ الَّذِي
نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ عَنْهُ أَنَّهُ «صَاحِبُ الرِّسَالَةِ» هُوَ الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ، هُوَ نَبِيُّ
الْإِسْلَامِ.

قُلْتُ وَقَدْ أَنْخَفَضَ صَوْتِي بِمَقْدَارِ انْخِفَاضٍ مَعْرِفَتِي: وَلَكِنْ يَا شَيْخَنَا،
أَلَيْسَ يَخْتَلِطُ الرَّجُلُ بِرِسَالَتِهِ، بِفِكْرَتِهِ؟ قَرَأْتُ مِنْ قَبْلُ كِتَابًا عَنْ حَسَنِ الْبَنَّا
اسْمُهُ «حَسَنِ الْبَنَّا.. الرَّجُلُ وَفِكْرَتُهُ» لَكَاتِبٍ مِنَ الْإِخْوَانِ اسْمُهُ مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللَّهِ
السَّيِّمَانُ، وَقَدْ كَانَ الْكِتَابُ كُلُّهُ يَدُورُ حَوْلَ أَنَّ حَسَنَ الْبَنَّا لَمْ يَكُنْ رَجُلًا وَلَكِنَّهُ
كَانَ فِكْرَةً، كَانَ إِسْلَامًا، كَانَ رَجُلًا قُرْآنِيًّا، حَتَّى إِنْ كَلَّ الْإِخْوَانُ يُطْلِقُونَ
عَلَيْهِ «صَاحِبَ الدَّعْوَةِ».

رَدَّ الشَّيْخُ وَابْتِسَامَتُهُ مَا زَالَتْ تَعْلُو وَجْهَهُ: فَلْيَرْفَعْ النَّاسُ قَدْرَ رَجَالِهِمْ
كَمَا يُحِبُّونَ، وَلَكِنَّهُمْ وَهُمْ فِي حُبِّهِمْ لَشَيْخِهِمْ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُخَفِّضُوا الْإِسْلَامَ
لِيَتَسَاوَى مَعَ رَأْسِ شَيْخِهِمْ، أَنْظِرْ يَا بُنَيَّ الْحَبِيبُ رَغَمَ حُبِّنا لِلْمُصْطَفَى عَلَيْهِ
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَإِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّهُ هُوَ الْإِسْلَامُ، نَعَمْ كَانَ ﷺ
«قُرْآنًا يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ» وَكَانَ خُلِقَ الْقُرْآنُ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ إِنَّ
الرَّسُولَ ﷺ كَانَ هُوَ الْإِسْلَامُ، وَلَكِنَّهُ كَانَ كَمَا قَالَ عَنْ نَفْسِهِ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ»
فَمَا حَدَّثْتُكُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَهُوَ حَقٌّ وَمَا قُلْتُ فِيهِ مِنْ قَبْلِ نَفْسِي، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ

أُصِيبَ وَأُخْطِئَ». وَلِيُؤَكِّدَ لِلنَّاسِ بِشَرِيَّتِهِ قَالَ: «إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ بِمَكَّةَ». الرِّسُولُ إِذْنُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ وَإِنْ عَلَتْ مَرَاتِبُهُ عَلَى بَقِيَّةِ الْبَشَرِ، وَلَكِنَّ الْإِسْلَامَ عَقِيدَةٌ وَلَا يَوْجَدُ فِي الْإِسْلَامِ مَرْتَبَةٌ أُخْرَى تَجْعَلُ مِنَ الْمُسْلِمِ «إِسْلَامًا» أَوْ تَجْعَلُهُ قُرْآنًا.

قُلْتُ بِاسْتِفْهَامٍ: وَلَكِنِّي قَدْ أَكُونُ صَاحِبَ الدَّعْوَةِ!! حَسَنُ الْبِنَا يَقُولُونَ عَنْهُ ذَلِكَ.

رَدَّ وَقَدْ طَالَ صَبْرُهُ: مَا نَحْنُ إِلَّا دَعَاةٌ مُصْداقًا لِقَوْلِ الرِّسُولِ ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً» وَلَوْ قَالَ الْإِخْوَانُ: إِنَّ حَسَنَ الْبِنَا هُوَ صَاحِبُ الدَّعْوَةِ، فَإِنَّمَا يَضَعُونَ شَيْخَهُمْ فِي مَرْتَبَةِ النُّبُوَّةِ، أَوْ كَأَنَّهُمْ يُخْرِجُونَهُ مِنَ الْمِلَّةِ، فَلَوْ كَانَ مُتَّبِعًا لَدَعْوَةِ الْإِسْلَامِ لَكَانَ يَجِبُ أَنْ يَقُولُوا عَنْهُ إِنَّهُ «دَاعِيَةٌ» وَحَسْبُ؛ لِأَنَّ صَاحِبَ الدَّعْوَةِ هُوَ الرِّسُولُ ﷺ، وَلَوْ قَالُوا: إِنَّمَا نَقْصِدُ أَنَّهُ صَاحِبُ دَعْوَةِ الْإِخْوَانِ، فَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ دَعْوَتَهُمْ تَخْتَلِفُ عَنْ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ!! وَإِلَّا لَمَا نَسَبُوهَا لِصَاحِبِهِمْ، وَمَا دَامُوا لَا يَقُولُونَ إِنَّهُمْ أَصْحَابُ طَرِيقَةٍ فِي الْعِبَادَةِ، أَوْ أَصْحَابُ مَذْهَبٍ فَإِنَّهُمْ يَجِبُ أَنْ يُخْرِجُوا مِنْ تَقْدِيرِ رَجُلِهِمْ، وَنَفْيِ مُلْكِيَّةِ الدَّعْوَةِ عَنْهُ، لَا أَحَدٌ مِّنَّا يَا بُنَيَّ يَمْلِكُ الْإِسْلَامَ، لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ إِلَّا أَنَّنَا أَسْلَمْنَا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَنَحْنُ فَقَطْ نَسِيرُ فِي طَرِيقِ الْإِسْلَامِ، وَلِكُلِّ مَنَّا مَنْزِلَتُهُ يَا ثَرَوَات.

تَعَجَّبْتُ مِنْ مَعْرِفَتِهِ اسْمِي دُونَ أَنْ أُخْبِرَ بِهِ، فَقُلْتُ مُنْدهِشًا: أَتَعْرِفُنِي؟!

قَالَ وَهُوَ يُمَسِّكُ بِرَأْسِي لِيَقْبَلَهَا: نَعَمْ أَعْرِفُكَ، وَلَكِنَّكَ نَسِيتَنِي.

فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ فِي ذُحُولٍ، يَا رَبِّي نَعَمْ إِنَّهُ هُوَ، وَلَكِنْ كَيْفَ عَرَفَنِي بَعْدَ هَذِهِ
السَّنَوَاتِ الطَوِيلَةِ؟!

أَلَمْ تَسْمَعْ دَسْعَةً دَسْعَةٍ

كَانَ عَامَ 1999 قَدْ أُعْلِنَ عَنْ أَنْتِصَافِهِ حِينَما اجْتَمَعَ قِسْمُ الْمُحَامِينَ بِجَمَاعَةِ
الإِخْوَانِ ذَاتَ مَسَاءٍ أَشْعَثَ أَغْبَرَ شَدِيدَ الْحَرَارَةِ فِي مَكْتَبِ أَحْمَدَ رَبِيعَ غَزَالِي،
كَانَ مُخْتَارَ نُوحٍ هُوَ رَئِيسَ الْقِسْمِ الَّذِي تَتَكَوَّنُ إِدَارَتُهُ مِنْ سَبْعَةِ أَفْرَادٍ، أَمَّا نَائِبُهُ
فَهُوَ خَالِدُ بَدْوِي، وَكَانَ الْأَمِينُ الْعَامُّ لِلْقِسْمِ هُوَ أَحْمَدُ رَبِيعَ، أَمَّا الْأَعْضَاءُ فَكَانَ
مِنْهُمْ مُحَمَّدُ طَوْسُونُ ضَابِطُ الْمُبَاحِثِ السَّابِقِ الَّذِي أَصْبَحَ رَئِيسًا لِلْقِسْمِ بَعْدَ
الْقَبْضِ عَلَى مُخْتَارِ نُوحٍ وَخَالِدِ بَدْوِي فِي قَضِيَةِ النِّقَابِيِّينَ، وَكَانَ قَدْ صَدَرَ قَرَارٌ
مِنْ قِسْمِ الْمُهْنِيِّينَ فِي الْجَمَاعَةِ بِتَعْيِينِي مُسْتَشَارًا لـ «لَجْنَةِ السَّبْعَةِ» الَّتِي تُدِيرُ قِسْمَ
الْمُحَامِينَ، وَمَسْئُولًا عَنْ إِدَارَةِ الْمَعَارِكِ الْإِنْتِخَابِيَّةِ لِلإِخْوَانِ فِي نِقَابَةِ الْمُحَامِينَ،
وَكَانَتْ هَذِهِ أَوَّلُ جُلُوسَةٍ أَحْضَرُهَا بَعْدَ تَعْيِينِي فِي هَذَا الْمَوْقِعِ، وَكَانَ مِنَ الْمُعْتَادِ
بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ أَنْ يَحْضُرَ اجْتِمَاعَاتِ الْمُحَامِينَ أَحَدُ الإِخْوَانِ مِنْ قِيَادَاتِ
الْمُهْنِيِّينَ، وَكَانَ الْقِيَادِيُّ الَّذِي حَاضَرَ اجْتِمَاعَنَا فِي هَذَا الْيَوْمِ هُوَ الطَّبِيبُ سَعْدُ
زَغْلُولُ الْعِشْمَاوِي، دَارَ الْحَوَارِ حَوْلَ الْإِجْرَاءَاتِ الْعَدِيدَةِ الَّتِي اتَّخَذْنَاهَا لِإِنْهَاءِ
الْحِرَاسَةِ عَنْ نِقَابَةِ الْمُحَامِينَ وَالْقَضَايَا الَّتِي رَفَعْنَاهَا فِي هَذَا الشَّأْنِ، وَالْحُكْمُ
الَّذِي حَصَلْنَا عَلَيْهِ مِنْ مُحْكَمَةِ الاسْتِنَافِ وَالَّذِي قَضَى بِإِنْهَاءِ الْحِرَاسَةِ،
وَكَيفِيَّةِ تَنْفِيزِ هَذَا الْحُكْمِ، وَكَانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ نَتَنَاوَلَ أَثْنَاءَ مَنَاقِشَاتِنَا الْوَضْعَ
السِّيَاسِيَّ فِي الدَّوْلَةِ.

قال سعد العشماوي وكأنه يلقي درساً على مجموعة من التلاميذ: نظام مبارك هو أقوى نظام استبدادي في العالم، هذا نظام لا يزول إلا عن طريق ملك الموت.

قاطعته مختار نوح: إرادة الناس لها دورٌ يا دكتور.

ردّ العشماوي: الإرادة الشعبية غائبة يا أخ مختار، أين تلك الإرادة عندما صدر قرار الطاغية بإحالة الإخوان للمحاكم العسكرية؟ كل الناس دخلوا في صمت الأموات! أفأنت تسمع من في القبور!

تدخلت في الحوار مندفعاً: اسمح لي بالاختلاف معك يا دكتور، نظام مبارك هو أضعف نظام استبدادي.

ابتسم العشماوي مستهيناً: كل هذه الشرطة والأمن المركزي والجيش والحرس الجمهوري والقمع والإحالة للمحاكم العسكرية وتزوير الانتخابات وتقول لي: إن هذا أضعف نظام استبدادي؟!

أومأت برأسي قائلاً: هذه مظاهر ضعف وليست دليل قوة.

قاطعني: نعم هو حاكم ضعيف ولكنه منيع، لا يستطيع أحد أن يزيحه من موقعه.

أحمد ربيع متدخلاً: ألا توجد ثمة وسيلة يا دكتور تكفل لنا الإطاحة بهذا الرجل؟

العشماوي: لا تراهن على الشعب فقد تعود على الخنوع، الحل في أيدينا نحن.

أحمد ربيع مستنكرًا: في أيدينا عن طريق الانتخابات المزورة والتقابات!!
العشماوي: وما أدراك؟ إخوانك يخططون ليوم إزاحة مبارك ويعدون
العدة لذلك، ولكن ليس كل ما يُعرف يُقال.

رَبَّتْ مختار نوح على كتف الدكتور العشماوي مُنْهِيًا الحوار: يا دكتور
المسألة أبسط مما تظنُّ، لو خرج الشعب في عدة مظاهرات بميادين مصر في
أيام متتالية لَسَقَطَ نظام مبارك بأكمله، الشعب سيكون له الدور الأول
في إسقاط مبارك، ولن يسقط بغير ذلك، أي محاولات أخرى محكوم عليها
بالفشل.

انتهى الاجتماع بعد أن أبدينا تخوفات من القبض علينا في حالة تنفيذ
حكم إنهاء الحراسة، وكان الرأي أن نذهب إلى حليفنا الأستاذ رجائي
عطية المحامي الذي رشّحناه لكي يكون نقييًّا للمحامين؛ لنأخذ منه الوعود
والعهود بما له من صلات حكومية وثيقة، على عدم المساس بنا في حالة إنهاء
الحراسة.

وفي نهاية الاجتماع استبقني أحمد ربيع دقائق معدودات، وبعد أن انصرف
الجميع قال لي وكأنه يهمس: هل أغضبت المرشد الحاج مصطفى مشهور في
شيء؟

قلتُ مندهشًا: لا، لم يحدث شيء! لماذا تسأل؟

أحمد ربيع: كنت معه بالأمس وأخذ يسألني عنك وعن أحوالك، وقال لي

أُرِيدُكَ أَنْ تُحْضِرَ لِي ثروت. وعندما سألتُه لماذا لم يَطْلُبْ حُضُورَكَ عن طريق
مَسْئُولِ مَنْطَقَتِكَ، قال لي إِنَّهُ يَرِيدُكَ أَنْ تَذْهَبَ إِلَيْهِ دُونَ أَنْ تَعْرِفَ مَنْطَقَتَكَ
بِخَبَرِ هَذَا الْإِلْقَاءِ.

: وماذا قُلْتَ لَهُ عَنِّي؟

أحمد ربيع: قُلْتُ لَهُ إِنَّكَ ذَلِكَ الْأَخُ الَّذِي يُنْظَرُ لَنَا. فقال لي مُدَاعِبًا: أَنَا لَا
أُحِبُّ الْمُنْظَرِينَ.

: مصيبةٌ لو قالها لك بتشكيلٍ آخَرَ، لَا أُحِبُّ الْمُنْظَرِينَ.

أحمد ربيع ضاحِكًا: لَا هُوَ قَالَهَا بِتَشْدِيدِ النُّونِ وَكُسْرِ الظَّاءِ وَلَيْسَ
الْمُنْظَرِينَ بِتَسْكِينِ النُّونِ وَفَتْحِ الظَّاءِ، اطمئنَّ فهو يُحِبُّكَ، وَلَكِنْ فَكَّرْتَهُ عَنْ
الْمُحَامِينَ سَيِّئَةً.

- وهل أَخْبَرَكَ بِالْمِيعَادِ؟

ربيع: لو نَاسَبَكَ نَصَلِي الظُّهْرَ مَعَهُ غَدًا.

- ماذا سَتَكْشِفُ لَنَا الْمَقَادِيرُ غَدًا؟ وَإِنَّ غَدًا لِنَظِرِهِ قَرِيبٌ.



في مقرِّ جماعة الإخوانِ بالمنيل انفرادَ بنا المرشدُ الحاجُّ مصطفى مشهور، كانَ
كعادته مُتَنَصِّبَ الرَّأْسِ عَمِيقَ النُّظَرَاتِ، سَأَلَنِي مَبَاشَرَةً: (أَنْتَ زَعْلَانٌ مَنِّي؟)
تَعَجَّبْتُ مِنَ السُّؤَالِ إِلَّا أَنَّنِي قُلْتُ لَهُ عَلَى الْفُورِ: (لَا، أَبَدًا فَضِيلَتَكَ، رَبَّنَا
مَا يَحِبُّ زَعْلًا).

قال بهدوءٍ: أخبروني أنك كنت تريد أن تنتقدني!
 زاد عَجبي وابتسمت قائلاً: لا، أبداً لم يحدث هذا، من أخبر فضيلتك؟
 المرشد: من منطقتك، لذلك فضلت أن تأتي لي عن غير طريقهم، أيكذبون
 عليك أم عليّ؟

قلت: (يمكن يكون بعضهم فهم أمراً ما خطأ.)

المرشد: كيف؟

قلت: كلّفني إخواننا في مدينة نصر بالقاء محاضرة في إحدى الكتائب عن
 كتاب لفضيلتك، هو كتاب «تساؤلات في طريق الدعوة» وبعد أن قرأت
 الكتاب وجدت أن بعض الأفكار التي كتبها فضيلتك تستحق المناقشة
 والتعقيب والأخذ والرد؛ لذلك اقترحت عليهم أن تكون المحاضرة عبارة
 عن دراسة نقدية لكتاب فضيلتك، ولكنهم رفضوا فألقيت المحاضرة بشكلها
 العاديّ.

المرشد: إذن لم يكذبوا عليك ولا عليّ، كنت تريد أن تنتقدني!

قلت: (لا يا فندم فيه فارق بين حضرتك وبين كتابك، أنا لا أنتقدك ولكني
 أنتقد بعض أفكار وجدت أن لي وجهة نظر في بعضها، وطبعاً حضرتك عارف
 أن عقولنا نسبية، ثم اسمح لي حضرتك.. لو فرض وكنت أريد أن أنتقد
 موقفاً صدر منك أو تصريحاً أو شيئاً من هذا القبيل، فهل في هذا شيء؟!

افتّر ثغر المرشد عن ابتسامة خفيفة: لا ليس في هذا شيء، (لكن لو عاوز

تنتقدني لا تقل نقدك لأحدٍ ولكن تعال هنا وانتهر فرصة أكون فيها وحدي وانتقدني كما تشاء، فإخوانك يحبونني وقد يحملون في نفوسهم موجدة منك إن سمعوك وأنت تنتقدني.

أنهى المرشد حديثه معي ثم تحرك بجسده إلى الأمام وأخذ يقلب بعض الأوراق التي أمامه كأنه يبحث عن أوراق، إلا أن أحمد ربيع أراد أن يوجه الحديث وجهة أخرى، فسأل المرشد: (تسمح لي فضيلتك بسؤال؟ الدولة تحاصرنا حصاراً غير عادي، ونحيلنا إلى المحاكم العسكرية ونحن لا نحرك ساكنًا، لماذا هذا الركون والاستضعاف؟)

المرشد: (وماذا تريدنا أن نفعل ياسي أحمد؟)

أحمد ربيع: نتخذ أي موقف، أي موقف قوي.

المرشد: لتعلم أن ضعفنا قوة.

أحمد ربيع: كيف؟

المرشد: هم يريدون استفزانا حتى نلجأ للعنف فيستطيعون إبادتنا، ونحن لن نلجأ للعنف؛ ولذلك فإن ضعفنا وعدم ردنا عليهم هو أكبر وسيلة لدفع الاعتداء، لا يجوز أن نضع السيف في موضع الندي. أحمد ربيع: ولكن يجب أن نعد العدة ليوم المواجهة.

وهنا أشار المرشد إلى شعار الجماعة الموضوع بشكل واضح فوق المكتب: ألا ترى كلمة «وأعدوا» التي بين السيفين، نحن نعمل بها منذ سنوات طويلة.

وهنا تدخلت في الحديث لأول مرة منذ أن تكلم أحمد: وما الذي فعله فضيلتك وفقاً لكلمة «وأعدوا»؟

نظر المرشد إلى أحمد ربيع وكأنه هو الذي سأل السؤال: ستعرفون في حينها.

وحين أصبحنا في الشارع، وعلى شاطئ النيل، قال لي أحمد ربيع: الآن فهمت تصريح الحاج مصطفى الذي قاله لصحيفة عربية منذ عام. أنا: وماذا قال؟

ربيع: الحاج مصطفى رجل طيب ولكن للسِّن أحكامه، وقد أخذت بعض التصريحات تفلت منه دون أن يقصد، وكان من ذلك أن قال: إننا سنصل للحكم عام 2018. أليس هذا عشرين عاماً؟

أنا: سنصل للحكم!! كيف؟ أكان يقصد أم يهدد، أم أن كلماته رمية بلا قصد؟

ربيع: بل يعني ما قاله.

إسترسل أحمد: ولكن، ما هي قصّة الكتاب الذي كنت تريد أن تتقدّمه للحاج مصطفى؟ (هذا الكلام ليس في الإخوان يا عم ثروت، أنت فاكّر نفسك في الجامعة! أنت في الجماعة.)

أنا: أبداً، الأمر كما قلت، كتابه هذا، بل كل كُتُباته، حين قرأتها تعجبت واستغربت من أن يكون هذا هو فكر مُرشد الإخوان، كلام لا يستحقُّ

في مسجد سيدنا الحسين أخذت أجوب المقصورة مع العميد حسنين، أنظر للناس البسطاء وهم يُقبّلون الأعتاب ويتلمّسون البركات، وفي مسجد السيدة نفيسة جلسنا وقد هدّنا التعب وكأننا نتلمّس الاستراحة من هذه الدنيا، كان المرض قد أنهك العميد حسنين فجعله «خيال رجل» وكان قد عاد لتوّه من عمرة رمضان، كان «فأر الزمن» يسعى قارضا جبل النهار وجبل الليل إلا أن عام 2010 ما زال يتنفس في الحياة الدنيا، يقاوم نهايته ويشد شهر أكتوبر شداً حتى لا يجعل كنوفمبر موطناً ليوم، أمسك العميد حسنين مصحفاً ثم أخذ يقرأ فيه وأنفاسه تتعالى، وعلى حين غفوة من الوقت غفا الرجل فتركته على حاله إلى أن فتح عينيه وقال بسكينة: (دعواتك يا عم ثروت)

ألمسه حبرة

(ربنا يشفيك يا مولانا ويفتح لك أبواب الخير في الدنيا والآخرة.)

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آله حذاء محمول

(ربنا يطيل عمرك ويحسن خاتمتك.)

مارأيك يا أستاذ ثروت في انتخابات مجلس الشعب.

سحبنا أنت يا مولانا من نور إلى طين.

ضحك العميد حتى بانّت نواجذه: لا... وأي طين، مجلس الشعب هذا

كما يقولون «مطين بطين».

الإخوان قرّروا الانسحاب، وهناك مشاكل بينهم بشأن هذا

الانسحاب.

سَيَظِلُّ الْإِخْوَانُ يَعِيشُونَ فِي قَلْبِ الْمَشَاكِلِ مَا دَامُوا يَبْحَثُونَ عَنِ الدُّنْيَا،
عِنْدَمَا عَرَفْتُ طَرِيقَ الْوَصْلِ أَدْرَكْتُ أَنَّ مَنْ وَصَلَ نَفْسَهُ بِالدُّنْيَا انْقَطَعَ ﴿وَمَا
الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتْنَعُ الْفُرُورِ﴾.

- الْإِخْوَانُ لَدَيْهِمْ خُطَّةٌ لِلْحُكْمِ وَأُظْنَهُمْ يَسْعَوْنَ إِلَى تَنْفِيزِهَا بِكُلِّ قُوَّتِهِمْ.

- نَعَمْ لَدَيْهِمْ هَذِهِ الْخُطَّةُ، وَأُظْنِّي أَعْرِفُهَا بِالتَّفْصِيلِ.

- تَعْرِفُهَا!! كَيْفَ؟

- بِحُكْمِ عَمَلِي السَّابِقِ فِي النِّيَابَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ وَمَوْقِعِي فِيهَا وَاتِّصَالِي
بِالْمُخَابَرَاتِ الْحَرْبِيَّةِ أَعْرِفُ مَا يَجْهَلُهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ.

- وَهَلِ الْمُخَابَرَاتُ الْحَرْبِيَّةُ تَعْرِفُ خُطَّةَ الْإِخْوَانِ لِلتَّمَكُّينِ؟

-(طَبَعًا تَعْرِفُ)-

- وَمَا شَأْنُ الْمُخَابَرَاتِ الْحَرْبِيَّةِ بِالْإِخْوَانِ؟ الْإِخْوَانُ تَنْظِيمٌ مَدَنِيٌّ!

- نَعَمْ جَمَاعَةُ الْإِخْوَانِ تَنْظِيمٌ مَدَنِيٌّ، وَلَكِنَّهَا ذَاتُ شَأْنٍ حَرْبِيٍّ.

- لَا أَفْهَمُ!

- أَمَّا أَنَا فَأَفْهَمُ.

الفصل التاسع

على بئر البارود

نظر لي الشيخ الحكيم وهو يتسّم: هل عرفتني؟

نعم إنه هو الأستاذ «أحمد إبراهيم أبو غالي» مدرّس اللغة العربية الذي درّس لي وأنا في المرحلة الثانوية، كنت طالبًا في مدرسة جمال عبدالناصر القومية الثانوية بميدان تريومف بمصر الجديدة، وكانت المدرسة تضم نخبة من المدرّسين لا يتكرّرون، ساهموا في تشكيل وجداننا ووضعوا أقدامنا على طريق المعرفة، وكانت تربطني بمدرّسي اللغة العربية صلات قوية إذ كنت دائمًا ما أفتح معهم حوارات ومناقشات في شتى فروع الأدب، كان رئيس قسم اللغة العربية بالمدرسة هو الأستاذ الدكتور «عبدالعزیز المصري» أحد أنبغ من درّسوا اللغة العربية في مصر في هذه الحقبة، وقد كان شاعرًا كبيرًا وأديبًا بارعًا، ومدرّسًا يمتلك حضورًا طاغيًا يجبر الجميع على الإنصات له وكأنه امتلك زمام قلوبهم، وفي ذات الوقت كان يُقدّم دروس اللغة العربية لطلبة الثانوي في إذاعة «صوت العرب» الساعة الخامسة مساءً كل اثنين.

وخميس، والمدرّس الثاني هو الأستاذ «أديب أركان» الذي كان من أصل تركي، وقد كان أديباً فعلاً وكان يعتز نفسه من شعراء مدرسة الديوان التي أسسها عباس العقاد، وهو الذي حبّني في الشعر ودفعني لكتابته، أمّا الثالث فهو الأستاذ «أحمد إبراهيم أبو غالي» الذي درّس لنا العربي في الصف الأول الثانوي، ودرّس لنا الدين في سنوات الدراسة الثانوية كلّها، وكان متديّناً خاشعاً لا يقرأ آية من آيات القرآن إلّا وتذرف عيناه الدّموع، وقد كانت لي معه أيام، وضع الزمن ركامه عليها إلّا أنّها أبداً لا تنمحى، وقد ظللت على صلة به إلى أن تخرّجت في المدرسة ثمّ انقطعت صلتني به تماماً بعد ذلك، حين دارت هذه الذكريات في رأسي وأنا أنظر إليه في المسجد أخذت رأسه بين يديّ أقبلها وأنا أتعجب من كونه تذكّرني، يا لهذا الرأس الذي كان يرشد ويهذب ويربي، تخرّج من تحت يديه جمع كبير من نبغاء مصر، أذكر منهم المستشار عز الدين عبد الخالق نائب رئيس محكمة النقض حالياً، والدكتور محمد نصر فايد مدير شركة من كبرى شركات الأدوية، والمهندس أسامة فرهود أحد أشهر المتخصصين في هندسة الطيران بمصر ويشغل موقعاً كبيراً في هيئة الطيران المدني، وسامح مدحت أحد المدراء الكبار ببنك فيصل، والمستشار مصطفى محمد أمين رئيس محكمة الجنايات، وقد كان المستشار مصطفى من فرط شقاوته وزعابيه يثير الفصل ويقلبه رأساً على عقب، فأطلق عليه الأستاذ أحمد لقب «المعتوه» حتّى صار يُلقب بذلك بين الصحاب حتّى الآن، هذا غير المستشار ناصر بدوي رئيس محكمة الاستئناف، وغيرهم ممن يصعب حصرهم، ومن الأستاذ أحمد إبراهيم مدرّس الدين واللغة العربية عرفت أنا

التلميذ الغضُّ الصغيرُ طالبُ الصفِّ الأولِ الثانويِّ الكثيرَ وفهمتُ الكثيرَ،
كانَ حينَ يتكلَّمُ لا أنصِتُ إليه بأذنيٍّ، ولكنِّي كنتُ أنصِتُ إليه بكياني كُلِّه،
ومنه عَرَفْتُ أَنَّ اللهَ خَلَقَ لَنَا العَقْلَ لا لِكَي نَفْهَمَ فَقَطْ ونَعِيشَ حَيَاتِنَا الدُّنْيَا،
ولكنَّ كَي تَكُونُ لَنَا حُرِّيَّةُ الاختِيَارِ، وَأَنَّ أَوَّلَ مَرَحَلَةٍ مِنْ مَرَاهِلِ الحُرِّيَّةِ هِيَ
القِرَاءَةُ، وأذْكَرُ أَنَّنِي قُلْتُ لَهُ يَوْمًا وَهُوَ يُحَدِّثُنَا فِي الفَصْلِ:

أليست قِرَاءَةُ القرآنِ هِيَ أَفْضَلُ قِرَاءَةٍ؟

فَقَالَ لِي عِبَارَةً ظَلَّتْ بَاقِيَةٌ فِي ذَاكَرَتِي: هَذِهِ لَيْسَتْ قِرَاءَةٌ عَادِيَّةٌ وَلَكِنَّهَا صَلَاةٌ
حُبٌّ وَوُجْدٌ، إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يُحَدِّثَكَ اللهُ فَاقْرَأِ الْقُرْآنَ.

وكانَ ممَّا عَرَفْتُهُ مِنَ الأُسْتَاذِ أَحْمَدِ إِبْرَاهِيمَ أَنَّ هُنَاكَ جَمَاعَةً تَدْعُو اللهُ اسْمَهَا
«جَمَاعَةُ الإِخْوَانِ المُسْلِمِينَ» وَلَمْ أَكُنْ قَدْ سَمِعْتُ عَنْهَا مِنْ قَبْلُ وَوَقَعَ فِي خُلْدِي
أَوَّلُ الأَمْرِ أَنَّهَا طَرِيقَةٌ صُوفِيَّةٌ، ثُمَّ عَرَفْتُ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا جَعَلَنِي مُتَشَوِّقًا لِهَذِهِ
الْجَمَاعَةِ مُشْفِقًا عَلَى مَا أَصَابَهَا، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ فِي دَيْسَمْبَرٍ مِنْ عَامِ 1973،
وَفِي إِحْدَى حِصَصِ الدِّينِ قِصَّةٌ عَلَيْنَا أَسْتَاذُنَا أَحْمَدُ إِبْرَاهِيمَ وَهُوَ يَشْرَحُ الْآيَةَ
الْكُرِيمَةَ: ﴿أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ خَبَرًا وَقَعَ
عَلَيْنَا كَالصَّاعِقَةِ وَلَمْ نَسْتَطِعْ اسْتِيعَابَهُ وَقَتَهَا، عَرَفْنَا مِنْهُ أَنَّهُ كَانَ مُحْبُوسًا فِي فِتْرَةِ
السِّتِينِيَّاتِ لِعِدَّةِ سَنَوَاتٍ بِتَهْمَةِ الانْتِمَاءِ لْجَمَاعَةِ الإِخْوَانِ المُسْلِمِينَ، وَأَنَّهُ خَرَجَ
مِنَ السِّجْنِ عَامَ 1971، وَأذْكَرُ أَنَّنِي سَأَلْتُهُ يَوْمًا: هَلْ كَانَ السِّجْنُ قَاسِيًا مُؤَلِّمًا
بِالنِّسْبَةِ لَكَ؟

ألف دسمنبر واحد وسبعين

فَقَالَ: «كَانَ السِّجْنُ تَجْرِبَةً أَضَافَتْ لِحَيَاتِي وَضَمَخَتْ رُوحِي بِحُبِّ اللهِ،

فقد خلوت في السجن إلى نفسي أتعبد الله وأتأمل في ملكوت الله، وأنا في السجن عرفت أن سجن الأجساد لا قيمة له، ولكن أقسى ما يمر على الإنسان هو سجن الأرواح». ظلت هذه العبارة محفورة في ذاكرتي لم تغادر روعي أبداً، وحين دخلت كلية الحقوق قرأت عبارة قالها ابن تيمية قريبة المعنى من عبارة أستاذي أبو غالي، هذه العبارة هي: «سجني خلوة ونفسي سياحة وقتلي شهادة».



اعتبرت ذلك اليوم الذي قابلت فيه الأستاذ أحمد إبراهيم أبو غالي بعد سبعة وعشرين عاماً من الانقطاع هدية أرسلها الله لي، فأنت حين ترى من يحبهم لا تراهم وحدهم، ولكنك ترى الزمن الذي عشت فيه معهم بأحداثه وأشخاصه وشبابه وحيوته، لذلك فإن آلة الزمن الحقيقية التي من شأنها أن تنقلك إلى أزمان أخرى هي أن تقابل من انقطعت عنهم منذ سنوات طويلة.

يسكن الأستاذ أحمد إبراهيم في عقار قديم بشارع نخلة المطيعي القريب من منطقة سفير بمصر الجديدة، وقد رزقه الله ابنة واحدة تزوجت في تسعينيات القرن الماضي وهاجرت مع زوجها الطبيب إلى كندا حيث استقر المقام بها هناك، وبعد هجرة ابنته بعدة سنوات توفيت زوجته فتركته وحيداً، وشيئاً فشيئاً أخذ يطيل إقامته في مسجد قاهر التار بعد الصلوات حتى أصبح يقضي معظم اليوم في المسجد، لا يفعل إلا أن يقرأ القرآن الكريم

عابداً خاشعاً مُتَبَتِّلاً لله ربِّ العالمين، لا يتحدث مع الناس إلا بوجهٍ بشوشٍ وكلماتٍ لينةٍ، أمّا في بيته فقد كان يقضي فيه فترة الصباح بعد أن يعود من صلاة الفجر فيمضيها في قراءة بعض أمّهات الكتب في كافة فروع المعرفة، ثم يقضي وقتاً ما في كتابة خواطره بخطه الجميل الأنيق، وقد يسر الله له أمر حياته إذ كانت تمر عليه يومياً خادمة طيبة تطبخ له طعامه القليل الزاهد، وترتب له شئون بيته، أمّا جيرانه فقد كانوا يوادونه بين الحين والآخر، الأمر الذي ملأ عليه حياته.

بعد يومين من لقائي معه في المسجد هذا اللقاء الذي أحدث أثراً كبيراً في فكري وتفكيري ذهبتُ إليه في المسجد فجرّاً كي أصلي برفقته وأستعيد معه زمناً لا يمكن أن نستعيده إلا في الأماني والأحلام، وبعد الصلاة أخذني إلى بيته «ذلك البيت الذي دخلته وأنا بعد صبيٍّ على عتبة الشّباب» حيث كنت وبعض الرفاق نقصده لنسأله ونحاوره، وبعد أن ساعدته في إعداد طعام الإفطار وتجهيز «عدة الشّاي» جلسنا لتكلم، وكانت هذه أول مرة أفهم كيف أنك لا يمكن أن تحكم على الأشياء بظواهرها، إذ سيكون حكمك حينئذٍ ظاهرياً، وقتها فهمتُ كيف أن العبد الصالح حين قال كسبلونا موسى: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ كان ينبّهه ألا يقف عند علم الظاهر.

في جلستي الأولى معه سألتُه: عندما قابلتك في المسجد قلت لي إنه لا يوجد شيء اسمه «إسلامي» وأنا عشتُ عمري في ظلّ حركة إسلامية، وجماعة إسلامية هي الإخوان، وكنتُ أتحدث عن وجودي في الإخوان، فأقول: «أنا

في ظلِّ تجربةٍ إسلاميةٍ» وكُنَّا نطلقُ على أفكارنا اسمَ «المشروعِ الإسلاميِّ» والمرجعيةِ الإسلاميةِ، وخُضْنَا الانتخاباتِ في نقابةِ المحامينَ تحتَ شعارِ «نعمُ نريدُها إسلاميةً»، ثم إنَّ الإخوانَ يقولونَ في دعايتهم الانتخابيةِ «الإسلامُ هو الحلُّ» والكلُّ الآنَ يقولُ عن الحركاتِ الإسلاميةِ التي تمارسُ السياسةَ مصطلحَ «الإسلام السياسيِّ» فهل تشرحُ لي وجهةَ نظركَ في هذا الخصوصِ. ضحك الأستاذُ أحمد أبو غالي بطريقةٍ محببةٍ كأنه طفلٌ يضحكُ ثم قال: الإسلامُ هو الحلُّ، والمسلمون هم المشكلة.

بادلتُهُ الضَّحِكُ وأنا أقولُ: أنا فعلاً أريدُ أن أَسْتزِيدَ ممَّا قلتهُ لي.

أخذ الأستاذُ نفساً عميقاً ثم قال بهدوءٍ: الإسلامُ السِّيَاسِيُّ والإسلامُ الاجتماعيُّ والإسلامُ التَّعَبُّدِيُّ والإسلامُ الاقتصاديُّ، هذه تقسيماتٌ غريبةٌ ومُربِيةٌ وليستَ مِنَ الإسلامِ في شيءٍ، فالإسلامُ شيءٌ واحدٌ لا ينقسمُ ولا يتجزأ، اسمعْ مني يا ابني الحبيب، كلمةُ إسلاميٍّ ومشتقاتُها مِنَ الكلماتِ الدَّخيلةِ علينا، وهي مِنَ تلبسِ إبليسَ الذي أرادَ أن يُحوِّلَ ديننا السَّهْلَ البسيطَ الذي يَتَّجِهُ فِيهِ العبدُ إلى رَبِّهِ مباشرةً دونَ وسيطٍ، إلى دينٍ كَهَنَوِيٍّ مُعَقَّدٍ، فِيهِ طَبَقَةٌ تُسَمَّى طَبَقَةُ الإِسْلَامِيِّينَ وهي شَبِيهَةٌ بِطَبَقَةِ الْكَهَنَةِ، وَطَبَقَةٌ أُخْرَى اسْمُهَا طَبَقَةُ الْعُلَمَاءِ، فَيُحَذِّرُونَكَ مِنَ التَّعَرُّضِ لَطَبَقَةِ الإِسْلَامِيِّينَ لِأَنَّهُمْ يُمَثِّلُونَ الإِسْلَامَ!! وبالتالي فَهُمْ مِثْلُ السُّفَرَاءِ وَمِثْلُ السَّفَارَةِ، فَأَنْتَ إِذَا قُمْتَ بِالاعتداءِ على سفيرِ دولةٍ أجنبيةٍ في بلدِكَ، أو تعدَّيتَ على أرضِ السَّفَارَةِ فَكَأَنَّكَ اعتَدَيْتَ على الدولةِ الأخرى نفسها، وكذلك إِذَا انتقدتَ الإِسْلَامِيِّينَ

فكأنما تكون قد انتقدت الإسلام نفسه، ويحذرونك أيضاً من التعرض لطبقة العلماء بالنقد، ويلقون في وجهك عبارة مرعبة هي «احذروا أخي فإن لحوم العلماء مسمومة» فيظن العامة أن هذه العبارة حديث وما هي بحديث وإنما هي مقولة قالها عالم من العلماء هو الحافظ ابن عساكر، وكان ابن عساكر «الشافعي المذهب» قد نشبت بينه وبين الحنابلة خلافات فقهية فوجهوا إليه سهام نقدهم فأراد أن يضرب على أيديهم ويمنعهم من نقده، فقال لهم هذه العبارة، والغريب يا ثروت أن الحنابلة الآن هم الذين يستخدمون هذه العبارة!! وبها أصبحوا طبقة من الكهنة من أصحاب القداسة، وهم الذين يملكون فهم الإسلام إذ ليس لك أن تفهمه وحدك دون «مناولة» من العالم، ليس لك أن تفهمه كما فهمه البدوي البسيط الذي قال له الرسول ﷺ: «قل آمنت بالله ثم استقم».

توقف الأستاذ عن الحديث ثم قال لي: انتظر... وقام إلى مكتبته التي تأخذ حيزاً كبيراً من المكان وتناول كتاباً من على أحد الرفوف ثم جلس على أريكته وهو يقول:

نحن نسجد لله في أي مكان، كل الأرض مسجدة لنا، قال لنا الرسول ﷺ في الحديث الشريف: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»، فإذا بنا نتفنن في إقامة المساجد بزخرفتها وعمداتها وطنافسها وقبابها الشاهقة التي تقرب من النسق الروماني وماذنها المرتفعة، وقلنا على تصورنا الإنساني هذا: هذه هي العمارة الإسلامية!! لماذا يتحول نمط معماري جادت به قريحة أحد البشر، وقد يكون غير مسلم، إلى عمارة تنال شرفاً وقدرًا وقيمة من كلمة

«إسلامية» التي تلتصق بها؟! هذه هي عمارة المسلمين لا الإسلام، جَرَّبَ مرةً أن تكتب مقالاً تقول فيه: «إنَّ العمارة الإسلامية عمارةٌ فاسدةٌ الذوق والمعنى، أو إنها عمارةٌ متخلِّفةٌ» ثُمَّ أَنْتَظِرْ كَمَّ التَّكْفِيرِ الذي سَيُنَالُكَ، مع أنَّكَ عندما سَتَنْتَقِدُ أو سَتَرْفُضُ سَتَنْتَقِدُ فِكْرًا إنسانيًّا لا دينًا إسلاميًّا، وإذا زَادَ سَخَطُكَ على اسْتِبْدَادِ مَارِسِهِ حُكَّامُنَا على مدارِ قُرُونٍ اِكْتُبْ «إنَّ التاريخ الإسلاميَّ سيِّئٌ» وانتظر يا ثروت جَحَافِلِ التَّكْفِيرِ، مع أنَّكَ تَتَنَقَّدُ أو تُهَاجِمُ تاريخَ المسلمين لا الإسلام، تاريخَ الإسلامِ انتهى كما قُلْتَ لك يومَ وفاةِ الرسولِ ﷺ، وهَلُمَّ جَرًّا، لا يُمْكِنُ أَنْ تَقْتَرِبَ مِنْ بَعْضِ الْأَقَانِيمِ التي قَدَّسَهَا المسلمون، لأنَّ أَسْمَهَا ارْتَبَطَ بكلمةِ «إسلام» وبذلك وَضَعَ إبليسُ على أَلْسِنَتِنَا هذه العبارةَ لِتَحْوِلَ إِلَى صِكِّ قَدَاسَةٍ لا تَسْتَطِيعُ بسببِهِ تَوْجِيهَ أَيِّ نَقْدٍ «لِلشَّيْخِ الإسلامِ أو حُجَّةِ الإسلامِ، أو عَالَمِ الإسلامِ، أو بَرْهَانِ الإسلامِ» ثُمَّ إذا مَارَسْتَ نَقْدًا لِلْحَرَكَةِ التي نُسَمِّيها إسلاميةً، فَهنا سَيَسْتَقَرُّ في ضَمِيرِ الْمُتَمَيِّنِ لهذه الحَرَكَةِ أنَّكَ ضِدُّ الإسلامِ، أَلَسْتَ تَتَنَقَّدُ جَمَاعَةً «إسلاميةً»؟ إِذَنْ أَنْتَ عَدُوٌّ لِلإسلامِ أو كَارِهٌ لِلإسلامِ.

قُلْتُ لَهُ: كَلَامٌ لَهُ قِيَمَتُهُ يَا أَسْتَاذ، وَلَكِنْ كَيْفَ دَخَلَ هَذَا الْمُصْطَلَحُ إِلَى حَيَاتِنَا؟

سَكَتَ بَرَهَةً وَكَأَنَّهُ يَسْتَجِمِعُ أَفْكَارَهُ ثُمَّ نَظَرَ لِي قَائِلًا وَهُوَ يَرْفَعُ الْكِتَابَ الَّذِي بِيَدِهِ: هَذَا اللَّفْظُ يَا بُنَيَّ لَمْ يَرِدْ لَاحِظًا فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ، الْأَلْفَاظُ الَّتِي جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ هِيَ «مُسْلِمٌ، مُسْلِمَةٌ، مُسْلِمُونَ» لَكِنْ إِسْلَامِيٌّ أَوْ إِسْلَامِيَّةٌ لَا وَجُودَ لَهَا فِي الْقُرْآنِ، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ:

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ ﴾ لم يقل إسلامية ولم يقل إسلامي، وفي سورة البقرة أيضا يقول سبحانه: ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ومثل ذلك كثير في آيات القرآن، عندك في آل عمران: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا ﴾ وفي سورة يوسف: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ وهكذا، وقد بحثت في كل المعاجم القديمة عن هذه الكلمة فلم أجدها، ولكنني في إحدى المرات وأنا أبحث صادفتني هذه الكلمة «الإسلامي» و«الإسلاميين» فقد قرأتها عند أبي الحسن الأشعري، وابن تيمية والجاحظ، وابن خلدون، ووجدتها مستخدمة أحيانا عند علماء الكلام، الكتاب الذي في يدي من كتب علماء الكلام، وقد استخدم هؤلاء هذا المصطلح من الناحية التاريخية للتفريق بين من ولدوا في عصر الإسلام الأول ولم يشهدوا الجاهلية، ومن ولدوا وعاشوا في الجاهلية وماتوا قبل الإسلام، فالجاهليون عند علماء الكلام والفلسفة وعند من ذكرت لك أسماءهم هم من يتسبون تاريخيا إلى العصر الجاهلي، بخلاف الإسلاميين الذين يتسبون إلى عصر الإسلام، وفي العصر الحديث دخل علينا هذا المصطلح في القرن العشرين، ثم استشرى وتفرع وتفرعن وتقدس وتكدس حتى أصبحت هناك مدلولات نفسية لهذا المصطلح، هذه المدلولات تشير إلى أن الإسلاميين هو من «يدين بالعبودية لله وحده في نظام حياته» أي في القوانين والتشريعات وكل شيء، هو الذي يؤمن بأنه لا يجوز لنا أن نشرع لأنفسنا، ففي «الظلال» يقول سيد قطب: «ويدخل في إطار المجتمع الجاهلي»

(الكافر) تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها مسلمة، لا لأنها تعتقد بالوحيّة أحد غير الله ولا لأنها تقدّم الشعائر التّعبدية لغير الله، ولكنها تدخل في هذا الإطار لأنها لا تدين بالعبودية لله وحده في نظام حياتها، فيكون من لا يدين بالعبودية لله في نظام حياته كافراً، وهذا الكافر بطريق الاستقراء هو «غير الإسلامي». أرايت أن المدلول النفسي لمصطلح (إسلامي) يقودنا شعورياً لتكفير غيرنا؟ وكذلك عندما نقول: «حزب ذو مرجعية إسلامية» أو أننا نملك «المشروع الإسلامي» الله يا ثروت، لم يبعث الرسول ﷺ بالإسلام ليبشّر به الناس كـ «مشروع»، هذه مصطلحات تحطّ من قداسة الإسلام لترفع من قدر أفكار الناس، ولذلك يجب أن تعصف الحركة التي تسمّي نفسها إسلامية ذهنها، وتجدّد مصطلحاتها لأن تجديد المصطلحات سيؤدي حتماً إلى تغيير الأفكار، فلا يعقل أن تظلّ الحركة المسماة إسلامية أسيرة لاجتهادات ومصطلحات ما اجتهد فيه الآباء، إنهم بذلك يفعلون مثل من قال: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾

استمرت جلستي مع الأستاذ فترة زمنية لم أشعر بطولها، وفي صالونه فهمت نظرية أينشتاين «النسبية» وعرفت لأول مرة معنى أن يكون الزمن نسبياً، فقد طال الزمن فقط مع عقرب الساعة ولكنه في الحقيقة كان قصيراً جداً، وكما أن الزمن نسبي فإن المعرفة أيضاً نسبية، ولكنني في جلساتي المتابعة مع الأستاذ أحمد إبراهيم عرفت ما كان خافياً عني.



كانت بداية الأستاذ أحمد أبو غالي معي هي بداية المدرّس مع تلميذه. عندما يلتقي به في الفصل الدراسي الأول، تحدّث معي الأستاذ وكأنّه يشرح، بنفس طريقته التي كان يتبعها وهو يُعلّمنا حين كنّا غلماناً، يحرص على أن يشرح التفاصيل ولا ينسى أن يضع أمامنا الدقائق من الأمور، ومع أن كثيراً مما كان يقوله لي كنت أعرفه فإنني كنت أسمع منه وكأنني أعرفه لأول مرة، فحين كنّا نحسب الشاي باللبن سألته عن حسن البناء، هل كان داعية أم عالماً أم فقيهاً أم زعيماً، أخذ الأستاذ يرشّف من فنجاله رشقات ثم تدفق في الحديث وكأنّه لا يريد أن يوقفه أحداً أو يقاطعه إنسان:

أنت تعرف أن أصحاب البناء وتلاميذه ارتفعوا به إلى مرتبة فوق البشر، إلا أن الإنصاف لهذا الرجل إنّما يكون بتأديمه «أي رده إلى آدميته» فالآدمية لا الملائكية هي التي ترفع قدره، وإذا كان الله قد خلقنا من طين فلا ينبغي أن نحول أنفسنا أو نحول من نحبهم إلى ملائكة نورانيين، وتنزيه البشر إنّما يكون بتعديد معاييرهم وإبعادهم عن الكمال لأن الإقرار بنقائصنا هو في ذاته الإقرار بكمال الله.

ما زالت شوارع المحمودية يا بني تذكر حسن البناء ذلك الصبي النحيف الذي كان يصطحب معه بعضاً من أترابه الصبيان حيث يضمرون في أنفسهم أمراً ثم يذهب أحدهم إلى صاحب حانة تبيع لروادها أصناف الخمر، ويذهب الآخر لمراب يقرض بالربا، ويذهب ثالث لرجل سيئ السمعة، وهكذا حتى يكتمل عقد ما أنتوا عليه فيدس كل واحد منهم خلصة وفي غفلة من الناس خطاباً لمن ذهب إليه، وحين يعثر أولئك الغافلون على

الخطابات يجدونها نصيحة إسلامية موجهة إليهم من مجهول يذكرهم بالحرام والحلال وتحريم الله ما يفعلونه وعقوبة من يجترئ على حدود الله، وفي نهاية الخطاب يجد القارئ تهديدا موجهها له بالويل والثبور وعظائم الأمور إن لم يرتدع.

كان الغلام حسن البناء يتنفس أكسجين الحماسة للإسلام والغيرة على حرّماته، لكن لأن شخصيته أشربت روح الزعامة فإنه كان يشعر وكأنه هو المهدي المنتظر، وكأنه هو الذي أرسله الله على رأس مائة عام كي يجدد للأمة أمر دينها، فأوقف نفسه وحياته ومشروعاته وطموحاته على الدعوة لله، هو الدعوة والدعوة هو لا فرق بينهما في اعتقاده، وكان السؤال الذي يتردد في ضميره دائما هو: هل تفصل الدعوة عن الداعية؟ وحين أجاب عن هذا السؤال بعد سنوات طويلة كان ذلك عن طريق كتابه «مذكرات الدعوة والداعية».

نظر الصبي حسن البناء حوله يبحث عن طريقة إسلامية تشبع ذاته فالتمسها في الطريقة الحصافية الصوفية فانخرط فيها ونهل منها، ثم أخذ الصبي حسن البناء وهو في سن المراهقة عهد الطريقة الحصافية على يد شيخها عبد الوهاب الحصافي الذي سمح له بعد أخذ العهد بالقيام بأدوار الحضرة ووظائفها بمسجد التوبة بدمهور.

كانت الطريقة هي بداية الطريق للبناء، تعلم من شيخها وأخذ من شيوخها حلمي زكريا وحسن خربك وغيرهما، ومنهم عرف التنظيم وآلياته والسمع والطاعة والثقة في الشيخ، وأدرك أن وسيلته في إقامة تنظيم قوي محكم يدين

له بالولاء لا تكون إلا بطاعة الأعضاء كما يطيع المريد شيخه، ففي الصوفية يكون المريد بين يدي شيخه كالميت بين يدي من يغسله، يقلبه كيف يشاء، وهكذا أصبح البنا في مقتبل أيامه وهكذا أصبح الإخوان بين يدي البنا.

استمر البنا في الطريقة الحصافية لم يغادرها بروحه وإن غادرها بجسده وكان قبلها قد انقطع عن استكمال حفظ القرآن إذ توقف عن هذا وهو في الرابعة عشرة من عمره رغم أنه كان يتمتع بذاكرة لا قطة قوية ولكن البنا وجد أن طريق العلم والفقه ليس هو طريقه ولكن طريقه - كما كان يقول - هو صناعة الرجال، كان من الممكن أن يقتفي أثر أبيه في علوم الحديث ولكنه كان يتنقل بين كل العلوم فيأخذ من كل علم قطعة تكون هي زاده فيما انتوى عليه، وكان مما قاله لي بعض ممن صاحبه: إن البنا رفض أن يؤلف الكتب لأنه كان يريد أن يؤلف الرجال، وهذا هو ما نجح فيه.

وفي القاهرة كانت محطته التالية حيث التحق بمدرسة دار العلوم، ولأنه كان صاحب همة عالية وتأثير أعلى فلم يشغل نفسه بما ينشغل به الشباب بل كانت فكرته الدعوية تسيطر عليه وتخلب لبه، خاصة وأن أتاتورك كان قد مزق أوتار الخلافة الإسلامية وقضى عليها، وكان هذا مما مزق قلب الشاب اليافع فأخذ يجوب أروقة العلماء ويجلس إليهم ويبتهم مشاعره ويحتد على بعضهم أحياناً ويكي بين أيديهم أحياناً أخرى، ثم كانت العلامة الفارقة في حياة البنا عندما تعرف على الشيخ رشيد رضا والشيخ محمد الدين الخطيب ومن خلاهما تحدد مسار البنا.

آل سعود انتصاراته بهزيمة الشريف حسين، ثم قام جيشه المسمّى بالإخوان بشنّ هجومٍ على شرق الأردن لإثبات أن الأمور دانت لعبد العزيز ثم ها هو في طريقه إلى توحيد الجزيرة العربية تحت اسم المملكة العربية السعودية.

كان رهان الشيخين رشيد رضا ومحب الدين الخطيب على عبد العزيز آل سعود، فقد وجدّا فيه الخليفة المنتظر، ومن غيرهِ في عرفهما يصلح لها؟ ومن خلال الشيخ المصري حافظ وهبة مستشار الملك عبد العزيز وأحد المقربين له سعى الشيخان حثيثاً للقاء الملك والعمل من أجل مشروعه السياسي والفكري، وفي صورة تبدو وكأنّها انقلابٌ من الشيخين على فكر أستاذهما الشيخ محمد عبده المنفتح ومذهبه الحنفي الأشعري، تبنّى الشيخان مذهب المملكة الوهابي الحنبلي مع ما فيه وأخذاً في الترويج له بحسب أنه سيكونُ الرّاية المذهبية التي ستقوم عليها الخلافة الجديدة، وقد وضعّا في خاطرهما تجربة جيش الإخوان الوهابي الذي كان يرفع شعار «الله أكبر والله الحمد» والذي كان يساند عبد العزيز آل سعود بالسيف وبهذا الشعار حتّى دانت له الجزيرة.

وكان من تصاريّف القدر أن التقى البنا بالشيخين، فقد كان همّ البنا وهمته متجهين إلى مقابلة العلماء، يتعرّف بهم ويتحدّث إليهم ويعرض عليهم أفكاره وشجونه، وحين التقى البنا بالشيخين لمحا فيه الحماسة والحمية، هما يحملان المشروع والراية والرؤية، وهو يحمل الطاقة والاندفاع والفاعلية، تعرّف الشاب حسن البنا من خلالهما ومن خلال الأخبار التي تأتي محمولة عن بُعد على تجربة آل سعود ومساندة الإخوان الوهابية له، واطلع على نظام هذا الجيش وتاريخه وشعاره، فكان حلمه أن يكون هو قائد الجيش الذي

سيقود الأمة إلى استعادة الخلافة مرة أخرى ثم الوصول بها إلى أستاذية العالم على حد قوله، ولم لا وعبد العزيز آل سعود لم يصل للحكم إلا من خلال الإخوان الوهابيين؟ أتجهل مصر جماعة مثلها؟ ألا بعدا لمصر إن لم تقف معي وإن لم يكن لي فيها جماعة كجيش الإخوان الوهابي... كان هذا هو لسان حسن البنا وهو يخطو خطواته الأولى في الإسماعيلية مدرسا للخط العربي.

كان حسن البنا يحمل ذكاء فطريا يعرف أن المصري متدين بطبيعته يرتجف قلبه عند ذكر الرسول ﷺ ويحب آل البيت حبا جما، فلم يتجه البنا إلى من يذهب للمساجد وإنما ذهب أول ما ذهب وهو في الإسماعيلية إلى من لا يذهبون إلى المساجد فهم أولى، وفي المقاهي كانت غزوته الدعوية الأولى «غزوة المقاهي» فقد فوجئ البسطاء من رواد المقاهي البلدية برجل من الأفندية يرتدي ملابس أجنبية يقف متكئا على أحد المقاعد يخطب فيهم خطابا دينيا بسيطا، واستمر على ذلك أياما حتى اشتهر أمره بين الناس وتحدثوا عن «خواجة» الخط العربي الذي يعظهم في المقاهي، ومن المقاهي إلى المساجد الصغيرة كان مراحه ومغذاه، وبعد أيام معدودات نجح البنا في أن يجمع حوله عددا من رجال الإسماعيلية من أصحاب الحرف البسيطة، ظل يتزاور معهم ويثيهم خواطره الإيمانية فترة، ثم أن الأوان لتكون البذرة الأولى للجماعة.

كان الاقتراح اقتراحه وكانت الفكرة فكرته، لم أيها الأخوة لا ننشئ جمعية لنا؟ فلتكن جمعية الإخوان المسلمين، واستقبل الجمع الذي معه اقتراحه باستحسان، فهو قائدهم وهم رجاله، فكان عام 1928 هو عام التأسيس

الرسمي لجمعية الإخوان المسلمين، كان كل غرضها هو الدعوة لله، والدعوة فقط، وكان الداعية هو الشاب حسن البنا.

سكت الأستاذ أحمد إبراهيم وأومأ لي أن سل ما تشاء، فسألت: هناك دقائق في حكايتك لم يقلها أحد على حد علمي مثل تأثره بفكرة «جيش الإخوان» الذي انتصر لآل سعود فهل هي حقيقة موثقة؟ لقد سمعتها من قبل من أحد أصدقائي من الإخوان اسمه أحمد ربيع وكان قد سعى لتوثيق روايته بحوارات مسجلة أجراها مع بعض أفراد من الرعيل الأول للإخوان. ابتسم الأستاذ وهو يقول: وهي عندي أيضاً موثقة يا ولدي، فقد قرأتها في بعض أوراق تركها جدي.

أنا: جدك المباشر؟ من هو؟

رد: خال أمي وعمها في ذات الوقت.

أنا: فزورة هي! ومن هو؟

ردّ ضاحكاً: ستعرفه في حينه.



متى سمعت مثل الذي قاله لي الأستاذ أحمد إبراهيم أبو غالي؟ سمعته وأنا في مكتب أحمد ربيع، في ذلك اليوم الذي كان يوماً متفرداً من عام 1999 عندما عدنا من مقابلتنا مع الحاج مصطفى مشهور، في هذا اليوم في مكتب أحمد ربيع أكلنا «الفشنكاح» والفشنكاح إن لم تكن تعرف هو طبق

الفشنكاح
وسمى ربيع

طعامٍ يحتوي على أصنافٍ كثيرةٍ من اللحوم، عَشِيقَةُ العَشَرَاتِ مِنَ الإخوان المسلمين خَاصَّةً إخوانُ الجِيزَةِ، صاحبُ اختراعِ «الفشْنِكاخ» وصاحبُ اسمِ هذا الطبقِ هُوَ المُمَثِّلُ الراحلُ فريد شوقي، فقد اعتادَ على أن يأكلَ في أحدِ المطاعمِ بِشارِعِ جامعةِ الدولِ العربيةِ، وكانَ هذا المَطْعَمُ يَقَعُ أَسْفَلَ العِمَارَةِ المُجاوِرَةِ لمَكْتَبِ أحمد ربيع، ولأنَّ فريد شوقي كانَ صاحبَ ذوقٍ خاصٍّ في الطعامِ لذلك حينما دَخَلَ هذا المَطْعَمَ يومَ الافتتاحِ طَلَبَ مِنْ صاحبِ المَطْعَمِ أَنْ يَصْطَرِحَ لَهُ إلى داخلِ «المطبخِ» وحينَ رَأَى أوانيَ الطعامِ أَخَذَ طَبَقًا وَوَضَعَ فِيهِ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ، ما بينَ الكُفْتَةِ والمحشيِّ والمبارِ والكَبِدَةِ والمخِّ والمشوياتِ ثم جَعَلَ الطَبَقَ مُزْدَانًا بِالْخَصِّ والجرجيرِ والبَصَلِ الأخضرِ، ثم قالَ لصاحبِ المَطْعَمِ: خُذْ نَصِيحَتِي وَاجْعَلْ هَذَا الطَبَقَ هُوَ الطَّبَقَ الرَّئِيسَ للمَطْعَمِ وَأَنْتَ تَكْسِبُ، فَقَالَ لَهُ صاحبُ المَطْعَمِ، وما هُوَ الاسمُ الَّذِي نُطْلِقُهُ عَلَيْهِ؟

قالَ فريد شوقي: الفشْنِكاخ.

ومن وقتِها اشتهرَ هذا المَطْعَمُ بالفشْنِكاخ.

ولأنَّ كَثِيرًا مِنَ الإخوانِ كانوا يَعْقِدُونَ جُلُوسَاتِهِمْ فِي مَكْتَبِ أحمد ربيع، فَمَكَاتِبُ المحامينَ لها قَدْرٌ مِنَ الحِصَانَةِ والتَّغْطِيَةِ الأَمْنِيَّةِ إِذْ إِنَّهُ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَسْتَقْبَلَ المحامي فِي مَكْتَبِهِ عَشَرَاتِ النَّاسِ مِنْ أَصْحَابِ الْقَضَايَا وَالْحَاجَاتِ، لِذَلِكَ عَرَفَ الإخوانُ طَبَقَ الفشْنِكاخِ وَأَحْبَبُوهُ، وَلِلْحَقِّ فَقَدْ كَانَ أحمد ربيعَ يَتَكَلَّفُ مِائَاتِ الْجُنِيَهَاتِ مِنْ جَيْبِهِ الْخَاصِّ لِإِطْعَامِ أَضْيَافِهِ مِنَ الإخوانِ فِي كُلِّ جُلُوسَةٍ تَعْقِدُ بِمَكْتَبِهِ، وَمِنْ طَرَائِفِ تَارِيخِ الإخوانِ أَنَّ أحمد ربيعَ فِيمَا بَعْدُ كَانَ

يَحْمِلُ أَطْبَاقَ الْفَشْنِكَاحِ وَيَذْهَبُ بِهَا إِلَى سِجْنِ طُرَّةَ فِي زِيَارَةِ يَوْمِ الْخَمِيسِ لِتَكُونَ طَعَامًا لِلْإِخْوَانِ الْمَحْبُوسِينَ فِي قَضِيَةِ النِّقَابَاتِ الْمُهْنِيَةِ، وَقَدْ كَانَ أَحْمَدُ يَذْهَبُ إِلَيْهِمْ بِالْفَشْنِكَاحِ بِنَاءً عَلَى طَلَبِ الدَّكْتُورِ مُحَمَّدٍ بَدِيعِ مُرْشِدِ الْإِخْوَانِ فِيهَا بَعْدُ الَّذِي كَانَ مَحْبُوسًا مَعَهُمْ، وَيَبْدُو أَنَّهُ أَحَبَّ هَذَا الطَّبَقَ وَأَصْبَحَ مُدْمِنًا لَهُ.

الْمَهْمُ أَنَّنَا بَعْدَ أَنْ أَلْتَهَمْنَا الْفَشْنِكَاحَ أَخْرَجَ أَحْمَدُ مِنْ أَحَدِ أَدْرَاجِ مَكْتَبِهِ رُزْمَةً أَوْرَاقٍ ثُمَّ قَالَ لِي:

هَذِهِ أَوْرَاقُ التَّارِيخِ، تَحْتَوِي عَلَى تَارِيخِ أَهْمَلَةِ الْإِخْوَانِ، وَلَكِنِّي بَحَثْتُ عَنْهُ وَجَلَسْتُ مِنْ أَجْلِهِ مَعَ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنْ شُيُوخِ الْإِخْوَانِ، مِنْهُمْ الْأُسْتَاذُ مُحَمَّدُ عَبْدِ الْحَلِيمِ وَالْمُرْشِدُ الرَّاحِلُ حَامِدُ أَبُو النَّصْرِ وَبَعْضُ الرِّعِيلِ الْأَوَّلِ مِنَ الْإِخْوَانِ مِنَ الَّذِينَ عَاصَرُوا حَسْنَ الْبِنَا وَأَخَذُوا مِنْهُ وَكَانُوا شُهَدَاءَ عَلَى فِتْرَةِ التَّكْوِينِ، سَجَّلْتُ حِوَارَاتٍ مَعَ بَعْضِهِمْ وَدَوَّنْتُ مَا قَالَهُ لِي الْبَعْضُ الْآخَرُ وَجَمَعْتُ كُلَّ هَذَا فِي تِلْكَ الْأَوْرَاقِ لَعَلِّي أَجْعَلُ مِنْهَا كِتَابًا فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

قُلْتُ لَهُ: وَهَلْ سَتَقْرَأُ لِي؟!

أَحْمَدُ رَبِيعٌ: نَعَمْ حَتَّى أَكُونَ دَقِيقًا وَحَتَّى نَتَنَاقَشَ فِي الْفِقْرَاتِ الَّتِي سَأَقْرُؤُهَا (وَمَا زَالَتْ هَوَايَةُ أَحْمَدِ الْأَثِيرَةِ حَتَّى الْآنَ هِيَ أَنْ يَكْتُبَ أَفْكَارَهُ ثُمَّ يَقْرُؤَهَا عَلَيْنَا).

وَبَدَأَ أَحْمَدُ رَبِيعٌ فِي التَّلَاوَةِ:

فِي صَفْحَةٍ مِنْ صَفْحَاتِ التَّارِيخِ يَجْلِسُ الشَّيْخُ حَسَنُ الْبِنَا عَلَى أَحَدِ مَقَاعِدِ الرِّيَادَةِ وَالتَّفَرُّدِ، لَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ كَانَ عَبْقَرِيًّا، جَمَعَ بَيْنَ هِمَّةٍ عَالِيَةٍ وَتَأَثُّرٍ

بليغ، والفكرة عندما ترد على الذهن قد تباغتتنا وقد تدخل على مهل، ويبدو أن حسن البناء قد فكر في إنشاء جماعته وخطط لها حينما كان شاباً يافعاً يطلب العلم في مدرسة دار العلوم، فقد قرأ وقتها الأخبار التي أخذت تتواتر من نجد والجزيرة العربية عن جيش «الأمير عبدالعزيز بن عبد الرحمن آل سعود» الذي أخذ يساعده في إخضاع الجزيرة العربية له، ليأخذ الحكم عنوة من آل رشيد، أطلق عبدالعزيز آل سعود على جيشه «الإخوان» و«إخوان من أطاع الله» وجعل شعاراً لهم السيف وعبارة التوحيد «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

قاطعته: إذن الاسم له أصل؟

أحمد ربيع: نعم هكذا قال لي الأستاذ محمود عبد الحليم.

قلت متعجباً: ولكنه لم يقل هذا في كتابه «الإخوان المسلمون.. أحداث صنعت التاريخ» لا على الاسم ولا على الشعار!

أحمد ربيع: ستتعجب حينما تعرف أنه قال هذا، ولكن الكتاب خضع لمراجعة من الحاج مصطفى مشهور، وقد طلب منه أن يحذف هذا الكلام وكان مبرره في ذلك أن هذا الكلام من شأنه أن يفتح أبواب جهنم على الإخوان، لذلك جاء في إحدى المقدمات من الكتاب أن الإخوان لا يعتبرون هذا الكتاب تأريخاً رسمياً لهم ولكنهم يعتبرونه تأريخاً جيداً، والسبب في هذا أن الأستاذ محمود عبد الحليم كتب أشياء كان الإخوان يريدون إخفاءها، وافق الأستاذ على تخفيف البعض وحذف البعض الآخر، إلا أنه أصر على أن يبقِيَ في الكتاب أشياء أخرى لم يرض عنها الحاج مصطفى.

أومات برأسي ثم طلبت منه أن يكمل القراءة، فقرأ:

في هذا الزمن لم تكن العبقريّة وقفاً على شخصٍ واحدٍ، إذ كان العالم يعجّ بالعباقرة، وكأننا كنا نعيش في وادي عبقر أو في مدينة عبقرينو، فكان من عباقرة هذا الزمن عبدالعزيز آل سعود، استطاع عبدالعزيز آل سعود أن يقيم دولة، وكانت عدته في ذلك «فكرة وجيش» أمّا الفكرة فهي «الوهابية» نسبة إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي كان حليفاً لجده الأكبر «محمد بن سعود» مؤسس الدولة السعودية الأولى في الدرعية على إقامة دولة إسلامية تكون الوهابية الحنبليّة مذهبها، إلا أن الله لم يقيض لهما انتصاراً لفكرتهما ولا توفيقاً لتحالفهما إذ لم يستطع محمد بن سعود ولا ولده من بعده إقامة هذه الدولة واستطاعت جيوش الوالي المصري «محمد علي» التي قادها طوسون باشا هزيمة آل سعود وأسّر قائدهم عبد الله الذي أخذ إلى إستانبول، حيث قتل هناك.

قاطعته: طوسون باشا هذا هو الابن الأكبر لمحمد علي.

هزّ أحمد رأسه علامة التأكيد ثم أكمل:

درس عبدالعزيز آل سعود أحداث التاريخ جيداً وهو يجهز نفسه منطلقاً من «الكويت» ليهزم آل رشيد ويستولي على الجزيرة كلّها ويخضعها لحكمه، ذلك الحكم الذي بذل من أجله الأجداد الأرواح والأبدان والأموال، وعرف أن اجتماع من معه على فكرة هو أمرٌ كفيلاً بنجاحه في إقامة دولته، فكانت الفكرة هي «الوهابية»، تلك الحركة التي أخذت تحارب البدع حتى

توسَّعت في مفهومها وشدَّدت على نفسها وعلى أتباعها، رأى عبدالعزيز آل سعود أن «الوهابية» هي الراية التي سيرفعها ويعلم دولته باسمها، ومن البدو صنع الرجل العبقري جيشه، كان عبدالعزيز آل سعود مؤسس الدولة السعودية الحالية يؤلف الرجال ويصنعهم على عينه، لذلك أخذ يدعو البدو إلى «هجر البداوة والبادية» والهجرة إلى التدين والاستقرار، فكانت «الهجرة» هي وسيلة عبدالعزيز آل سعود لتكوين جيشه، حتى أطلق على الأماكن التي استقرَّوا فيها «الهجر» وأطلق على جيشه جيش الإخوان، دولة آل سعود لم يكتب الله لها النجاح إلا عندما جمعت بين الفكرة والقوة، الفكرة هي الراية، والقوة هي الجيش.

قاطعتُه للمرة الثالثة: محمد بن عبد الوهاب لم يُنشئ مذهباً بالمعنى المعروف، فهو صاحب حركة، وحركته تتبع المذهب الحنبلي، وقد عمَّر كثيراً ومات بعد أن تجاوز التسعين وقد أصبح هو ذاته «الفكرة».

أكمل أحمد:

ارتسمت هذه الأفكار في رأس الشاب حسن البنا فكان أن أنشأ فوراً تخرُّجه «الحركة»، أنشأ الجماعة، وكان هاجس جيش «إخوان آل سعود» يسيطر على فؤاده، وكانت رايتهم تلهمه، فأطلق على حركته «الإخوان المسلمون» ولكن هل تستطيع الجماعة المدنية أن تقيم دولة؟ هل من شأنها أن تخضع مصر لحكمه، هل من شأنها أن تعيد دولة الخلافة الفريدة؟ ليس في طوق جماعة تنشغل بالدعوة والعلم وتحسين أخلاق الناس أن تصل إلى

ما يريد، فالإسلام لم يكن مجرد نظرية تبجر في الهواء الطلق فيلتقطها من يشغف بها، بل الإسلام يمتلك حركة ذاتية، فهو دين الحركة، دين الجماعة، دين الفاعلية والمبادرة، والفاعلية لا تكون كذلك إلا بالفاعلين، لذلك يجب أن تكون الحركة جيشاً لا مدرسة، والجيش يلزمه السلاح، والسلاح في فترة الاستضعاف يكون شعاراً، لذلك جعل الشاب حسن البنا من السيفين شعاراً للجماعة، ولكن يجب أن يكون للفكرة وجود في الشعار، لذلك وضع المصحف، وبين السيفين كتب كلمة قرآنية هي «وأعدوا» ولكن هل ستكون الفكرة هي الإسلام الذي يعرفه الناس، فيماذا تتميز الجماعة إذن إن جعلت من الإسلام فحسب فكرة لها؟ فالجمعية الشرعية، وأنصار السنة، تسبق الجماعة في العمر، وفكرتها هي الإسلام، فكّر حسن البنا في أن يكون أكثر تحديداً، وأمامه عبدالعزيز آل سعود الذي اعتبره جيش الإخوان الإمام والقائد، ومع ذلك لم يكن الأمر كافياً عند الملك عبدالعزيز، فهو لم يخلط نفسه بالفكرة، ولكن حسن البنا وجد الفكرة، الفكرة هي شخصه، هو الإمام والقائد والمرشد وصاحب الدعوة، هو الرجل الذي اختلط بفكرته واختلطت فكرته به، وكما أن هناك دعوة محمد بن عبد الوهاب الذي كان تلاميذه يطلقون عليه «صاحب الدعوة» إقتداءً بما قالته زوجته الأمير محمد بن سعود «موضى بنت محمد بن عبد الله العريني» حين أوصت زوجها باتباع محمد بن عبد الوهاب فقالت له: اتبع دعوة هذا الرجل فهو غنيمة خصك الله بها.

فكان حسن البنا أيضاً هو «صاحب الدعوة».

ومن بعد ذلك ظلت جماعة الإخوان المسلمين تعيش في كنف الفكرة والقوة.

انتهى أحمد من القراءة، فقلت له: وكأنك تريد أن تقول إن الجماعة تمتلك أدوات القوة وتعمل بها، إذن إما أنها ستُحسِنُ استخدام القوة فتصل إلى ما تريد وإما أن تكون القوة التي تمتلكها عبارة عن...

قاطعني: بئر بارودٍ تقف عليه الجماعة قد ينفجر فيها في أي لحظة.

قلت: ولكن الذي تحدثنا فيه الآن عبارة عن تاريخ وقد تكون الرؤى تغيرت، وأوافقك أن هذه كانت أفكار حسن البنا، وأوافقك أنه استلهم تجربته من عبدالعزیز آل سعود الذي أقام دولة، ولكن هل ما زال هذا التفكير حيًا في قلوب إخواننا الآن؟ هل هو منهج لمن بيده الأمر في الجماعة؟

رد: وما الذي كنا نفعله في الجماعة عبر سنوات؟ وما معنى المعسكرات والكتائب والتدريبات الرياضية؟ وما هو مغزى شعار السيفين الذي لا تزال الجماعة عليه؟ أنت يا صديقي لم تلمس فرحة «إخواننا» في المكتب (يقصد مكتب الإرشاد) بالحمّلات الأمنية التي تشنها الحكومة علينا، الإخوان يقولون إن هذه الحمّلات وحبس الإخوان عبارة عن معسكرات تدريب للجماعة وتمحيص للصف وتربية على الشدائد، أكل هذا ليس من ورائه طائل؟ ثم ألم يحدث لك أن شاهدت في المحكمة العسكرية أثناء عرض الإخوة على النيابة العسكرية عام 1996 تعاطف عدد من الضباط معنا حتى كنّا نقول لأنفسنا ونحن في عجب من تعاطفهم «وكانهم إخوان» ثم نقول: «كم منا وليس فينا!».

أنت وجمعتهم
مستهة وتسعه

قلت له: كلامك عن تعاطف ضباط النيابة العسكرية مع الإخوان نبهني ونشط ذاكرتي، لذلك أستطيع أن أضيف لكلامك شيئًا خطيرًا تذكركه الآن.

أحمد ربيع: ما هو؟

باغتته: أنا الآن على يقين أن الجماعة لها تنظيم داخل الجيش يعمل منذ فترة، وقد عرفت هذا من خلال أحد الإخوة الذين كانوا معي في أسرة إخوانية واحدة بمنطقة الزيتون.

ربيع: من هو؟

أنا: اسمه أشرف وهو أخ طيّب، وكان ضابطاً سابقاً في الجيش من الضباط المهندسين.

ربيع: وكيف عرف هو ذلك؟

أنا: الحقيقة هو لم يقل لي ذلك بشكل صريح، ولكننا كنا في يوم من الأيام نصلي الجمعة في مسجد «العزیز بالله» بالزيتون وبعد الصلاة وجدته يسلم بحميمية على شخصين وبعد أن انصرفا سألته عنهما فقال إنهما من الإخوان، ولكنهما لا يشاركان في أي أنشطة إخوانية لأنهما يشغلان مواقع حساسة في الدولة.

ربيع: وما في ذلك؟

أنا: لا شيء، كل الحكاية أنني أعرف هذين الشخصين، هما من ضباط الجيش، أولهما كان قائد الكتيبة التي كنت مجنّداً فيها في الجيش والثاني كان مسئول الأمن في الكتيبة، يعني عام 1981 كان أحدهما هو الرائد هاشم، والثاني كان النقيب هاني.

وبعد سنوات من حديثي مع أحمد ربيع أصبح هذان الضابطان من أصحاب الرتب الكبيرة والمواقع الحساسة في الدولة.

الفصل العاشر

القطار المخطوف

عَاكِفٌ أَنْفٌ رَسِيمَةٌ رَسِيمَةٌ رَسِيمَةٌ

لم تكن هزيمة 1967 مجرد هزيمة عسكرية وقعت على رأس مصر، وليتها كانت كذلك، ولكنها كانت نكبة اجتماعية خلفت وراءها آثاراً خطيرة، عَضَّتْ هذه الهزيمة بنواجزها نفوس الشباب فوقعوا أسرى في مشاعر القهر وانتبهوا إلى أنهم يتنفسون في بلادهم دُخان الاستبداد، والنفوس المقهورة تعيش في سجن نفسي قسوته طاغية، فهي تشعر بالعجز أمام العدو الخارجي الذي قهرها، والضعف أمام الحاكم المستبد الذي امتلك مقاديرها فتحكم فيها، فما بالك إذا وقع الإنسان بين هذا وذاك وهو في السجن يجرع ويلات التعذيب؟ حينئذ يشعر المقهور بأنه لا شيء، بأنه بقايا إنسان عاجز ذليل مهان، لكن هذا الشعور لا يستمر أبداً، فالنفس الإنسانية لها وسائلها للدفاع عن الذات، ولكي تستعيد توازنها النفسي؛ فإنها تتأثر لذاتها التي تعرضت للقهر والمهانة والتحقير فتستعلي على الآخرين وتحتقرهم، وبذلك يتحول هذا الإنسان المقهور إلى صورة من قاهره المستبد، وبعد أن كان يرى نفسه قد أصبح عبداً أو أقرب إلى العبد إذا به يشعر بسيادة كاذبة، يكرهه من خلاها قومه الذين لم يقفوا معه حين

استبدَّ به المُستَبَدُّ، ويكره وطنه المقهور بالهزيمة، فيسعى إلى الهجرة الحقيقية أو الهجرة الشعورية والعزلة عن المجتمع التي يتصوّر أنها ستكفل له الحماية والصيانة، وما يصدّق على الأفراد يصدّق أيضاً على الجماعات والتكوينات البشرية، لذلك فإنّ أيّ جماعة ظلّت عمرها تحت ركام الاستبداد والقهر لا بدّ أن تتحوّل إلى جماعة مُستَبَدَّة إذا ما حكمت، ستحوّل دون أن تشعر إلى نسخة أخرى من المستبد الذي قهرها، كلّ التاريخ كان كذلك.



ألف في سبعة وسبعين مئة

في حرّ يوليو من عام 1967 وفي أحد السجون المصرية جلس الشاب الغامض صاحب النظرات العميقة الحادة والشعر الأسود المفروق من منتصفه مع مجموعة من المساجين من شباب الإخوان، كلّهم سُجنوا لأنهم كانوا فاعلين في تنظيم سيد قطب، كلّهم عانى القهر والاستبداد والشعور بالمهانة والذلة تحت وطأة التعذيب.

لا شك أنّ هزيمة يونيو أصابت المسجونين بمشاعر مختلفة، شعر بعضهم بالأسى والمرارة، وصبّوا نقيمتهم على الحاكم الذي رأوا أنّه خرج عن الإسلام فأصاب البلاد في مقتل، وشعر البعض الآخر بالفرحة في هذا الحاكم الذي هو في ظنهم الدُّ أعداء الإسلام، وقالوا: هزمه الله وهزم شعبه الذي خرج عن طريق الإسلام وخضع لحاكمه الكافر المستبد، وما هذا الشعب إلاّ شعب فرعون الذي استخفّ قومه فأطاعوه.

تحدّث الشاب الغامض بلسانٍ طلقٍ بليغ، وقال للشباب الذين يجلسون

معه: لا يَظُنُّ أَحَدُكُمْ أَنَّ أُمَّةَ يَهُودَ هِيَ الَّتِي هَزَمَتْ جَمَالَ عَبْدِ النَّاصِرِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي هَزَمَهُ لِأَنَّهُ كَفَرَ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

كَيْفَ عَبْدُ النَّاصِرِ كَافِرٌ؟! : سَأَلَهُ أَحَدُ الشَّبَابِ الَّذِينَ يَتَحَلَّقُونَ حَوْلَهُ:

لَيْسَ عَبْدُ النَّاصِرِ وَحْدَهُ الَّذِي كَفَرَ وَلَكِنَّ الشَّعْبَ كُلَّهُ كَفَرَ، فَعَبْدُ النَّاصِرِ الْمُسْتَبَدُّ يَحْكُمُ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَالشَّعْبُ الْخَائِعُ الْبَلِيدُ وَافَقَهُ عَلَى ذَلِكَ، وَمَنْ وَافَقَ عَلَى الْكُفْرِ فَقَدْ كَفَرَ: قَالَهَا صَاحِبُنَا الْغَامِضُ بِنَبْرَتِهِ الْحَادَّةِ الَّتِي تَتَدَاخَلُ الْعَصِيَّةُ مَعَهَا.

ثُمَّ اسْتَرْسَلَ: الْكِبَائِرُ أَيْضًا تُورِثُ الْكُفْرَ.

قَالَ شَابٌّ مِنَ الْجَالِسِينَ نَحِيفُ الْبَدَنِ لَوَّحَتِ الشَّمْسُ وَجْهَهُ بِسُمْرَةٍ خَفِيفَةٍ: وَلَكِنَّ أَحَدًا مِنَ الْعُلَمَاءِ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ!

رَدَّ عَلَيْهِ صَاحِبُنَا الْغَامِضُ: أَنْتَ مِنْ إِخْوَانِ الْمَحَلَّةِ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ وَمَعَ ذَلِكَ تَرَكْتَ بِلَدَكَ وَتَدَرَّبْتَ عَلَى السَّلَاحِ فِي قَرْيَةِ الزَّوَامِلِ بـ «إِنْشَاصِ الْخَاصَةِ» بِالْقَرَبِ مِنْ مَعْسَكَرَاتِ الْجَيْشِ وَفِي حَدَاقِ الْإِصْلَاحِ الزَّرَاعِيِّ، وَكَانَ النَّاسُ يَظُنُّونَنَا مِنْ أَفْرَادِ الْجَيْشِ، فَهَلْ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ لِمَحَارَبَةِ الْيَهُودِ؟ أَنْتَ فَعَلْتَ ذَلِكَ لِلْقَضَاءِ عَلَى حَاكِمٍ كَافِرٍ، وَمِنْ بَعْدِهِ سَيَكُونُ الْإِسْلَامُ خَالِصًا نَقِيًّا، وَمَعَ ذَلِكَ يَا أَخِي فَإِنَّ الشَّهِيدَ سَيَدَ قُطْبٍ يَقُولُ بِكَفْرِ مَنْ أُرْتَكَبَ مَعْصِيَةٌ ثُمَّ لَمْ يَتُبْ إِلَى اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَلَمْ تَقْرَأْ قَوْلَهُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ فِي تَفْسِيرِهِ لآيَاتِ الْمَوَارِيثِ؟

رَدَّ الشَّابُّ الْمَحَلَّاءِي: لَا، لَمْ أَقْرَأْ إِلَّا «مَعَالِمَ فِي الطَّرِيقِ».

أَشَارَ إِلَيْهِ صَاحِبُنَا الْغَامِضُ بِكَفِّ يَدِهِ عِلَامَةً أَنَّ أَنْصَبَتْ: إِذْنُ اسْمَعَهَا

مني، قال الشهيد: «يترتب على تعدّي آيات المواريث وعصيان الله ورسوله فيها النار والخلود والعذاب المهين».

سَكَتَ الشابُّ الغامضُ قليلاً وأطرقَ إلى الأرضِ ثم عادَ إلى استِرسالِهِ قائلاً: ثُمَّ يَسْأَلُ الشَّهِيدُ عَنْ سَبَبِ هَذَا الْخُلُودِ فِي النَّارِ، فيقولُ: لماذا تترتبُ كلُّ هذه النتائجِ الضخمةِ على طاعةٍ أو معصيةٍ في تشريعٍ جزئيٍّ كتشريع الميراث، وفي جزئيةٍ من هذا التشريع، وحدٍّ من حدوده؟

وحين يضعُ الشهيدُ أمامنا كلماتِهِ الاستفهاميةَ التعجبيةَ بأن الآثارَ قد تبدو أمامَ الذي لا يعرفُ حقيقةَ هذا الأمرِ وأصله العميقَ أضخمَ من الفعلِ، فالفعلُ قد يبدو هيناً، أمّا الأثرُ فهو خطيرٌ رهيبٌ، إلّا أنَّ الشهيدَ صاحبَ الظلالِ رحمه الله لا يتركنا حيارى نتخبّطُ في دياجيرِ الظلامِ، بل يعودُ ليُجليَ لنا الغموضَ، اسمعوه وهو يقولُ رحمه الله:

إنَّ الأمرَ في هذا الدِّينِ بل في دينِ الله كَلَّهُ منذُ أن أُرسلَ رُسُلُهُ للناسِ منذُ فجرِ التاريخِ هو: لِمَنِ الألوهيةُ في هذه الأرضِ؟ ولِمَنِ الربوبيةُ على هؤلاء الناسِ؟ هل تستطيعون الإجابةَ على السؤالِ الذي طرحه الشهيدُ؟ تعرفون الإجابةَ قطعاً، ومن هنا نطلقُ، ومن هنا نفهمُ، وعلى الإجابةَ عَنْ هَذَا السَّؤَالِ فِي صِغَتِهِ هَاتَيْنِ يَتَرْتَبُ كُلُّ شَيْءٍ فِي أَمْرِ هَذَا الدِّينِ، وكلُّ شَيْءٍ فِي أَمْرِ النَّاسِ أَجْمَعِينَ!

يَسْأَلُنَا الشَّهِيدُ صَاحِبُ الظَّلَالِ قَائِلاً: لِمَنِ الألوهيةُ؟ ولِمَنِ الربوبيةُ؟ لله وحده - بلا شريكٍ من خلقه - فهو الإيَّانُ إذن، وهو الإسلامُ، وهو الدِّينُ، أمّا مَنْ يُعْطِي الألوهيةَ والربوبيةَ لبعضِ مَنْ خَلَقَ اللهُ فهو الشِّرْكُ إذن أو الكُفْرُ

المبين، فالله وحده هو الذي يختار للناس منهج حياتهم، والله وحده هو الذي يسن للناس شرائعهم والله وحده هو الذي يضع للناس موازينهم وقيمهم وأوضاع حياتهم وأنظمة مجتمعاتهم، وليس غيره - أفراداً أو جماعات - شيء من هذا الحق، فإذا كانت الألوهية أو الربوبية لأحد من خلق الله - شركة مع الله أو أصالة من دونه - فهي الدينونة من العباد لغير الله وهي العبودية من الناس لغير الله، وهي الطاعة من البشر لغير الله، وذلك بالاتباع للمناهج والأنظمة والشرائع والقيم والموازين التي يضعها ناس من البشر، ومن ثم فلا دين، ولا إيمان، ولا إسلام، إنما هو الشرك والكفر والفسوق والعصيان.

وهنا أسكته رجلٌ صاحبٌ وجهٍ وضيءٍ في منتصفِ العقدِ الرابعِ من عمره: صه يا أخي ما هكذا تُوردُ الإبل، مع حبنا للشهيد سيد قطب رحمه الله إلا أن هذا ليس هو فكر الإخوان ولا منهج الإخوان.

ردَّ صاحبنا الغامضُ بنبرته الحادة العصبية: وبماذا تبرَّرُ الخلود في النار لمن يعصي الله إذن في أيِّ حكمٍ من أحكامِ المواريث.

قال الرجل الوضيءُ بنبرته الهادئة الواثقة: إنما يكون هذا عند كفر التكذيب، كأن يرفض هذه الأحكام لأنه يرى أنها غير منزلة من عند الله، أما رفض التطبيق لدنيا يصيبها مع يقينه بأنها من عند الله فإن هذا يوجب على صاحبها الذي لم يتب عذاب السعير تطهيراً له من الدنس وما ران على قلبه ثم ماله الجنة إن شاء الله.

ردَّ صاحبنا الغامضُ على الرجل الوضيء: لا أراك على حقٍّ يا أستاذ أحمد، أريد أن أجلس معك كثيراً فبحر العلم واسع لا نهاية له وسأعقد لك

جَلَسَاتِ مَعَ الشَّيْخِ عَلِيِّ إِسْمَاعِيلَ فَهُوَ حَرِيٌّ بِأَنْ يَرُدَّ عَلَيْكَ وَيَضَعَكَ عَلَى طَرِيقِ الْحَقِّ.

قال الرجلُ الوضيءُ: مصطفى مشهور ليس على رأي الشهيد سيد قطب.
رَدَّ صَاحِبُنَا الْغَامِضُ بِحِدَّةٍ: أَنْتَ لَا تَعْرِفُ يَا أَسْتَاذُ أَحْمَدَ شَيْئًا، مصطفى مشهور يَسْتَخْدِمُ التَّقِيَّةَ، هو معنا في عَقِيدَتِنَا.

الرجلُ الوضيءُ: المرشِدُ حَسَنُ الْهَضْيَبِيِّ يَقُولُ مِثْلَ قَوْلِي.

أَنْهَى الشَّابُّ الْحِوَارَ بِقَوْلِهِ: الْهَضْيَبِيُّ كَافِرٌ، وَإِنْ كَتَبَ اللَّهُ لَكَ عُمْرًا سَتَرَافِي وَأَنَا أَحْكَمُ الْعَالَمِ بِالْإِسْلَامِ، سَيَقُولُ الْعَالَمُ إِنَّ «شُكْرِي مُصْطَفَى» هُوَ مِنْ مِيرَاثِ النَّبُوَّةِ، وَسَأَمْلَأُ أَنْهَارَ وَبِحَارِ الْعَالَمِ بِدِمَاءِ الْكُفَّارِ، سَأُعِيدُ الْخِلَافَةَ وَسَتَكُونُ الْقُدْسُ هِيَ عَاصِمَةُ الْخِلَافَةِ.

وَقَبْلَ أَنْ يَنْتَهِيَ الشَّابُّ «شُكْرِي مُصْطَفَى» مِنْ كَلَامِهِ سَمِعَ الْمُجْتَمِعُونَ صَوْتَ صُرَاخٍ وَعِرَاكِ يَتَصَاعَدُ مِنْ إِحْدَى بَاحَاتِ السَّجَنِ.



كَانَ الْمَغْرِبُ قَدْ أَعْلَنَ عَنْ قُدُومِهِ وَأَنَا فِي مَكْتَبِ أَحْمَدَ رِبِيعَ غَزَالِي، فَصَلَّيْنَا جَمَاعَةً ثُمَّ جَلَسْنَا عَلَى الْأَرْضِ بَعْدَ أَنْ خَتَمْنَا الصَّلَاةَ، سَادَتْ لَحْظَةً صَمْتُ بَيْنَنَا وَكَأَنَّمَا نَبَحْتُ عَنْ مُفْتَتَحِ مَغَايِرِ لِلْحَدِيثِ الَّذِي كَانَ يَدُورُ بَيْنَنَا قَبْلَ الصَّلَاةِ، قَطَعَ أَحْمَدُ رِبِيعَ الصَّمْتِ قَائِلًا: حَسَنُ الْبَنَّا كَانَ دَاعِيَةً عَظِيمًا، وَلَوْ تَفَرَّغَ لِلْفَقْرِ لَكَانَ فَقِيهَ الْعَصْرِ فَلَدِيهِ بَصِيرَةٌ ثَابِتَةٌ وَفِرَاسَةٌ مُذْهِلَةٌ.

قلتُ مكمّلاً: وذاكرةٌ لاقطةٌ مثل: «الفوتو كوبي» وأظنه كان في ذاكرته مثل: «أبو العلاء المعري والإمام الشافعي».

أكمل أحمد ربيع: ولكنّه فضّل الزّعامَة على الفقه، رأى أنّه من الأفضل أن يصنّع رجالاً وتنظيماً لتحقيق فكرته، ولم يفكر في أن يدخل مجال العلم والتأليف والكتابة.

قلتُ مؤكّداً: ذلك أنّه كما وصلت أنت في بحثك كان يبحث عن إقامة دولة، والدولة يصنعها فردٌ، والفرد يصنع تنظيمًا، والتنظيم يمتلك آلة القوة، ووجاهة الفكرة، حسن البناء كان لا يرغب في الكتابة عن دولة الإسلام التي يريّجها ولكنّه كان يريد إقامتها.

أحمد ربيع: وهل تظنّ أننا ما زلنا على الفكرة الأولى التي بدأ بها حسن البناء؟ قلتُ: جلستُ مع أبو العلا ماضي كثيراً في الفترات الأخيرة وهو على وشك أن يؤسّس مع الدكتور العوا جمعية ثقافية، وقد قال لي كلاماً كثيراً في هذا المجال، قال إنّ هذه ليست هي جماعة الإخوان التي يعرفها، وقال تحليداً: إنّ جماعة الإخوان مثل القطار الذي كان متّجّهاً إلى مدينة ما فقام بعض الأشرار باختطاف القطار وتغيير مساره، وعندما سألتّه عمّا يقصد قال: إنّ تنظيم سيد قطب بدأ في السيطرة على الجماعة، وأذكر أيضاً أنّه قال: إنّ أفراد تنظيم سيد قطب ليسوا من أبناء الفكرة الأصلية للإخوان ولكن لديهم رؤية خاصّة بهم، ولكنني أرجعتُ هذا الكلام إلى خلافه مع الجماعة في مسألة إنشاء حزب الوسط.

أحمد ربيع: وهل أبو العلا فقط هو الذي قال هذا الكلام؟

قلت: لا، لقد تناقشت مع عصام سلطان في أشياء كثيرة عن حزب الوسط وكان ينهي حواراته معي دائماً بعبارةٍ ما زال يكررها كثيراً، هي «إن جماعة الإخوان يقودها الآن مجموعة من الأغبياء الذين لا يفهمون، ولو فهموا لما تواءوا» وأن «الجماعة انتهت بوفاة الأستاذ عمر التلمساني وأن من يدير الجماعة الآن هم المنخنة والموقودة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع» ولكنني اعتبرت أن عصام قال هذا الكلام وهو تحت وطأة الانفعال من رد فعل الجماعة على إنشاء الحزب، كما أن هذا الكلام لا علاقة له بالفكرة بقدر ما هو متعلق بالإمكانات.

أحمد ربيع: سأتركك تتذكر وأنا أثق في ذاكرتك، هل تذكر شهر نوفمبر من عام 1995، هل تتذكر ما الذي حدث فيه؟

أحمد ربيع: نعم

وقبل أن أجيب استأذن أحمد ربيع ليذهب إلى غرفة مكتبه حتى يقضي بعض شئون المكتب، أما أنا فذهبت بذاكرتي إلى شهر نوفمبر من عام 1995.

كان هذا الشهر قائماً كثيباً، يكفي أنه تم القبض فيه على بعض رموز الجماعة، وكانت التحقيقات في نيابة أمن الدولة تجري على قدم وساق، كان عدد المقبوض عليهم كثيراً، وكان منهم «عبد المنعم أبو الفتوح ومحمود عزت والسيد عبد الستار المليجي ومحيي الظايط وصالح عبد المقصود» وغيرهم كثير، وكان من نصيبي أن حضرت التحقيق مع عبد المنعم أبو الفتوح، كان رئيس نيابة أمن الدولة الذي أجرى التحقيق اسمه عبد المنعم الحلواني، وقد كان متعاطفاً جداً معنا، وسمح لي بمساحة كبيرة في المرافعة بعد أن انتهت

من استجواب أبو الفتوح، وكان يحضر معي للمدافعة عن أبو الفتوح أحد المحامين من الإخوان اسمه صلاح سالم وهو من أغرب من قابلت من الإخوة حتى إننا كنا نطلق عليه من كثرة رغبته «لسان تحول إلى إنسان» وأذكر أن وكيل النيابة قال لنا بعد أن أخرج سكرتير التحقيق: إن قرار الحبس قد صدر بالفعل وأنه لا يملك شيئاً حيال ذلك، وأنه يأسى لما يحدث للإخوان، وما إن قال رئيس النيابة ذلك حتى استأذنه صلاح وخرج ليخبر كل الذين في ردهات النيابة بما قاله لنا رئيس النيابة، وفضح تعاطف الرجل معنا، وكادت تحدث مشاكل كثيرة بسبب رعونته هذا الأخ وأنفلات لسانه.

كان عجبني وقتها كبيراً أن أجد أحد رؤساء نيابة أمن الدولة الكبار متعاطفاً مع الإخوان إلى حد أن يبدي لنا خيبة أمله لأنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً حيال قرار حبس الإخوان احتياطياً على ذمة التحقيق، وفيما بعد زال عجبني عندما كنا وبعض الإخوان في رحلة صيفية إلى الإسكندرية، وفي نادي الأطباء بمنطقة «سابا باشا» تقابلنا مع الحاج جمعة أمين عضو مكتب الإرشاد والذي يطلق عليه في الإخوان «الحارس الأمين على الأصول العشرين» وجرنا الحديث عن القضايا العسكرية التي بدأ النظام يواجه الإخوان بها إلى الحديث عن تحقيقات نيابة أمن الدولة التي تجريها مع الإخوان وقرارات الحبس «سابقة التجهيز» حينها قال أحد الإخوة للحاج جمعة: هؤلاء هم طواغيت هذا الزمان.

فقال له الحاج جمعة بصوت تعمد أن يكون خافتاً وكأنه يذلي بسر خطير: ليسوا جميعاً، فالله قد هدى البعض.

قال أخ من إخوان الإسكندرية اسمه المهندس «علي» كان يعمل موظفًا في إحدى النقابات: هل أسلم بعضهم؟!

ارتسمت على وجهي ابتسامة واسعة وأنا أتذكر تلك الأحداث وأسترجع ذلك اللقاء، فقد أيقنت بعد كلمة الأخ علي الغريبة على مسامعي أنني لو نظرت إلى وجهي في المرآة لوجدت عيوني قد أصبحت مثل علامة التعجب من فرط اندهاشي وأنشداهي، حتى أنني ضحكت وقتها أمام الجالسين من كلمة الأخ علي، أيعقل أن يكون أحد الإخوة يتحدث عن مسلمين مثلنا فيقول عنهم: هل أسلموا!! نظر الإخوة لي وهم يستغربون ضحكتي، فقلت وأنا أقطع ضحكتي: لا تؤاخذوني يا جماعة فقد تذكّرت فيلم «فجر الإسلام» عندما قال الممثل الذي أدّى الدور وهو يكسر الأصنام «شلت يدي» ففرح الكفار، ففاجأهم وهو يغیظهم «إنها سليمة».

لم يابه الحاجّ جمعة أمين لضحكتي وقال وصوته يزداد خفوتًا: عندكم عبد المنعم الحلواني رئيس نيابة أمن الدولة، لقد عقدت معه صداقة قوية واستضافته في بيتي أيامًا عندما جاء للإسكندرية هذا الصيف، وشرحت له الأصول العشرين للإمام الشهيد حسن البنا، وقد أقتنع تمامًا بدعوة الإخوان، وقد أوصلته إلى بعض الإخوة ليتابعوا معه، وأيضًا إخواننا في القضاة «بيشتغلوا دلوقة على مستشار اسمه الخصري» وأخونا المستشار مصطفى الشقيري ربنا يكرمه هل تعرفونه؟

فقلت له: نعم أعرفه فقد كان معي في شعبة الزيتون وانتقل معي لإحدى شعب مدينة نصر.

فأكمل جمعة أمين حكايته وقال: مصطفى الشقيري (عامل شغل كويس مع القضاة).

قال الأخ المهندس علي الذي سأل «هل أسلم بعضهم»: أنا أعرف أن الأخ الدكتور سعد زغلول العشماوي هو ابن عم وكيل نيابة اسمه أشرف العشماوي وأنه (عامل معاه شغل).

توالت الصور والأحداث على ذاكرتي وكأنني أشاهدها شاخصة أمام بصري، وكانت الصورة التي تذكّرتها وجعلتني أهبّ واقفاً، صورة الحاج جمعة وأنا أصرّح به في سيارتي لأوصله لبيتته وكان معنا في السيارة أخ من إخوان الإسكندرية أذكر أن اسمه جمال عبد المنعم، وإذا أردت أن أقطع الصمت الذي ساد بيننا في السيارة فسألت الحاج جمعة: ولكن ليس بالقضاة فقط نستطيع أن نصّل للتمكين، فردّ الحاج جمعة بثقة: نحن نشيئ يا أخي مدارس نربي فيها الجيل الجديد، فقلت له: ولكن هذا أيضاً لا يكفي، فردّ بثقة: (بلاش طمع، اعتبر أنني لم أقل لك إننا وصلنا بالفعل إلى الجيش، فهتفت وأنا أقول له بدهشة: هل لنا نشاط في الجيش، فردّ قائلاً: أنا لم أقل شيئاً أفهمها كما تريد.



في لحظة من لحظات حياتك يجب أن تتوقف لتلتقط أنفاسك، وحينها ضع يدك على عقارب الزمن وقم بتحريكها لتمرّ على حياتك المنقضية كلها، توقف بالعقارب عند اللحظات المهمة في حياتك وانظر لها من زاوية التي تقف فيها الآن، ستقبل بعضها وترفض بعضها وتكره بعضها وتحب بعضها

إِلَّا أَنَّكَ سَتَتَعَلَّمُ مِنْهَا كُلَّهَا، هَذِهِ هِيَ لَحَظَاتُ الْمَرَاஜَعَةِ وَالْفَحْصِ وَالتَّمَحِيصِ
الَّتِي نَغْسِلُ فِيهَا أَرْوَاحَنَا فَتَزْدَادُ إِشْرَاقًا، كَانَتْ أَهَمُّ لَحَظَاتِ حَيَاتِي الَّتِي أَحْبَبْتُهَا
فَأَوْقَفْتُ عِنْدَهَا عَقَارِبَ الزَّمَنِ هِيَ تِلْكَ اللَّحَظَاتِ الَّتِي جَمَعَنِي فِيهَا الزَّمَنُ
بِالْأَسْتَاذِ أَحْمَدَ إِبْرَاهِيمَ أَبُو غَالِي الَّذِي عَلَّمَنِي حِينَ كُنْتُ صَغِيرًا، وَعَلَّمَنِي
حِينَ ظَنَنْتُ أَنَّنِي أَصْبَحْتُ كَبِيرًا، تَيَقَّنْتُ وَأَنَا أَوْقَفُ عَقَارِبَ الزَّمَنِ عِنْدَ لَحَظَاتِي
مَعَ ذَلِكَ الْأَسْتَاذِ الشَّيْخِ أَنَّ الزَّمَنَ لَا يَنْسَحِبُ مِنْ حَيَاتِنَا بَلْ يَظَلُّ دَائِرًا سَائِرًا فِي
أَرْوَاحِنَا لَا يُغَادِرُهَا إِلَى أَنْ تَنْسَحِبَ أَرْوَاحُنَا مِنْ أَجْسَادِنَا ذَاهِبَةً إِلَى دُنْيَا أُخْرَى
وَزَمَنٍ آخَرَ، وَفِي نِهَآيَةِ الزَّمَنِ نَصُلُ لِمُسْتَقَرِّنَا الْأَخِيرِ فَيَتَغَيَّرُ الْقَانُونُ، فَبَدَلًا مِنْ أَنْ
يَمُرَّ عَلَيْنَا الزَّمَنُ نَمُرُّ نَحْنُ عَلَيْهِ، وَبَدَلًا مِنْ أَنْ يَدُورَ بِنَا، نَدُورُ نَحْنُ بِهِ.

تَوَقَّفَ عَقْرِبُ الزَّمَنِ عِنْدِي عَلَى تِلْكَ الْأَيَّامِ الَّتِي كُنْتُ لَا أَكَادُ فِيهَا أَغَادِرُ
الْأَسْتَاذَ أَحْمَدَ أَبُو غَالِي، لَمْ يَتَجَاوَزِ الْعَقْرِبُ عَامَ 2004 بَلْ ظَلَّ يَقْفُزُ مِنْ أَعْلَاهُ
إِلَى أَدْنَاهُ وَمِنْ مِيمَتِهِ إِلَى مَيْسَرَتِهِ، وَتَوَقَّفَتْ حَرَكَةُ الْمَكَانِ عِنْدَ شَارِعِ نَخْلَةِ
الْمَطِيْعِيِّ بِمِصْرَ الْجَدِيدَةِ، وَتَوَقَّفَ الشَّارِعُ عِنْدَ بَيْتِ الْأَسْتَاذِ، كُلُّ الْعَالَمِ كَانَ
عِنْدَ هَذِهِ النِّقْطَةِ الَّتِي لَا حَجْمَ لَهَا عِنْدَ الْكَوْنِ.

عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ طَرَقْتُ الْبَابَ فَتَحَ الْأَسْتَاذُ بَعْدَ فِتْرَةٍ، وَجَدْتُهُ مُسَكِّيًا بَوْرَقَةً يَقْرُؤُهَا،
أَلْقَيْتُ عَلَيْهِ فَرْدَ بِيْشَاشَةٍ وَقَدْ تَهَلَّلَ وَجْهُهُ، أَجْلَسَنِي كَالْعَادَةِ فِي غُرْفَةِ الْمَعِيشَةِ
الَّتِي تَأْخُذُ الْمَكْتَبَةَ مِنْهَا مَسَاحَةٌ كَبِيرَةٌ، جَلَسَ عَلَى أَرِيكَتِهِ وَانْشَغَلَ بِاسْتِكْمَالِ
قِرَاءَةِ الْوَرَقَةِ، ثُمَّ قَالَ لِي: الْحَقَّانِيَّةُ، مُصْطَلَحٌ جَدِيدٌ.

قُلْتُ بِخَفَّةٍ وَقَدْ وَجَدْتُهَا فَرْصَةً لِأَتَعَالَمَ عَلَى الشَّيْخِ: الْحَقَّانِيَّةُ لَيْسَتْ مُصْطَلَحًا

جديداً، فالحقانية من الحق، ونحن كرجال قانون نعرف «الحقانية».... المقر الرئيسي لمحكمة الإسكندرية اسمه «الحقانية» ووزارة العدل في مصر كان اسمها الحقانية.

قأطعني الأستاذ ضاحكاً: (خذ عندك كمان) هناك الطريقة الحقانية النقشبندية وهي طريقة صوفية... ثم أكمل: لا على هذه التعبيرات قصدت ولكن قصدت شيئاً آخر، هذا الشيء جاء لي في خطاب من تلميذة نجبية من تلاميذي تعودت كل حين أن ترسل لي خواطرها الدينية.

وهل هي من الإخوان؟

لا أبداً، إنها فتاة وهبها الله قدراً من البصيرة اسمها هدى عبد الجواد الصاوي، والدها كان ذات يوم من أتباع شكري مصطفى ثم خرج عليه حين تبين له الحق، وهو اليوم من كبار الأطباء في المملكة السعودية وله موقع متميز في هيئة الإعجاز العلمي للقرآن، وهدى هذه كابتتي «ميساء» التي سافرت إلى كندا مع زوجها، تفكر بنفس طريقتهما وتدافع عن الذي تؤمن به بكل قوتها، ولكنها في ذات الوقت لا تتشبث برأيها إذا ما تبين لها عدم صوابه، بل إنها تسارع بإعلان أنها كانت على خطأ وتلك فضيلة تاهت عن قادة الحركة الإسلامية في زمننا، أمّا ما جعل لتلميذتي هذه مكانة عندي هي أنها دائماً تبحث عن الحق.

- أذلك أرسلت لك شيئاً عن الحقانية؟

- لا إنها تقصد شيئاً آخر.

- ما هو؟

هي تُشخص حالة الحركة الإسلامية، وأظنها تقصد جماعة مثل جماعة الإخوان، وتستخدم تعبير الحقن أي المداواة بالدواء الذي يُحقن به المريض في موضع متعلق بقائد الجماعة أو شيخها أو عالمها وطريقته مع أتباعه، وإنشده أتباعه له لدرجة أنهم يعتبرونه قديساً ملهماً وكأنه الإسلام نفسه، وما أنشدهوا المرشدين أو شيخهم إلا لأنه حقنهم بما يريد، فأصبح هو حاقناً وأصبحوا هم محقونين.

مآدام الموضوع متعلقاً بحال الحركة الإسلامية وتبعية الأفراد لمتبوعهم حتى يتنا بين التابع والمتبوع، فهل تسمح لي بقراءة هذه الخاطرة؟
ناولني الأستاذ الورقة وهو يقول: اقرأ بتركيز وقف عند كل لفظ بإمعان فكتابات هدى مشفرة إذا نجحت في فك شفرتها وصلت إلى المعاني التي تقصدها، تناولت منه الورقة وأخذت أقرأها بتؤدة، الخاطرة طويلة وعميقة وملغزة في بعض الأحيان ولكن ذاكرتي اجتزأت منها الفقرات التالية:

«أفكر كثيراً يا أستاذي العزيز فيما كان عليه الناس قبل أن يتحول الجميع إلى مسوخ.. ومن الذي كان عالماً بأفكارهم وتوجهاتهم حتى استطاع أن يعبث بأصل تكوينهم عبر الزمن.. لا أشك أبداً في أن من قام بذلك العمل المشين قد ارتدى بإخلاص ثوب الله.. ظن أنه المتحدث باسمه وأنه يده الباطشة في الأرض.. هل تعلم كُتبه ورحماته وعرف منها نقاط ضعف المخلوقين ثم استخدمهم بها؟ تمنعني في الوثائق التي تشرح كيف هو.. خباً منها ما يمكن أن يرشده للنور ونشر ما يريد هو.. فأظهر الله بوجهه لم يكن أبداً له.. ونشر أدياناً ومذاهب لم يجبر عنها.. مسخ كل ما يوصل لله الحق.. وحتى يقبل الناس ذلك

الحقانيون

وَيَدْفَعُوا عَنْهُ كَانَ يَجِبُ مَسْخُحُهُمْ أَيْضًا.. هَذَا هُوَ «الْحَقَّانِي» صَاحِبُ الْأَمْرِ
وَالنَّهْيِ.. زَعِيمُ «أَهْلِ الْحَقْنِ» وَهُوَ مَنْ يُصْدِرُ الْأَحْكَامَ الْمُطْلَقَةَ عَلَى الْجُمْهُورِ
سَوَاءُ كَانُوا مِنْ «الْعَامَّةِ» أَوْ مِنْ «طَلَبَةِ الْحَقْنِ» وَلَمْ يَنْسَ «الْحَقَّانِي» أَنْ يَضَعُوا
قَوَاعِدَ مُشَدَّدَةً لِحِمَايَةِ أَنْفُسِهِمْ.. فَكَانَتْ الْقَوَاعِدُ الصَّارِمَةُ وَالْوَعِيدُ الشَّدِيدُ
لِمَنْ أُنْتَقَدَهُمْ أَوْ خَاصَمَهُمْ أَوْ جَادَلَهُمْ لِلدَّرَجَةِ الَّتِي أَصْبَحَتْ تُعْقَدُ النَّدَوَاتُ
وَالْمُؤْتَمَرَاتُ وَتُطَبِّعُ الْكُتُبُ وَالْمَجَلَّاتُ فِي التَّحْذِيرِ مِنَ الْمَسَاسِ بِهِمْ.. وَكَأَنَّمَا نَسِيَ
هَؤُلَاءِ أَنَّ لَهُمْ نَبِيًّا عِنْدَمَا قَالَ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ» رَدَّ عَلَيْهِ رَبُّهُ:
﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ نَسُوا أَنَّ الشَّخْصَ الصَّالِحَ فِي كُلِّ تَارِيخٍ هُوَ الَّذِي
يَتَحَمَّلُ أَدَى النَّاسِ وَجَهْلَهُمْ وَيُمْسِكُ بِأَيْدِيهِمْ وَيُوجِّهُهُمْ، لَا يَتَكَبَّرُ أَبَدًا أَوْ
يَشْتَرِطُ طَرِيقَةً مُعَيَّنَةً فِي التَّعَامُلِ مَعَهُ وَ«الْأَدَبِ» فِي الْمُرُورِ مِنْ مَمْلَكَتِهِ وَأَخَذِ
مَوْعِدٍ مَعَ زبَانِيَّتِهِ لِمُقَابَلَةِ قَدَاسَتِهِ.. لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ هَكَذَا وَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ، فَمَنْ أَنْتُمْ؟
أَمَّا السَّدَنَةُ «طَلَّابُ الْحَقْنِ» أَوْ «الْمُتَحِقِّقُونَ» فَهُمْ الطَّوَّافُونَ بِمَنَازِلِ
الْحَقَّانِيِّينَ.. النَّاشِرُونَ لِمَنَاقِبِهِمْ.. الْمُكَافِئُونَ بِجُزْءٍ لَا بِأَسْ بِهِ مِنْ قَدَاسَتِهِمْ..
رَفَعَ أَهْلُ الْحَقْنِ عَنْهُمْ شُبُهَاتِ الْخَطَا فَأَصْبَحُوا دَائِمًا عَلَى صَوَابٍ، وَإِنْ زَلَّتْ
أَلْسِنَتُهُمْ أَوْ أَقْلَامُهُمْ بِمَا يُخَالِفُ مَرْتَبَتَهُمُ الْعُلْيَا يُغْفَرُ لَهُمْ، خَطَاؤُهُمْ هُوَ الْاجْتِهَادُ
وَصَوَابُهُمْ هُوَ الْفَتْحُ الْمُبِينُ، وَكُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ طَالِبَ الْحَقْنِ الْمُبْتَدِئِ أَوْ «الطَّوِيلِبَ» كَمَا يَحْلُو لِبَعْضِ مَنْ
سَبَقُوهُ بِأَعْوَامٍ فِي ذَلِكَ الْفِكْرِ أَنْ يُسَمَّوْهُ.. لَا شَكَّ أَنَّهُ يَلَاقِي الْمُقَابِلَ وَيَقْبِضُ
الْثَمْنَ فَوْرَ قِيَامِهِ بِذَلِكَ الْعَمَلِ.. يَتَسَيَّمُ لَهُ الْجَمِيعُ.. يُبَادِرُونَهُ بِالتَّحِيَّةِ، حَتَّى فِي
الْمَعَامَلَاتِ فَإِنْ كَانَ هُوَ التَّاجِرَ ذَهَبَ إِلَيْهِ النَّاسُ بِاعْتِبَارِهِ «الصَّادِقَ الْأَمِينَ»

وإن كان هو المشتري فقد «حلت علينا البركة» بدخوله إلى أي متجر وإن أراد أن يأخذ ما يأخذ «من غير فلوس» فسيكون ذلك عن تمام رضا من صاحب الخان فهذه «بركة» حلت عليه وعلى عائلته البعيدة من بعده.

ولكن.. لا تنس أن القداسة أيضا لها ضريبة.. يجب أن تتظاهر أمام الجميع وأن يقتنع الجميع أن ترياق القداسة قد أصابك بالفعل وأنت لم تعد تخطئ أبداً مثل الحقائين.. وأنت بالرغم من ترديدك لمسائل عن التوبة والاستغفار إلا أنك لم تخطئ يوماً ولم تغفر لأحدهم إن فعل.

علاقة «طالب الحقن» بالله علاقة شائكة لأنه لا ينفرد به مثل «الحقاني» أو يتعد عنه مثل من لم يمتن عليه أحدهم بالانضمام لذلك الفصيل المبارك، هو بين اثنين لذلك فإنه رغماً عنه يتحول لاثنين؛ عامي عادي، وحقاني ينفض عن ثوبه الناصع خوف ما يكون قد مسه من رذاذ هواء لم يعطر بذكر الحقن. وفي الطبقة الدنيا يأتي «العوام» و«العامي» مصطلح يطلقه حراس الكتب والنظريات الحقانية على كافة البشرية دونهم وطلابهم.. وكل ما يصل ذلك الشخص الذي يمثل الأغلبية عن الله أنه الغيب الذي لا يمكنك السؤال عنه أو تخيل أي علاقة به.. مصدر العقاب والعذاب.. كما هو من ترفع يديك له وتقول «يارب» فيجيبك صوت: لن يجيب فاسداً مثلك.

يتعد الله عنهم بقدر ما يسمعون من عادات المجتمع أو أحكام الكبار، حتى إذا ما ذكر «الله» وجدت زفرات الجميع حولك من العوام تنطق بالآلم. لم يعرف أحد الله..

ابنتك هدى